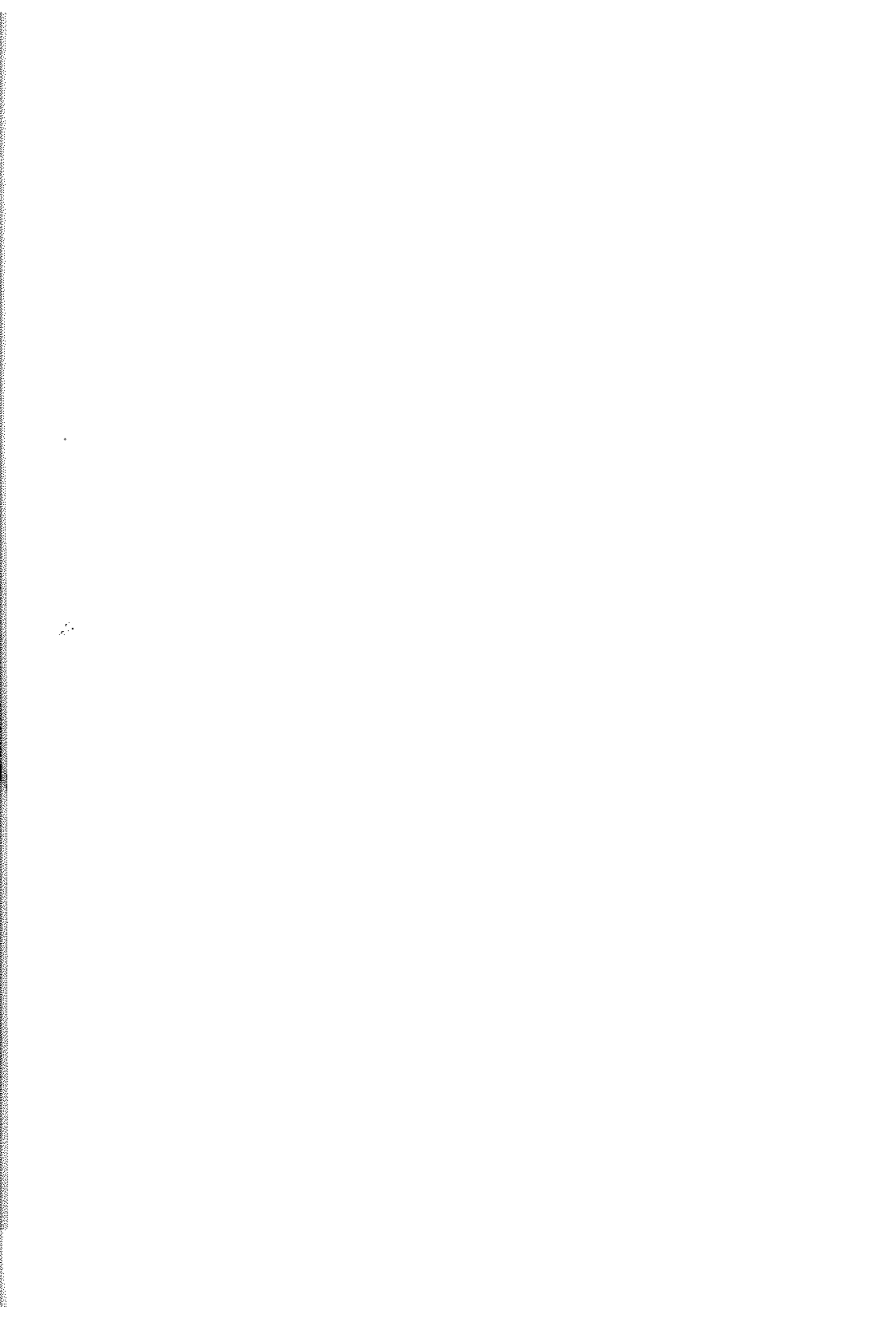


الملك ادريس عاهل ليبيا
حياته وعصره





ادريس الاول ملك المملكة الليبية .





الملك ادريس عاهل ليبيا
حياته وعصره

تـألـيـف: ئي. آ. ف. دي كاندول

صدر هذا الكتاب باللغة الانكليزية

في طبعة خاصة من ٢٥٠ نسخة على نفقة الكاتب

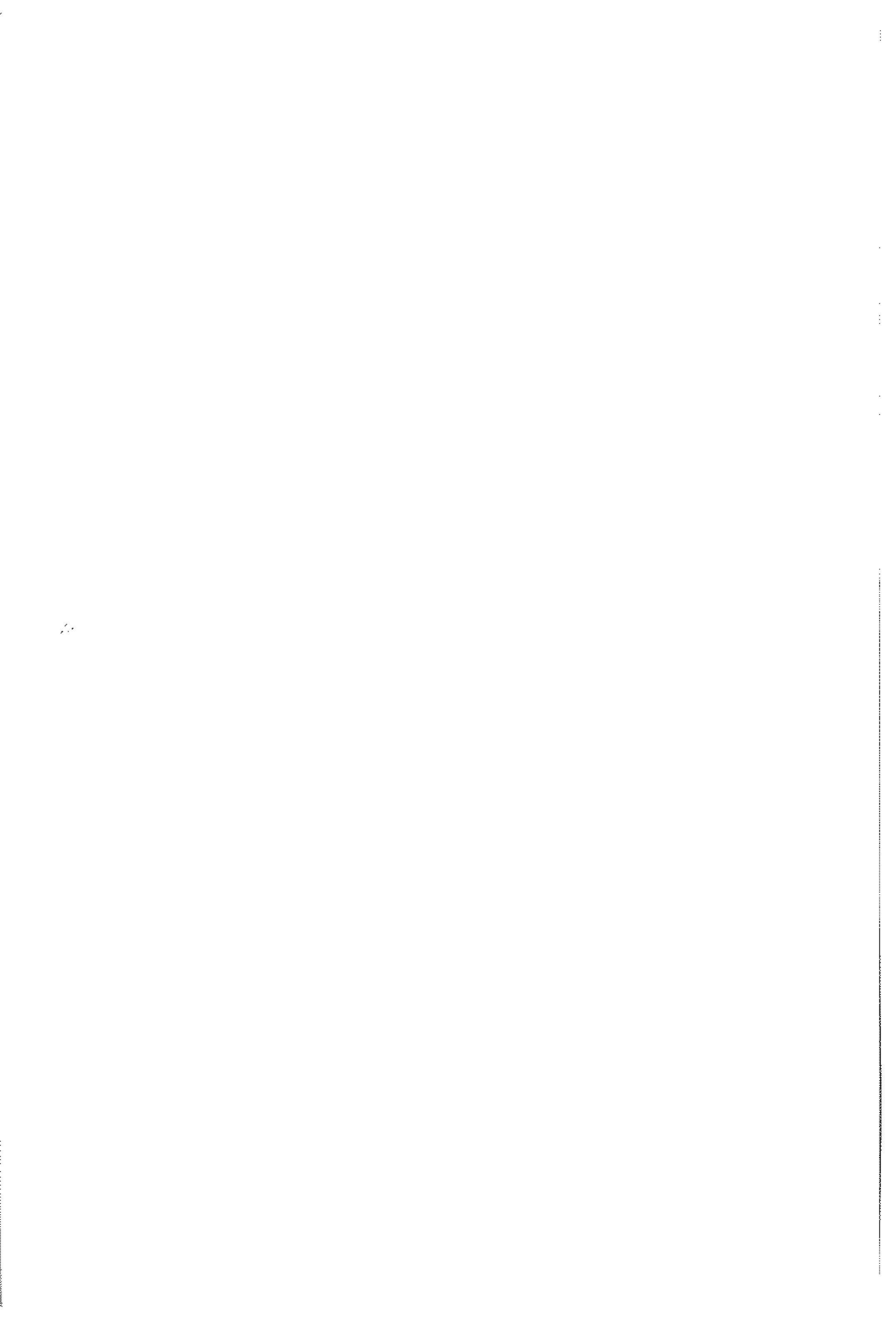
ونشر في لندن سنة ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حصولي على اذن من السيد دي
كاندول لنشر هذا الكتاب باللغة العربية
قام بترجمته صديق من وجهاء الشباب
الليبي، وطبعته في منشستر سنه ١٩٨٩١
على نفقتي وبدعم من أخويّ هشام
وعلي، ثم وزعته هدايا للاصدقاء والدارسين
كتحية لذكرى سيدي ادريس، كما زودت به
الاقسام العربية
في اغلب المكتبات العالمية ليكون في متناول
الباحثين. وقد ساعدني في وضع الحاشية
وجمع الصور والملحقات شقيقي هشام..

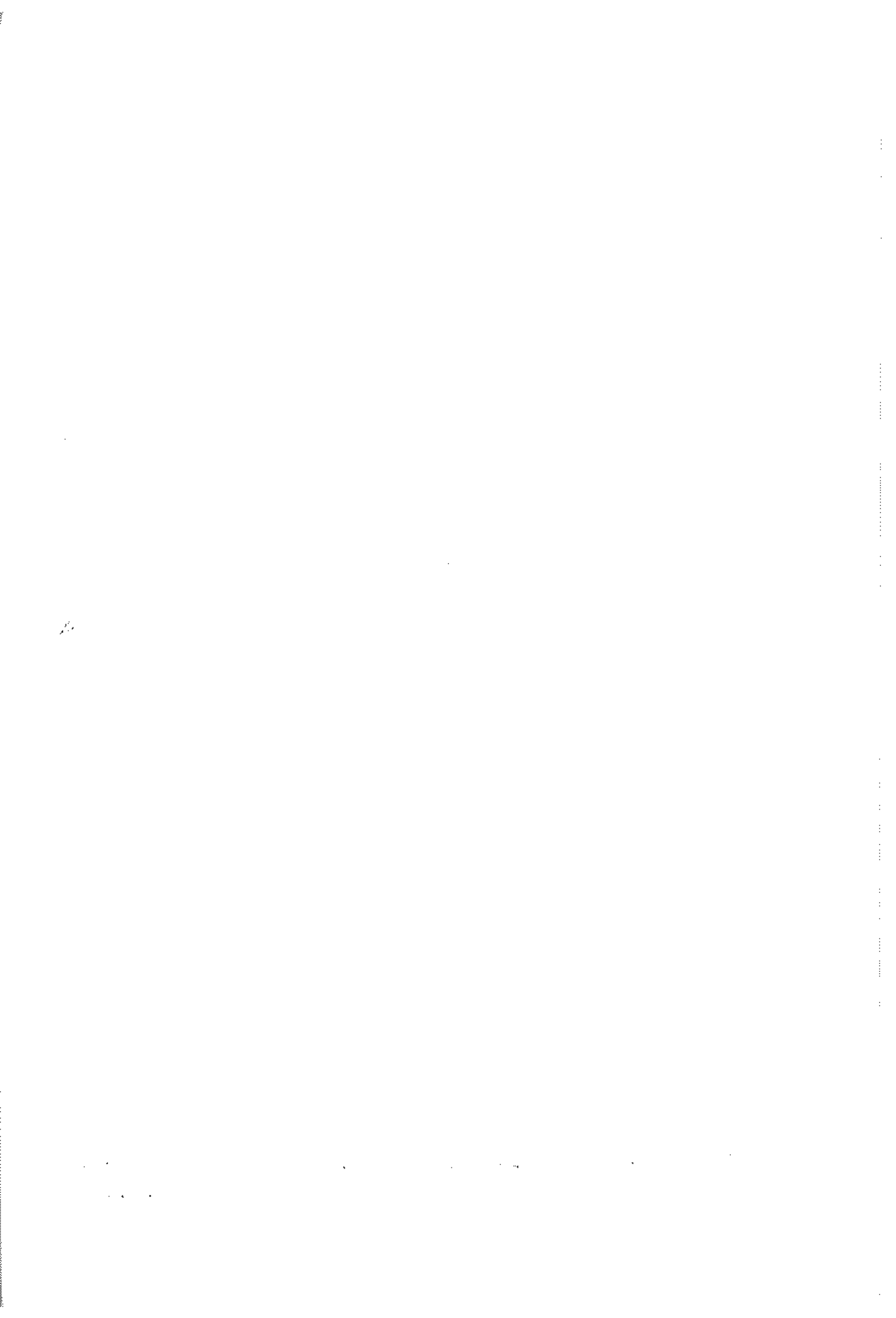
وهذه الطبعة الثانية شارك في نفقتها معي صديق
عزيز من أعيان ليبيا الغيورين على تاريخها،
وتوزع كذلك هدايا.

الناشر
محمد عبده بن غلبون
منشستر ١٩٩٠م



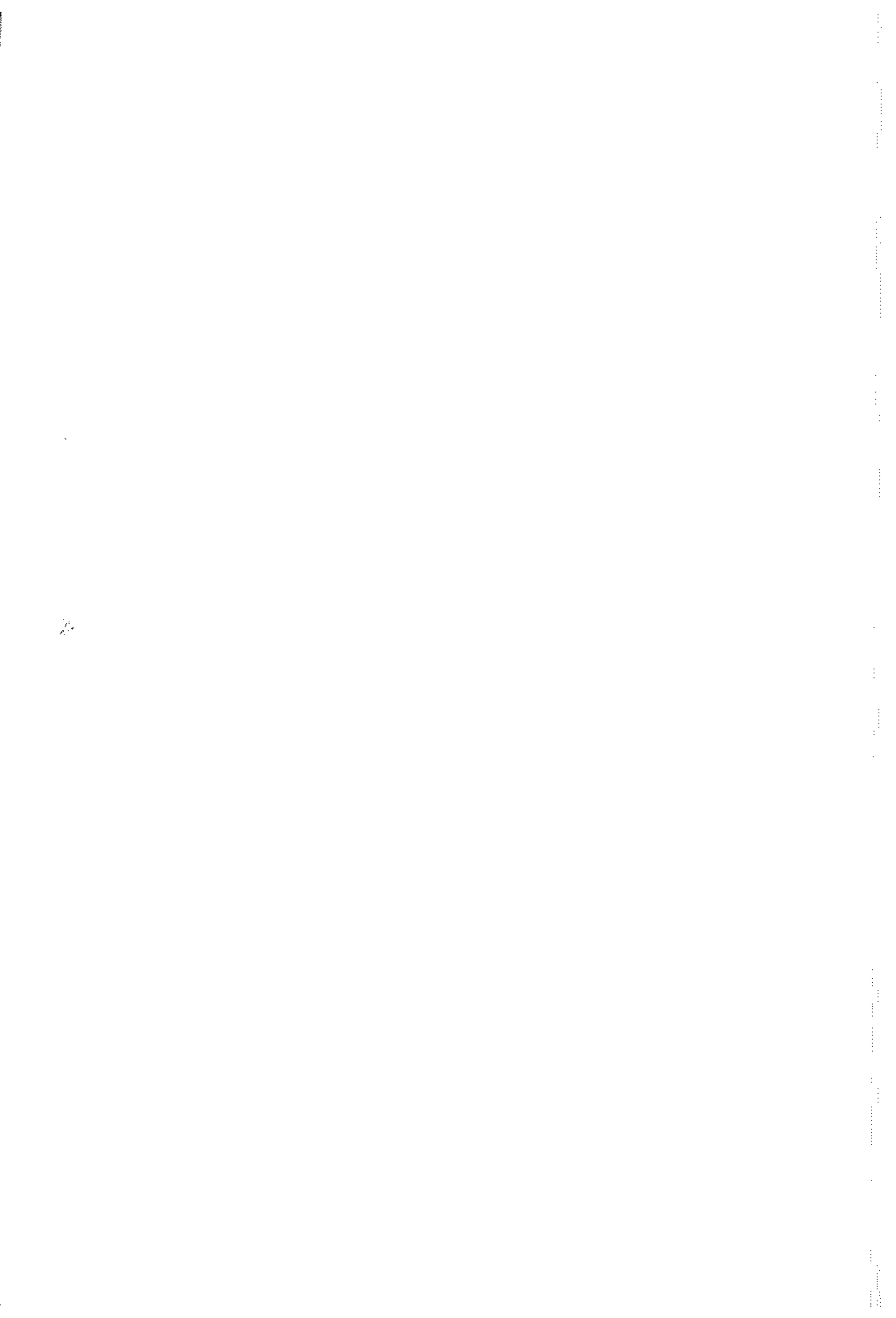
يهدى هذا الكتاب الى
السيدة فاطمة ادريس★
سليلة البيت العربي المجيد
التي أمضت أكثر من خمسين عاماً
زوجة مخلصة وفية
لمحمد ادريس ملك ليبيا

★ السيدة فاطمة الشفاء بنت سيدي احمد الشريف، ولشدة حبها لأبن عمها زوجها سيدي أدريس فأنها كانت ولا زالت توقع اسمها (فاطمة أدريس) وتحب ان تدعى كذلك.



محتويات الكتاب





نبذة عن حياة المؤلف

ولد ايريك آرمار فولي دي كاندول بمقاطعة كورنوول سنة ١٩٠١، وهو ينحدر من أسرة سويسرية الأصل استقر بعض أفرادها في كل من فرنسا وانجلترا منذ أوائل القرن التاسع عشر. وكان جده الأكبر صاحب مدرسة خاصة في باريس، كما أن جد أبيه بعدما هاجر الى انجلترا اشتغل بالتعليم وعين أستاذاً للغة الفرنسية في كلية كليفتون. أما والده فكان قسيساً من أتباع الكنيسة الانجليزية، بينما كانت والدته تمارس مهنة التدريس بكلية جيرتون في كيمبردج.

وبعد أن تلقى تعليمه أولاً في كل من سينت بول وأولندهام، التحق ايريك دي كاندول بجامعة أكسفورد حيث تخصص في دراسة التاريخ الحديث وتخرج منها بدرجة الشرف. وفي سنة ١٩٢٣ بدأ حياته العملية التي دامت أربعين عاماً في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. فقد عين بالسلك السياسي في السودان وقام بالتدريس في كلية غوردون بالخرطوم حيث تولى تنظيم الحركة الكشفية في السودان الى جانب تعليم منهج دراسي كامل. ومن مجال التعليم نقل الى الادارة الاقليمية، وخلال الثمان سنوات التالية عمل مفوضاً اقليمياً لكل من مقاطعات بربر وشمال السودان والخرطوم على التوالي. ومنح وسام النيل من الطبقة الرابعة أثناء تلك الفترة. وفي سنة ١٩٣٦ عين مقيماً سياسياً وقاضياً بمقاطعة دارفور في غرب السودان، ثم نائباً لمحافظ المقاطعة الشمالية في عام ١٩٤٤ حيث اختص بالشؤون الزراعية في حوض النيل بجوار الحدود المصرية. أما في دارفور فكان مسؤولاً عن علاقات الحدود مع السلطات الفرنسية في تشاد.

وفي عام ١٩٤٦ نقل الى الادارة العسكرية البريطانية للمستعمرات الايطالية السابقة بكل من الصومال وبرقة، فعين في البداية كسكرتير أول ثم تولى منصب كبير المديرين ببرقة. ومنح نوط قادة الامبراطورية البريطانية في عام ١٩٤٨. ومنذ سنة ١٩٤٩ الى حين تقاعده من خدمة الحكومة في سنة ١٩٥٢، كان ايريك دي كاندول يشغل منصب المقيم

المفوض لحكومة صاحبة الجلالة البريطانية في برقة. وكانت تلك هي الفترة التي نشأت فيها صداقته مع السيد ادريس الذي أصبح ملكاً لليبيا فيها بعد. وقد أنعمت عليه الحكومة الليبية بوسام الاستقلال في سنة ١٩٥٢.

وقد ترك العمل في وزارة الخارجية البريطانية سنة ١٩٥٢ والتحق بشركة النفط الكويتية كمدير للعلاقات العامة مع حكومة الكويت. وكان له دور في مؤتمرات النفط العربية التي عقدت في كل من القاهرة وبيروت وأسفرت عن انشاء منظمة الأقطار المصدرة للنفط (أوبك).

وفي عام ١٩٦٦ تقاعد عن العمل نهائياً واستقر بناحية نيوفوريست حيث يقيم الآن مع زوجته اليزابيث التي اقترن بها منذ سنة ١٩٣٢، وله منها ثلاثة أولاد.

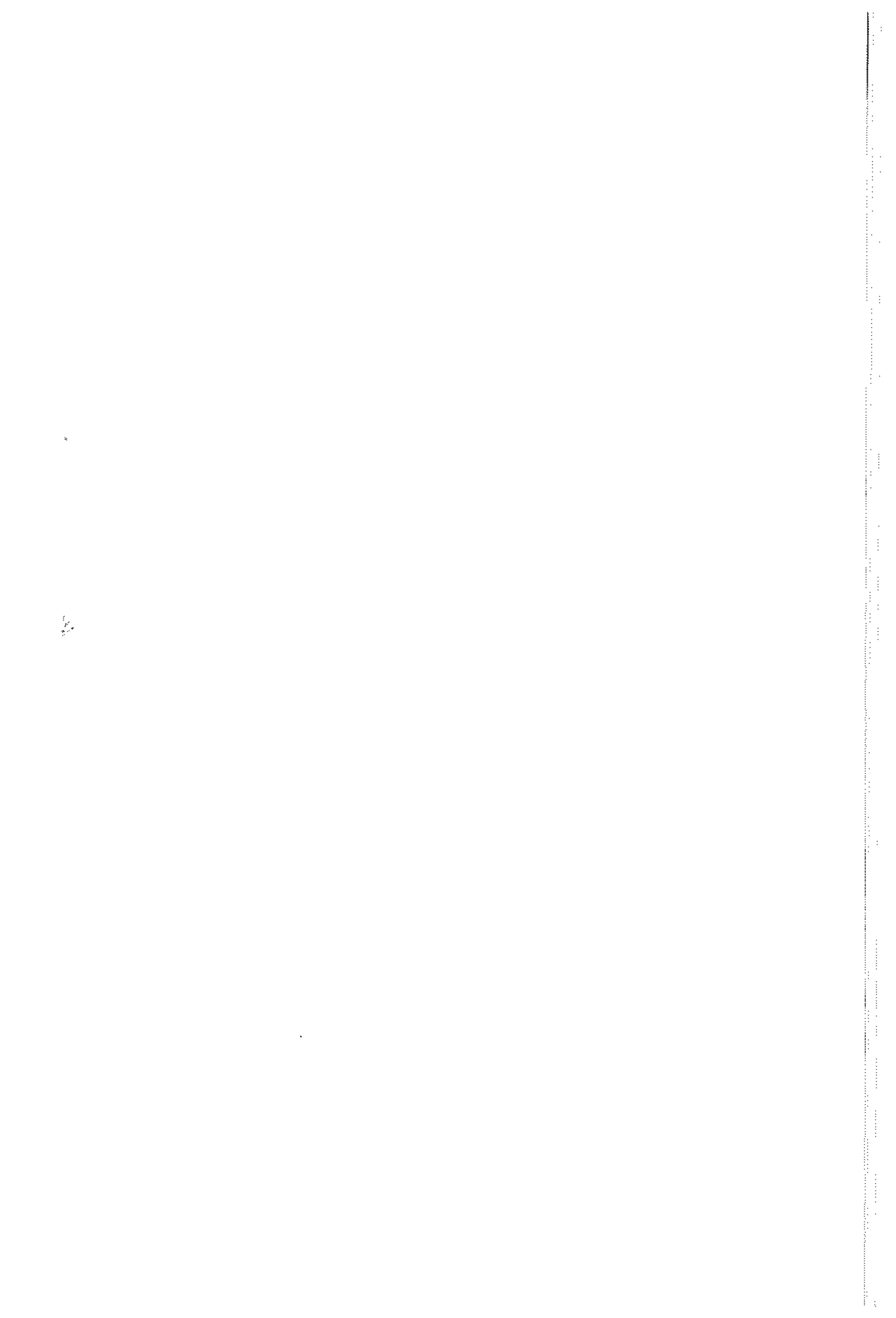
وهذا الكتاب، الذي شرع في اعداده منذ خمسة عشر عاماً وفرغ منه قبل وفاة السيد ادريس في سنة ١٩٨٣، هو حصاد صداقة متينة طويلة الأمد لم تنقطع حلقاتها قط الا بعدما فرضت على الملك ادريس حياة المنفى منذ عام ١٩٦٩. وهو يستعرض سيرة حياة السيد ادريس بكثير من الاسهاب عن طريق العودة الى الأصل وسرد الأحداث في سياقها الصحيح، كما أن قدراً كبيراً من مادة الكتاب استقاه المؤلف من حصيلة الأحاديث الطويلة التي دارت بينه وبين السيد ادريس على مدى عشرين عاماً من ١٩٤٩ الى ١٩٦٩. وفي أجزاء من الكتاب يفسح المؤلف المجال للملك ليروي ذكرياته الشخصية، وهي بطبيعة الحال تنطوي على أهمية خاصة بالنظر الى ما لحق بالتاريخ من تزوير متعمد منذ وقوع الانقلاب العسكري في سنة ١٩٦٩.

ويحكي الأديب الفرنسي ميشال دي مونتين في مقاله «عن الصداقة» قصة يواداميداس الكورنثي عندما كان على فراش الموت فأورث أحد أصدقائه مهمة العناية بأمه العجوز بعد موته بينما أوصى صديقاً آخر بأن يدفع عنه بائنة الزواج المطلوبة من ابنته. ويقول الكاتب الفرنسي في مغزى هذه الحكاية أن يوداميداس حين أثقل كاهل أصدقائه على هذا النحو أثبت أنه أيضاً صديق مخلص لهم إذ وضع بين أيديهم وسيلة فعل الخير وصنع الجميل.

وعلى نحو مشابه أثبت السيد ادريس صداقته لدى كاندول، حيث أنه خلال الأشهر التالية للانقلاب مباشرة، ورغم الشعور بالخذلان الهائل من جانب البريطانيين عموماً، لم يفارقه الاحساس بأن في مقدوره اللجوء الى صديقه القديم متى احتاج الى المساعدة، ابتداء من طلب ارسال بعض الملابس الدافئة لتقيه برد الشتاء في أولى سنوات المنفى حتى طلب اتخاذ التدابير اللازمة لتعليم ابنه في بريطانيا. وأهم من هذا كله الوصية الصامتة

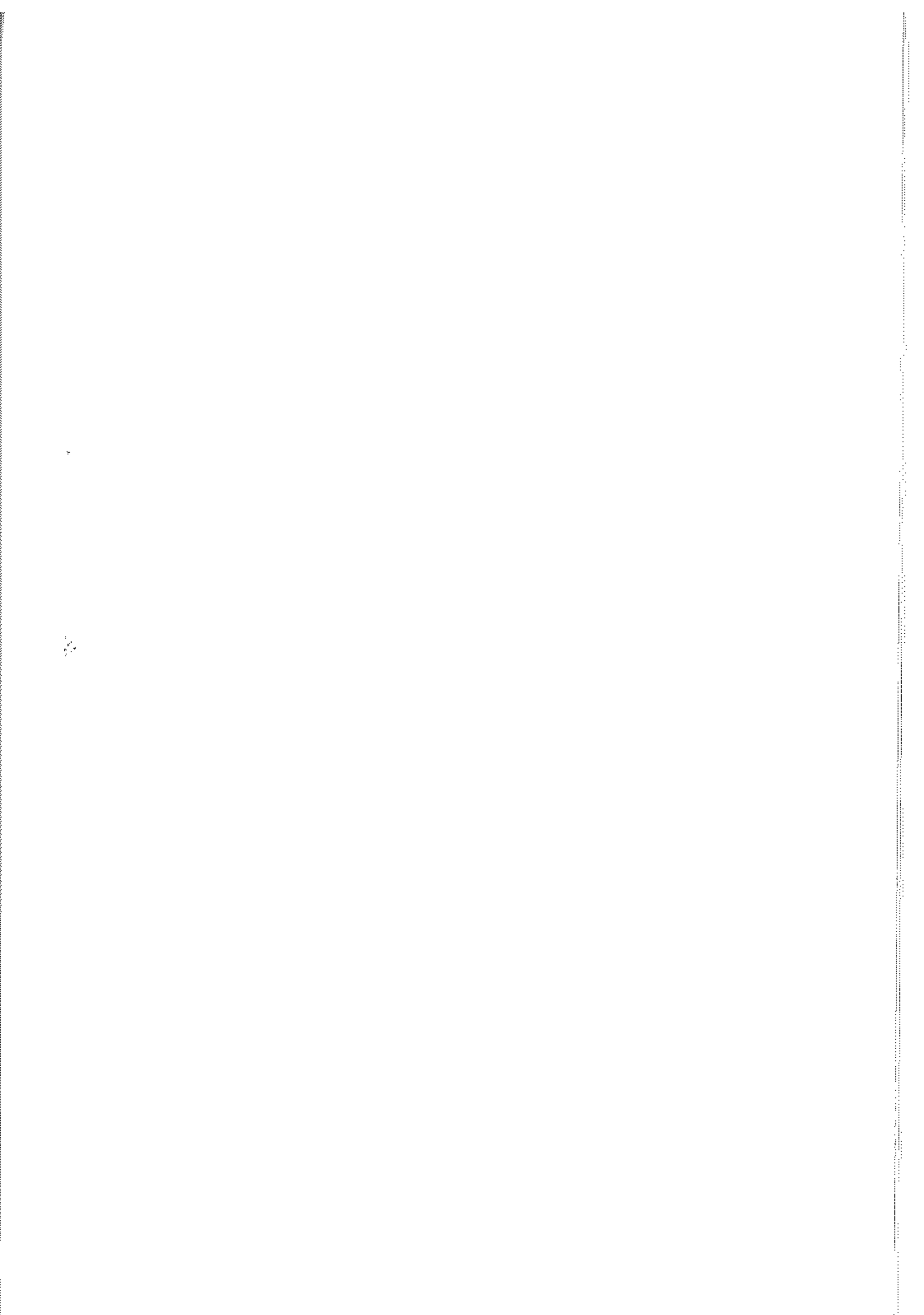


سيدي ادريس في قصر المنار ببنغازي سنة ١٩٤٩ م ويرافقه المؤلف مستر دي كاندول.



التي دفعت المؤلف الى محاولة التصدي لكل التجريح والافتراءات الجائرة التي قيلت في حق السيد ادريس، وتصحيح التاريخ من خلال كتابة سيرة حياته الحقيقية التي زيّفها مروجو دعاية «الثورة» كالمعتاد. فهذا الكتاب شهادة بفضل رجل كان جمّ التواضع والرصانة والثبات على المبدأ في تناقض صارخ مع كل التجاوزات المفرطة الهوجاء للنظام الراهن.

جي. أ. دي كاندول
(حفيد المؤلف)
مارس ١٩٨٨



١
الطريقة السنوسية

ان السيد محمد ادريس المهدي السنوسي، الذي نتناول سيرته في هذا الكتاب، هو سليل احدى أعرق العائلات العربية التي نزحت الى شمال أفريقيا واستوطنت هناك منذ زمن طويل. ويرجع نسبه الى النبي محمد من نسل ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين★. فقبيل نهاية القرن الثامن الميلادي كان أحد أحفادهما، واسمه ادريس بن عبد الله، قد لجأ الى شمال أفريقيا هاربا من مكة بعد اخفاق ثورة ضد الخليفة العباسي في ذلك الوقت، ثم أقام دولة الأدارسة التي اتخذت من مدينة فاس عاصمة لها. ويتضح من شجرة الأنساب السنوسية أن محمد ادريس ينحدر من مؤسس تلك الدولة عبر أجيال توالت على الملك والامارة في المغرب الأقصى، غير أن أسلافه في العصور الحديثة انتقلوا الى الجزائر حيث سميّت الأسرة بالسنوسية نسبة الى أحد كبارها وكان شيخا من مشايخ الدين عاش في مدينة تلمسان أثناء القرن الثالث عشر.

وان الهيبة التي يحظى بها السيد محمد ادريس كانت الى حد بعيد نابعة من مكانته الخاصة على رأس الطريقة السنوسية التي ورث زعامتها عن أبيه وجده مباشرة. ولذا فلنبدأ بتقديم لمحة موجزة عن تاريخ أسلافه وتطور الحركة التي قاموا بتأسيسها وتولوا قيادتها، علماً بأن الطرق الدينية كان لها دور كبير بالغ الأثر في حياة الشعوب الاسلامية حتى عهد قريب.

★ محمد أدريس بن محمد المهدي بن محمد بن علي بن السنوسي بن العربي الاطرش بن محمد بن عبد القادر بن احمد شهيده بن محمد شائب الذراع بن يوسف ابو ذهيبة بن عبد الله بن خطاب بن علي ابو العسل بن يحيى بن راشد بن احمد المرابط بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن الحسن بن أدريس بن عبد الله بن احمد بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن مولانا ادريس الازهر (الاصغر) امير المسلمين وباني مدينة فاس بن الامام ادريس الاكبر اول ملوك السادة الادارسة بالمغرب بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الامام الحسن السبط بن امير المؤمنين سيدنا علي ابن ابي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

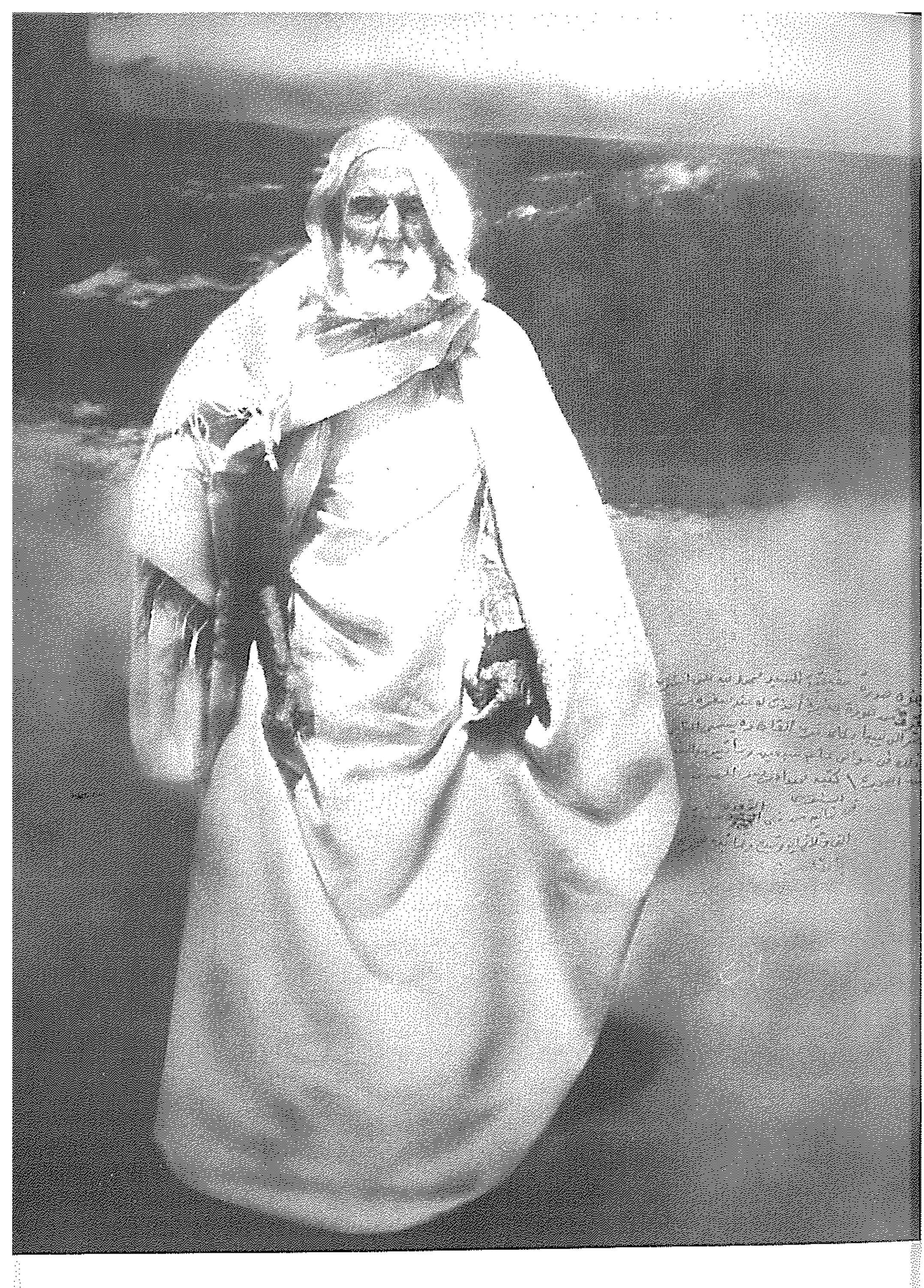


تأسست الطريقة السنوسية على يد السيد محمد بن علي السنوسي، جد السيد محمد ادريس، في سنة ١٨٣٧ م على وجه التقريب. وقد عمدت في بادىء الأمر الى ايقاظ روح العقيدة الخالصة واستعادة الحيويّة التي اتسم بها فجر الاسلام، ثم تحولت الى دعوة واسعة لنشر تعاليم الدين بين السكان المتخلفين في مناطق الصحراء الكبرى وما وراءها. ومؤسس الطريقة السنوسية ولد بمدينة مستغانم في الجزائر خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر، وعرف عنه أنه كان شاباً حاد الذكاء تلقى العلم بالجامعة الاسلامية الشهيرة التي كان يضمها حرم جامع القرويين في مدينة فاس، حيث اكتسب سمعة عظيمة كعالم ضليع في الدراسات الاسلامية. ولما غادر موطنه في المغرب طلباً للمزيد من المعرفة والخبرة، أخذ يرتحل وئيداً من مكان الى آخر عبر الشمال الأفريقي في طريقه الى مكة، وعقد في أثناء ذلك الكثير من الصداقات المتينة بفضل ما أوتي من فصاحة المنطق والحماس الديني. وبعد استكمال تحصيله بمكة، اشتغل بالتعليم بضع سنوات في منطقة عسير، ثم عاد الى الحجاز فأسّس طريقته الدينية الخاصة التي صارت تعرف باسم السنوسية.

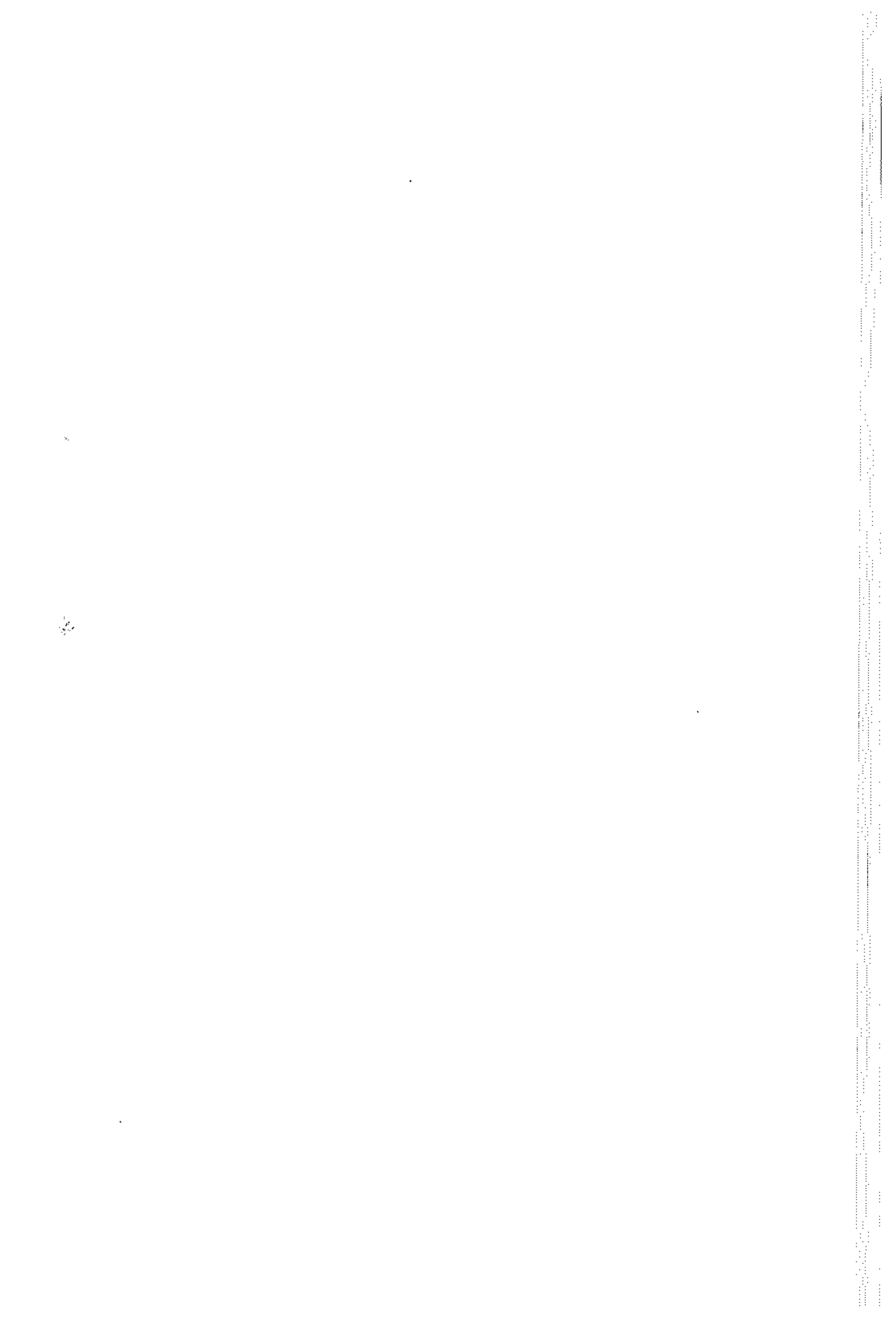
كانت قواعد الطريقة تمتاز بوضوحها وتأثيرها الملهم، اذ دعت الى احياء العقيدة الدينية الأصيلة وتطبيق الاسلام وفقاً لسنّة النبي محمد، مع نبذ سائر المفاهيم الجامدة التي أساءت اليه، والسعي الى استعادة وحدة المسلمين وقوتهم بدمج الطرق الدينية المتعددة ضمن طريقة واحدة شاملة تقوم على أساس من أحكام القرآن الصرفة، كما كان من أهدافها أيضاً تعليم أصول الدين لسكان المناطق المتخلفة الواقعة على تخوم العالم العربي. ومن خيرة الأمثلة المعبرة عن بساطة تلك التعاليم فحوى رسالة وجهت الى أهالي واجنجا بمنطقة واداي في تشاد، اذ جاء فيها:

«ندعوكم الى اطاعة ما أمر به الله ورسوله من اقامة الصلوات الخمس وصوم رمضان وايتاء الزكاة والحج الى بيت الله الحرام، واجتناب ما نهى عنه الله كالافك والغيبة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل الأنفس من دون وجه حق وشهادة الزور وغير ذلك مما حرّم الله».

وكانت الطريقة السنوسية تقتضي حياة التقشف والانضباط الذاتي الصارم وتحظر تعاطي الخمور والتبغ وتنهي عن ارتداء الملابس الفاخرة وحلى الزينة من جانب الذكور، كما تستهجن استخدام ايقاع المزامير والدفوف في الشعائر الدينية ومواكب الأولياء ورقص الدراويش في حلقات الذكر. فهكذا كانت الطريقة الدينية التي كرّس السنوسي الكبير حياته لنشرها والدعوة اليها.



سيدي محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية.



ويبدو أن اختياره لليبيا بالذات كميدانٍ رئيسي لنشاط الطريقة السنوسية في مستهل نشأتها حدث بمحض الصدفة وليس عمداً. فهو بعدما غادر مكة برفقة فوج من الحجّاج العائدين الى شمال أفريقيا اضطر الى قطع رحلته عدة أشهر في واحة سيوة بسبب المرض، ولما وصل الحدود التونسية في نهاية المطاف واجهته عقبة أخرى تمثلت في وجود الاحتلال الفرنسي بالجزائر، فقفلٍ عائداً الى الأراضي الليبية حيث استقر بمنطقة الجبل الأخضر في برقة. وهناك أقام مركزاً لتعليم الطريقة أطلق عليه اسم الزاوية البيضاء تيمناً بولي من صحابة الرسول وهو سيدي رافع الأنصاري. ومن تلك البداية المتواضعة أخذت الطريقة السنوسية تنمو وتتسّع حتى امتد نفوذها الروحي الى مختلف أرجاء شمال شرقي أفريقيا فيما أحدثت نهضة اسلامية عظيمة بين قبائل البدو الغارقة في الجهل والتخلف من سواحل البحر الأبيض المتوسط الى أعماق الصحراء في الدواخل.

وهنا تجدر الاشارة الى أن منطقة الشمال الأفريقي، رغم تجزئتها بحدود سياسية مصطنعة فرضها الاحتلال الاستعماري الأجنبي ـ التركي والفرنسي ثم البريطاني والايطالي ـ الا أنها لم تكن تنقسم الى دول قومية بالمعنى الحقيقي في العالم العربي. بل ان جميع بلدان المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي، سواء منها المستقلة أو التابعة للسلاطين العثمانيين، كانت تربط بينها وشائج القربى العربية واللغة والتقاليد المشتركة بينما يدين معظم سكانها بالاسلام على اختلاف أصولهم القبلية أو العرقية. فالتقسيمات السياسية التي رسم حدودها الغزاة الأجانب كانت مجرد عوامل عابرة تسببت في اضعاف هذه الأمة أو تفكيك شعوبها، لكنها لم تنجح قط في القضاء على عروبتها بالكامل. وكان السنوسي الكبير يؤمن بأن الاسلام يجسّد قوة الربط الرئيسية بين العرب، وقد تصدى هو وخلفاؤه من بعده بمنتهى الصلابة لمقاومة الغزوات الأجنبية التي كانت تهدد بطمس كامل التراث الاسلامي وارغام العرب على مجاراة أنماط وأنظمة دخيلة على حياتهم.

وقبل وفاته بفترة قصيرة قرر السنوسي الكبير نقل مركز الطريقة الى بقعة صحراوية تعرف بالجغبوب عسى أن يبقى بمنأى عن تدخل الغزاة الأجانب. ويتحدث كاتب فرنسي معاصر عن ظروف انشاء السنوسيين لزاوية الجغبوب في وصف شيّق اذ كتب يقول:

« . . . وفي تلك الأثناء كان السنوسي الكبير قد أحس بقرب المنيّة في حين رأى أن منطقة الجبل الأخضر ليست على بعد كاف من الوجود التركي في بنغازي وقناصل الدول الأجنبية المعتمدين هناك، فأمر ببناء زاوية جديدة في الجغبوب وهو موقع صحراوي يبعد قليلاً نحو شمال الطريق المؤدي من سيوة الى واحة جالو. ولم تكن في الجغبوب سوى بئر



واحدة مالحة المياه وسط منخفض قاحل في خلاء مقفر. ولكن سرعان ما تم حفر عدة آبار جديدة وقامت الزاوية كما لو أنها انبثقت بفعل السّحر».

والسنوسي الكبير لم يعش طويلاً عقب انتقاله الى الجغبوب. أما هذه البقعة الوعرة النائية فانها، منذ عهد ابنه الأكبر وخليفته السيد المهدي، لم تبق زهاء نصف قرن مركزاً لأصلح وأنجح الطرق الاسلامية المعاصرة فحسب بل صارت أيضاً مقر معهد اسلامي ذائع الصيت يضاهي سمعة الأزهر الشريف بالقاهرة. وليس في ليبيا اليوم أي أثر تاريخي عربي يثير الاعجاب مثل زاوية الجغبوب. (ملاحظة المحرر: بعد الانتهاء من تأليف هذا الكتاب أغلق المعهد الديني وجامع الجغبوب بأمر من النظام الحاكم الذي خلع الملك ادريس في عام ١٩٦٩).

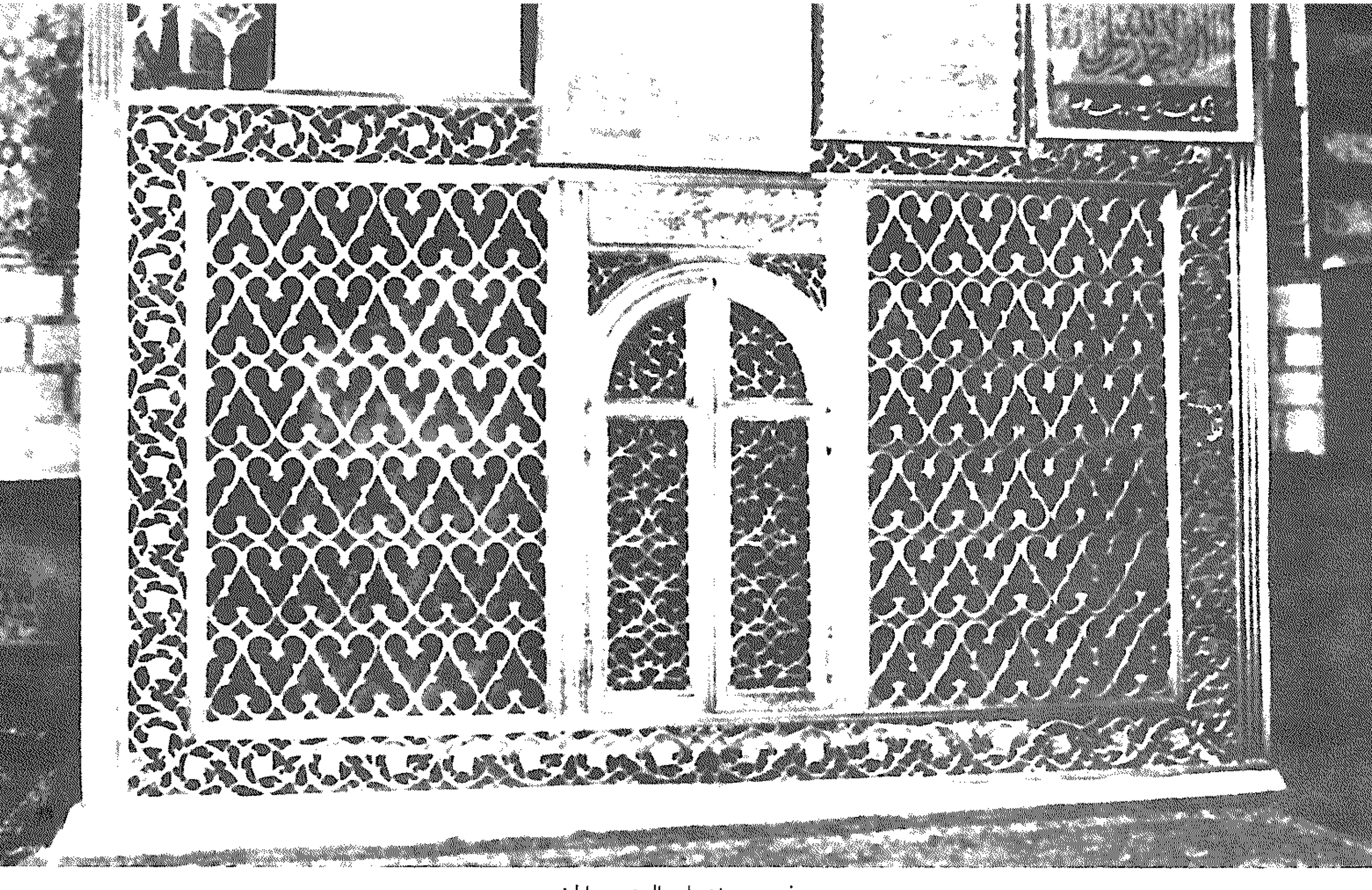
الجامع الأبيض القبّة بقي على حاله كما شيّده الاخوان السنوسيون قبل أكثر من مائة عام بأحجار كانوا يقطعونها بأيديهم ويحملونها الى موقع البناء من محجر قريب تحت اشراف السنوسي الكبير نفسه. وان مجرد العثور على مثل هذا المقام الديني العلمي الجليل محاطاً بتلك البيئة الطبيعية الشديدة القسوة لهو في حد ذاته تجربة مثيرة توحي بالتأمل العميق.

وصحن الجامع عبارة عن فناء فسيح تتخلله الأقواس في وسطه صهريج حجري مربع لماء الوضوء وفي أقصاه باب من خشب الأبنوس رائع النقش يؤدي الى داخل المسجد، وهو مبنى جيد التهوية يتألف من مجموعة أروقة وجدرانه مبنية بكتل من الصخور الضخمة. وهناك باب آخر يفضي من المسجد الى خلوة داخلية تعلوها قبة مقوسة مطليّة بألوان خضراء وحمراء وذهبية. وعلى الأرضية التي تحت القبة يقوم شبّاك برونزي دقيق الزخرفة صنع في جاوه، وفي وسطه أبواب على هيئة أقواس، بينما ثبّتت على واجهته لوحتان احداهما نقشت عليها شجرة العائلة السنوسية والأخرى مدوّن عليها النص الكامل لآيات القرآن الكريم مكتوباً بحروف بالغة الصغر. وفي الداخل ضريح السنوسي الكبير★.

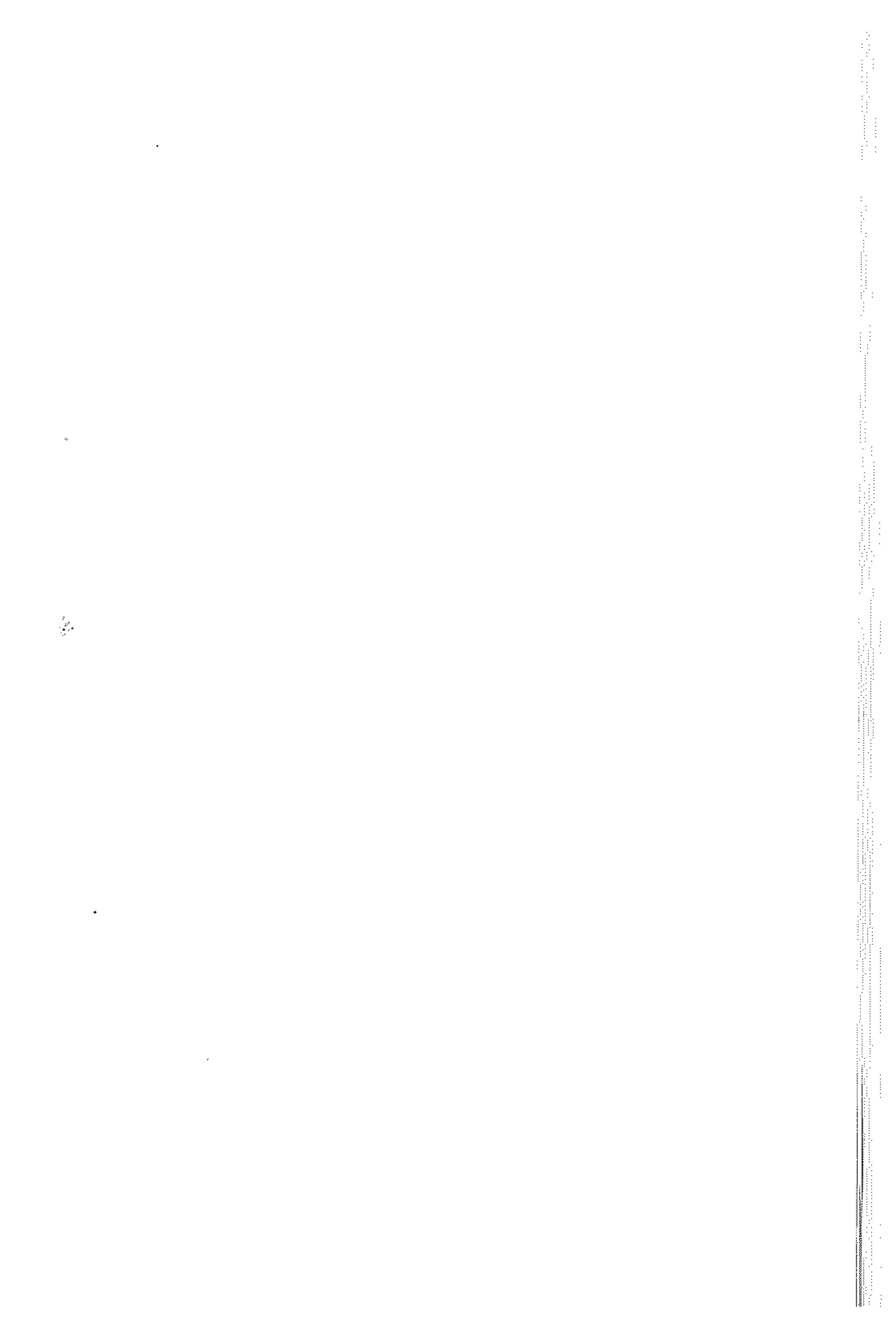
والانطباع العام الذي يخرج به الزائر من هذا المكان هو الاحساس بجو من المهابة والوقار، رغم بساطته المتناهية، فضلاً عن مشاعر الاعجاب بحسن العناية المنظمة ومهارة

★ في سنة ١٩٨٤ م تمّ هدم الضريح بناءاً على امر من معمر القذافي، وقد اشرف على عملية الهدم في احتفال كبير من اللجان الثورية ابن عم القذافي المدعو حسن اشكال، كما نبشت قبور السادة والاخوان وزوجات السيد محمد بن علي السنوسي الموجودة في المقبرة الملحقة بالجامع، وبالرغم من اكتشاف جسد سيدي ابن السنوسي في قبره على نفس الحالة التي دفن عليها لم يتحلل ولا لحقه البلى كذلك جسد ابنه السيد محمد الشريف ومريده وصهره سيدي عمران بن بركه، الا ان عملية الهدم تمت والقي بالاجساد الطاهرة الثلاثة في الصحراء وجمعت العظام الموجودة في بقية القبور في حفرة واحدة ودفنت في مكان مجهول.

وقد تم نفس الشيء في المقبرة الملحقة بمقام سيدي رافع الانصاري بالبيضاء حيث نبشت جميع قبور السادة والاخوان التي في تلك المقبرة وجمعت العظام في حفرة واحدة ودفنت في مكان مجهول بعد تركها في العراء بقرب الضريح مدة طويلة.



ضريح سيدي ابن السنوسي بالجغبوب.



الصنعـة. وان المحافظة عليه بالضبط مثلما كان في أيام مؤسس الطريقة السنوسية لهي اعتراف لائق بمكانة ذلك المصلح العربي العظيم الذي التمس لأمته مذهباً اسلامياً نقياً لم يلوثه الاحتكاك بسفاسف الحضارة المادية، كما أحيا الآمال في قلوب الناس وبث روحاً جديدة في نفوس السكان المتخلفين عبر الصحارى الليبية وغيرها من المناطق المنعزلة.

أما المعهد الديني المجاور فهو أقل روعة من بناء الجامع، لكنه لا يقل أهمية من الناحية التاريخية. وعلينا أن نتذكر أن المدارس كانت شبه معدومة في ليبيا قبل مجيء السنوسي الكبير وأن من أبرز مآثر الطريقة السنوسية توفير مدارس يتعلم فيها الأولاد مبادىء الدين والقراءة والكتابة. ويتكون معهد الجغبوب من ساحة مربعة توجد في أحد أطرافها قاعة دراسية مستـطيلة الشكل سقفها مسطّح ونوافذها مقوّسة وعلى امتداد جدرانها تجاويف معدّة لوضع كتب الطلاب. وفي محاذاة أضلاع المربع ثمة مداخل صغيرة مقوسة أيضاً والى جوارهـا المواقد التي كان الطلاب يستعملونها لطبخ الطعام، ومن تلك المداخل تصعد سلالم حجرية متعرجة تؤدي الى غرف النوم في الطابق العلوي. أما الفناء المجاور فيحيط بمبنى المكتبة الشهيرة التي كانت تضم نحو ثمانية آلاف مجلد من الكتب والمخطوطات العربية النفيسة، وقد نهبها الغزاة الفاشست ودمروها خلال الثلاثينات من هذا القرن.

وكـان الجـانب التعليمي في الجغبـوب على قدر كبـير من الأهمية لانتشـار الـطريقة السنوسية، وقد تولى التدريس بالمعهد نخبة من علماء الاخوان مثل أحمد الريفي، الشيخ المغربي الذي كان معلماً للسيد المهدي، وكذلك الامام ابن بركة صهر السنوسي الكبير ورئيس مستشاريه في وقت سابق. وكان المنهج الدراسي يتضمن تعليم القرآن والحديث واللغة العربية والنحو والتاريخ والجغرافيا وعلوم المنطق والحساب. وطوال فصل الصيف كانت الدروس تلقى في أروقة الجامع حيث الجو لطيف عادة، بينما تنتقل في الشتاء الى قاعة الدراسة داخل مبنى المعهد. وكذلك فان المهارات العملية كانت تحظى بنصيب وافر هي الأخرى، اذ كان برنامج التعليم يشمل التدريب على أعمال البناء والنجارة وصنع الأدوات المعدنية وغزل القطن والنسيج والصباغة وتجليد الكتب وصناعة الحصر وأشغال المخابز. وبعد صلاة الجمعة من كل أسبوع كان الطلاب يمارسون بعض أنواع الرياضة البدنية كالرماية وركوب الخيل.

وكانت الحياة في الجغبوب تتسم بالخشونة والقناعة بالنزر اليسير من الطعام. فحصة الطالب اليومية كانت تقتصر على رغيف من الخبز وبعض التمر واللبن الرائب في وجبة الفطور ثم طبق من حساء العدس أو الفول مع قليل من الخبز في وجبتي الغداء والعشاء. أمـا اللحم فكـان يقدم في أيام الجمع فقط. وكان يصرف للطالب قميصان وطاقيتان



وسروالان من القطن وجرد واحد (أي رداء صوفي) مرتين في العام، كما كانت نظافة الملبس مطلباً ضرورياً وعلى طلاب المعهد أن يغسلوا ثيابهم كل أسبوع.

وكان الطلاب يتوافدون على معهد الجغبوب من مختلف أنحاء الشمال الأفريقي، فيما كانت سن القبول تبدأ من الخامسة عشرة. وبعد قضاء خمس سنوات في تلقي العلم هناك، كان الطالب يعود الى نفس الجهة التي جاء منها لكي يمارس بدوره مهام التعليم المماثل في المدارس المحلية. وبعض أولئك الطلاب أصبحوا من اخوان الطريقة دعاة مخلصين تفانوا في سبيل نشرها، فكانوا بمثابة الدعامة الأساسية للحركة السنوسية. وقد ازدهر معهد الجغبوب طيلة أكثر من سبعين سنة، ولم يغلق الا في أبّان الاحتلال الايطالي. أما الآن فان دوره العلمي قد تضاءل كثيراً اذ حلت محله المدارس الحديثة والجامعة الاسلامية في البيضاء.

وفي وقت من الأوقات كان السيد محمد الشريف قد تولى رئاسة معهد الجغبوب بدلاً من أخيه السيد المهدي الذي تفرغ من ثم لادارة شؤون الطريقة وتوسيع رقعتها الى أقاصي أفريقيا. وكان عدد الزوايا السنوسية حينذاك يتراوح بين الخمسين والستين، معظمها في برقة وطرابلس والحجاز. أما في عهد السيد المهدي فقد ازداد عددها الى حوالي مائة وخمسين زاوية، منها ثلاثون في مصر وست عشرة بالحجاز وثمان وثمانون في ليبيا ونحو ست عشرة في أواسط السودان وجنوبي الصحراء الكبرى. ولقد عمد المستعمرون الطليان الى هدم أغلب الزوايا لأن الزاوية السنوسية صارت في نظرهم بؤرة بالغة الخطورة لاستقطاب العناصر المناوئة للاستعمار.

وكانت سائر الزوايا تقريباً صورة مصغرة من تصميم زاوية الجغبوب، تحتوي كل منها على مسجد ومدرسة ودار للضيافة ومساكن لشيخ الزاوية والمعلمين وبيت للطلبة ومخزن للمؤن والمهمات. وكانت المباني تشيد بالطين أو حجر الصوان كما تسقف بالطين المرفود بعوارض خشبية. فالزاوية كانت أشبه بقرية صغيرة مسوّرة عادة، وفي الأراضي الخصبة كانت توجد بها أيضاً حديقة لزراعة الخضر تسقى من مياه الآبار القريبة. ولم تكن الزاوية مجرد مكان للعبادة والتعليم فحسب، بل كانت تؤدي عدة أغراض أخرى كذلك. فهي كانت في نفس الوقت تضمّ محكمة وسوقاً تجارية وفندقاً للنزلاء ومركزاً زراعياً للمنطقة الصحراوية المحيطة بها، وكان شيخ الزاوية هو امام المصلين ومعلم المدرسة والمحكّم في فض الخلافات ا لقبلية والقاضي المكلف بتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية، سواء فيما يتعلق بالقضايا المدنية أو الجنائية. وهكذا كانت الطريقة السنوسية تقوم بأغلب وظائف الادارة المدنية الى جانب مهامها الدينية والتعليمية.

وقد اتسع نطاق الزوايا ولقيت نجاحاً مطرّداً على مرّ السنين. ومن أمثلة ازدهارها أن أربع عشرة زاوية في برقة أصبحت في أوج انتشار الحركة السنوسية (١٨٨٠ - ١٩٠٠) تملك ما لا يقل عن خمسين ألف هكتار من الأراضي وثلث أشجار النخيل والحدائق بواحات الكفرة. وكانت تلك الأوقاف هبات طوعية تبرعت بها قبائل المنطقة التي كانت أيضاً تؤدي العشور المقررة بحكم الاسلام.

ولكي تمتد دعوة الطريقة السنوسية الى الأصقاع البعيدة كان لا بد من انشاء شبكة مواصلات على درجة من الكفاءة اللازمة لتموين الزوايا المتفرقة والاشراف عليها، مما حدا بالسيد المهدي الى تحقيق انجاز آخر وهو فتح طرق القوافل التي ربطت بين الجغبوب وبين الزوايا الأخرى النائية عن مركز الحركة. ولم يكن استخدام تلك الطرق قاصرا على السّعاة الـذين كان يوفدهم رئيس الطريقة السنوسية من حين الى آخر حتى يبقى على اتصال مستمر بمختلف الزوايا، وانما استفادت منها كذلك القوافل التجارية والحجاج القاصدون الى مكة والعائدون منها. وكانت الزوايا عادة تقام بالقرب من آبار المياه في الواحات الواقعة على طرق القوافل حيث يجد فيها المسافرون استراحات توفر لهم المأكل والمبيت بالمجان طيلة ثلاثة أيام حسب تقاليد الضيافة العربية الاسلامية. ولما تطورت حركة التجارة بين أواسط السودان وسواحل البحر الأبيض مع مرور الوقت كثر استعمال طرق القوافل على نحو متواصل فازدهرت الزوايا السنوسية المحاذية لها كمراكز تجارية وتموينية يتردد عليها المسافرون للتزود بالمؤن والمياه والمتاجرة مع السكان المحليين.

وكـان أهم طرق القـوافل التي فتحها السيد المهدي هو الطريق الواصل بين مدينة بنغازي على الساحل الليبي وبين أبشر عاصمة اقليم واداي في وسط السودان. ويرجع عهده الى أيام الصداقة التي نشأت بين كل من السنوسي الكبير ومحمد الشريف سلطان واداي أثناء وجودهما بمكة معاً في فترة الثلاثينات من القرن الماضي. وبحكم النفوذ الواسع النطاق الذي كانوا يتمتعون به لدى قبائل الصحراء الليبية وغيرها، استطاع السنوسيون أن يجعلوا من هذا الطريق بالذات أكثر طرق القوافل أمناً وازدهاراً في شمال أفريقيا. وكان الاخـوان السنـوسيون يرافقون القوافل لتقاضي رسوم الحماية، اذ أن أي تاجر يريد أن يضمن سلامة المرور من أرض احدى القبائل كان عليه أن يتصل بمندوب السنوسي الكبير أولاً حتى يدبّر له أمر الحماية اللازمة نظير أتعاب متفق عليها مع قبائل المنطقة التي تقوم بتوفير الحراسة الضرورية أثناء العبور. ومما يذكر أنه في ظل النظام السنوسي كان بوسع المرأة أن تسافر وحدها آمنة من كل سوء عبر كل الجبال والصحارى الممتدة الى مسافة ألف وثلاثمائة ميل من أواسط السودان حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط. ولقد ظل هذا



الطريق، بفضل همة السيد المهدي وكفاءة ادارته، معبراً لسيل دائم من قوافل التجار التي كانت تنقل السمن ونبات السنا والسمسم والعاج وريش النعام والذهب من أفريقيا الوسطى الى أسواق ليبيا ومصر، ثم تعود محملة بالأقمشة والسكر والشاي والقهوة والملح والتمور والسلع المصنعة. ويظهر من واقع الاحصائيات المدونة أن حجم القوافل التي دخلت جالو قادمة من الكفرة خلال الفترة من عام ١٨٩٠ الى عام ١٩٠٠ كان يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ جمل أسبوعياً. والكفرة بلغت أوج ازدهارها من سنة ١٨٦٠ الى ١٩٠٥ حين كانت طرق القوافل العشر المتفرعة عن تلك الواحة في عنفوان نشاطها.

وكان انتشار الحركة السنوسية يتبع نفس مسار طرق القوافل هذه حيث كان يحمل دعوتها الاخوان وخريجو معهد الجغبوب العائدون الى بلدانهم في أقاصي أفريقيا - الى دارفور في السودان المصري والى تبستي وبوركو وواداي وكانم وبورنو وباقرمي في تشاد والى كانو وزندر في نيجيريا. بل ان شهرة السنوسية وصلت حتى الى السنغال على شواطىء المحيط الأطلسي. ففي عام ١٨٧٩ مثلاً قام لفيف من الحجّاج السنغاليين بقطع مسافة ثلاثة آلاف ميل عبر القارة الأفريقية بقصد زيارة السيد المهدي في الجغبوب قبل السفر الى الأراضي المقدسة، الا أن مقابلة السيد المهدي كان لها وقع عظيم في نفوسهم الى حد أنهم اكتفوا بها فعادوا الى بلادهم رأساً من دون مواصلة الرحلة الى مكة.

وفيما كانت جماعة السنوسيين عاكفة على جهودها الهادئة البناءة ظلت تعيش في الجغبوب حياة ملؤها الرضا والسعادة طوال عهد السيد المهدي الذي دام خمسة وثلاثين عاماً، رزق خلالها ولدين أولهما محمد ادريس (موضوع هذا الكتاب) وكانت أمه عائشة سيدة من أسرة البوسيفي الليبية في سرت، وقد ولد سنة ١٨٩٠، وبعدها بعام أو عامين ولد أخوه الأصغر محمد الرضا الذي أنجبه المهدي من زوجته الأخرى فاطمة وهي تنتمي الى عائلة عمران من أهالي الجبل الأخضر. كما خلّف المهدي ثلاث بنات هنّ صفية ونفيسة وحسنية. ولقد كان اختيار الجغبوب اختياراً موفقاً تماماً اذ لم يتعرض السنوسيون لأي محنة من شأنها تعكير صفو العيش أثناء مدة اقامتهم الطويلة في ذلك المكان الهادىء المنعزل.

٢
انتقال السنوسية
الى الكفرة والسودان

في سنة ١٨٩٥ نقل السيد المهدي مقر قيادته من الجغبوب الى الكفرة، وهي واحة في قلب الصحراء الليبية، وذلك بدافع الحاجة الى مكان جديد يمكن اتخاذه مركزاً لقيادة الحركة السنوسية بعيداً عن أي تدخل من جانب الأتراك. وكانت الكفرة منذ سنوات عديدة احدى النقاط الأمامية الموالية للسنوسية بينما تفصلها عن مواقع السلطات التركية في مدن الساحل مسافة سبعة آلاف ميل من الصحراء شبه القاحلة، مما جعلها من أضمن الأماكن التي يمكن العثور عليها لتحقيق ذلك الغرض. فرغم أن سياسة السنوسيين كانت دائماً تستهدف المحافظة على علاقات طيبة مع السلطات التركية، وكانت هذه بدورها تتيح لهم قدراً كبيراً من حرية الحركة، الا أن الوضع بدأ يتغير منذ حوالي سنة ١٨٨٩ حين لاحظ السلطان عبد الحميد الثاني بانزعاج واضح أن النفوذ السنوسي في برقة أخذ يطغي على سلطة الولاة العثمانيين بسرعة متزايدة. وفي تلك السنة بالذات قدم رشيد باشا والي بنغازي الى الجغبوب على رأس قوة مسلحة متذرّعاً بتوجيه دعوة الى السيد المهدي لزيارة اسطنبول. وبعدها طفق موفدو السلطان يأتون الى الجغبوب واحداً تلو الآخر حاملين الهدايا ومزيداً من الدعوات الملحّة، فأدرك السيد المهدي أن العثمانيين يزمعون نفيه وأسرته الى اسطنبول على عادتهم المألوفة في ابعاد أي زعيم عربي يبدو لهم أن نفوذه بات يتهدد سلطة الامبراطورية داخل بلاده.

وفي أوائل عام ١٨٩٥ تم الاستعداد للرحيل فغادر السيد المهدي زاوية الجغبوب مع عائلته وكبار الاخوان في رحلة شاقة استغرقت أربعين يوماً عبر الصحراء، مروراً بواحة جالو، حتى انتهوا الى قرية الجوف فأقاموا فيها مقرهم الجديد. ويبدو أن الأتراك كانوا سعداء جداً برحيل السنوسيين اذ أرسلوا وفداً كبيراً من موظفي الحكومة لتوديعهم في جالو. وما أن استقر بهم المقام في منطقة الجوف حتى شرع السيد المهدي بنشاطه المعتاد في بناء مسجد ومدرسة وعدد من المنازل فوق قمة تل على ارتفاع نحو ٤٠٠ قدم عن مجرى الوادي



الذي كان يعيش به سكان القرية وسط أشجار النخيل، وأطلق على هذا المكان اسم زاوية «التاج» التي أصبحت بمثابة المركز الرئيسي للسنوسية الى أن احتلها الايطاليون في سنة ١٩٣٦. والى جانب بعدها عن تدخلات الأتراك كانت منطقة الجوف تمتاز بأنها محطة هامة على طريق القوافل المؤدي من اقليم واداي الى سواحل البحر الأبيض، كما أنها كانت أيضاً نقطة انطلاق ملائمة لتوسع الدعوة السنوسية باتجاه المناطق الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى. والسيد المهدي لم يعش غير خمس سنوات بعد الانتقال الى الكفرة، لكنه أثناء تلك الفترة القصيرة بذل الكثير من الجهد من أجل تحويلها الى مركز حضاري مزدهر. فكانت بذور الأزهار والخضراوات وشتائل الفاكهة تجلب من مصر لغرسها هناك حيث تسقى من مياه الآبار العديدة التي تم حفرها بين أشجار النخيل في مجرى الوادي الضيق الطويل، مع أنه ليس من السهل العثور على مورد غزير المياه في مثل هذه المنطقة القاسية المناخ والتي تحيط بها صحراء قاحلة تماماً يسفع أرضها الحر اللافح طوال أشهر الصيف. وقد استحدث السيد المهدي أسلوب الري باستعمال الشادوف على غرار ما يفعله الفلاحون في وادي النيل، اذ ترفع المياه من الآبار بواسطة دلاء معلقة على رافعة خشبية ثم تدلق في قنوات ضيقة تنساب منها الى حقول صغيرة. وكانت المزروعات تشمل الطماطم والباميا والبصل والقرع والكوسا والفاصوليا والفجل. وعلاوة على انتاج التمور الوفيرة كانت ثمة أنواع من الفواكه المختلفة كالعنب والتين والزيتون واللوز والموز والبطيخ والليمون الحامض. وكان يزرع القمح والشعير والذرة لصنع الدقيق وكذلك البرسيم لعلف المواشي والورود والحنّاء والنعناع لاضفاء نكهة خاصة على الشاي وتقطير ماء الورد الشائع الاستعمال في المجتمعات العربية. كما شجع السيد المهدي على استيراد الخيول والحمير لاستخدامها كمطايا والماعز لانتاج اللبن والدجاج لاستكمال النقص في كميات اللحوم المتوفرة محلياً.

وفي سبيل الحفاظ على نمط حياتهم المستقلة والحيلولة دون تسلل النفوذ الاستعماري الى صفوف السنوسية صدرت الى الاخوان تعليمات مشددة تقضي بمنع زيارة المستكشفين الأجانب الفضوليين ممن كانوا يرون في محاولة الوصول الى هذا المعقل الصحراوي الغامض تحدّياً مغرياً لا يقاوم. وقد تعمد السنوسيون ترويج شائعات مفادها أنهم طائفة شديدة التعصب والتزّمت بقصد ردع أولئك الناس وغيرهم من المغامرين عن طريق المبالغة في وصف المخاطر التي يمكن التعرض لها. ولكن الواقع أن السنوسيين لم يهاجموا قط أو يغتالوا أي مسافر مسالم، بل ان مثل ذلك السلوك كان يتنافى جذرياً مع ايمانهم القوي بمبادىء الاخاء والسلام.

وكانت واحة الكفرة في أيام السيد المهدي تبعد عن بنغازي مسيرة أربعين يوماً بقوافل الابل، أما الآن فهنالك رحلة جوية تصل بينهما مرتين أسبوعياً وتستغرق نحو ساعتين فقط. ومع ذلك فان الكفرة ظلت أشبه بمكان توقف فيه الزمن. فعزلتها الهادئة لا يكاد يؤثر فيها ما يهز العالم الخارجي من هرج ومرج. وفي داخل بساتينها تنبسط بحيرات ملحية واسعة تقوم على ضفافها أعداد لا حصر لها من أشجار النخيل تثمر أحلى أنواع الرطب التي ذقتها في حياتي. والكفرة منتجع صحي مثالي يمتاز بأجواء الراحة والهدوء واستقرار حالة الطقس، مما يعيد العافية والنشاط للأعصاب المرهقة ويساعد كثيراً على الشفاء من مرض الروماتزم واضطرابات الجهاز التنفسي. فمن الصعب أن يتصور المرء مكاناً مفيداً للصحة مثل هذه الواحة الرائعة بشمسها الحارة وسمائها الصافية ولياليها النديّة وبحيراتها المالحة الدافئة ومياه الشرب العذبة النقية. وفي عام ١٩٠٠ قرر السيد المهدي الانتقال من الكفرة بحثاً عن مركز آخر في البلد الأكثر اتساعاً وازدحاماً بالسكان جنوبي الصحراء الليبية. والظاهر أنه رأى أن أنسب ميدان لنشر الدعوة السنوسية مستقبلاً انما يتمثل في أوساط السكان شبه الوثنيين بالسودان. وقد فكر مبدئياً في امكانية الاستقرار بمنطقة جبال ماراً في اقليم دارفور الواقع غربي السودان، وكانت منطقة واسعة متخلفة مكتظة بالسكان تضم مساحات كبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة وتربية الماشية. ورغم العلاقات الجيدة التي كانت قائمة بين السنوسيين وبين علي الدينار، سلطان دارفور في ذلك الوقت، الا أن هذا الأخير رفض الفكرة لأنه لا شك خاف من قيام حركة ربما تتحول الى منافس لسلطته الخاصة في عقر داره. ومن ثم قصد السيد المهدي الى سلطان واداي الذي رحب بقدومه وخصّص للسنوسية اقليم قورو على الجانب الشمالي الشرقي من قمم جبال تبستي الشامخة.

وقد حدثني السيد ادريس عن رحلة السنوسيين الى قورو، وكان هو نفسه صبياً في العاشرة من عمره حين سافر برفقة أبيه في تلك الرحلة المشؤومة:

«في شهر رجب من سنة ١٣١٧ هـ (الموافق لأكتوبر ١٨٩٩ م) غادرنا الكفرة قاصدين قورو حيث تم بناء زاوية ومساكن لنا. وكان المشتركون في الرحلة هذه المرة أقل ممن شاركوا في رحلة الانتقال الى الكفرة. وقد ترأس والدي المسيرة ورافقنا فيها أخي الأصغر وأبناء عمي أولاد محمد الشريف ونحو مائتين من الأتباع، بينما خلت الجماعة من النساء كلية.

وسلكنا طريق الكفرة - ابشر متجهين جنوباً نحو بشارة التي كان جدي قد حفر فيها بئراً عمقها حوالي خمسين متراً قبل سنوات عديدة. وبعدها واصلنا السفر مروراً بسارة الى تكرو حيث كانت الآبار جافة في وقت وصولنا. والطريق الى تكرو يمر عبر أراض



صحراوية مكشوفة صلبة يحسن السير فيها لولا قلة المياه، أما بعد الخروج من تكرو فان تضاريس الأرض تتحول الى سهوب بها تلال صخرية ووديان تنمو فيها أشجار السنط والدوم وتوجد المياه في آبار قليلة الغور. وأول قرية وصلناها في أقليم واداي هي قرية واجنجا (التي أطلق عليها اسم أونيانجا فيما بعد) وكانت بها زاوية أنشأها جدي. وثمة بحيرة كبيرة تحف بها نباتات القصب وأشجار النخيل كما تزخر بالأسماك ويكثر فيها البط الصغير والأوز البري. ومن واجنجا تحولنا باتجاه جبال تبستي حتى وصلنا الى قورو بعد ثلاثة أيام. وكانت قورو بقعة منعزلة في واد ينحدر من جبل ايمي كوسى الضخم. وسكانها سمر البشرة يعرفون بالتبو، وقد رحبوا بمجيئنا وقدموا لنا المأكل والمأوى. وكانت الحياة فيها صعبة وبدائية نظراً لقلة المنتوج المحلي من الغذاء، فأرسل أبي في طلب كميات من الدقيق من الجنوب كما عمل على احضار التمور وبعض الكماليات البسيطة من الكفرة. ولكن السنوسيين لم يستطيعوا التعود على طبيعة تلك الأرض الجبلية الوعرة وجوها المتقلب الكثير العواصف والغيوم المفاجئة، وهو شديد الاختلاف عن جو الصحراء الجاف. ثم أصيب والدي بحمى مفاجئة لم تمهله طويلاً فتوفي في أوائل صيف عام ١٣٢٠ هـ (الموافق أول يونيه ١٩٠٢ م). وكانت وفاته صدمة كبيرة لنا، وبعدها قرر كبار الجماعة أن نحمل جثمانه ونعود به الى الكفرة. وهكذا كان».

اكتسب السيد المهدي شهرة مدويّة من جرّاء نجاحه المتواصل في توسيع رقعة الحركة السنوسية التي بلغت ذروة انتشارها في أثناء حياته. فهو الذي أرسى دعائم السلم والنظام في بلاد كانت قبلئذ خالية من القانون، وعلم أهلها معنى كرامة الانسان واحترام الذات واتباع مبادىء الاسلام الصحيح في حياتهم اليومية. بل انه ليس من المبالغة في شيء أن نقول ان الحركة السنوسية حققت على أرض ليبيا الشاسعة من أقصاها الى أقصاها قدراً من الاستقرار والرقي المادي والمعنوي لم تشهد له مثيلاً من قبل، كما أشاعت بين أهلها روحاً من الوئام والاخاء القائم على أسس العقيدة الاسلامية بشكل لم تعرفه البلاد بعدها.

وكانت وفاة السيد المهدي المبكرة صدمة عنيفة لأتباعه ومصاباً فادحاً ألمّ بالحركة السنوسية عموماً. وسرعان ما ذاع الخبر المفاجىء في أرجاء البلاد عبر الصحارى، فكان له وقع الصاعقة على كثير من الناس حتى أنهم رفضوا التصديق بأنه مات حقاً★. ونسجت من ثم خيوط الأسطورة التي تضخمت من رواية لأخرى ومؤداها أنه فقط توغل داخل الصحراء في رحلة سريّة، لكنه لا بد أن يعود يوماً كي يقود الاسلام الى مجده التليد.

★١ رفض احد الشعراء خبر الوفاة في قصيدة شعبية مطلعها:

سيدي مولى السرّ مصفّى   غير تخفّى يكذب هلل قال توفّى





سيدي أحمد الشريف السنوسي .

٣
الهجمة على السنوسية

حدثت وفاة السيد المهدي على نحو مباغت من قبل تعيين خليفة له، في حين كان ابنه البكر محمد ادريس صغيراً لا يكاد يتعدى الثانية عشرة من عمره. فاستقر رأي الاخوان السنوسيين على أن يتولى ابن عمه السيد أحمد الشريف خلافة الطريقة نيابة عنه الى أن يبلغ سن الرشد، بينما مكث محمد ادريس في الكفرة يواصل بمدرسة زاوية التاج حيث انكب على حفظ القرآن ودراسة الحديث والتفسير والشريعة والفقه والتاريخ وعلم الحساب.

وفي تلك الأثناء ظهر من أقصى الجنوب الغربي خطر محقّق يتهدد وجود الحركة السنوسية برمتها. فقد بدأ الغزو الفرنسي للأراضي التشادية سنة ١٩٠٠، وكانت كل من انجلترا وفرنسا قد وقعتا معاهدة سرية فيما بينهما في مارس ١٨٩٩ وهي نموذج صارخ للمؤامرات والد سائس الأوروبية التي كانت تحاك آنذاك بقصد الاستيلاء على ممتلكات في القارة الأفريقية. فبمقتضى تلك المعاهدة خصصت لفرنسا منطقة وسط السودان من بحيرة تشاد غرباً الى حدود دارفور شرقاً، مع أنها كانت في الأصل سلطنة مستقلة منذ أقدم العصور، مقابل تعهد فرنسا باحترام المصالح البريطانية في السودان المصري. وعلى الاثر عقدت ايطاليا وفرنسا أيضاً اتفاقية سرية في ديسمبر ١٩٠٠ أطلقت يد ايطاليا في كل من ولايتي طرابلس الغرب وبرقة التابعتين للامبراطورية العثمانية نظير اعتراف الحكومة الايطالية بمصالح فرنسا في سلطنة المغرب المستقلة وقتذاك.

وهذه الاتفاقيات الرامية الى اقتسام أجزاء من أفريقيا بين بعض الدول الأوروبية تعتبر أمثلة حيّة على نوعية المساومات الرخيصة ونظرة الاستهتار التي كانت سائدة في تلك الفترة والتي تجاهلت تماماً حق السكان الأفارقة في اختيار حكامهم بأنفسهم. وفيما يتعلق بوسط السودان زعم الفرنسيون أن الحركة السنوسية هي العقبة الرئيسية في طريقهم بدعوى أنها شديدة العداء للمسيحية، مع أن هذا الاعتقاد الخاطىء الذي شاع استناداً الى روايات



بعض الرحّالة المبالغ فيها كان ينطوي على تجاهل كامل لتأثير السنوسية السلمي والحضاري ويعزو اليها بدلاً من ذلك وجود تنظيم عسكري ونوايا لم تكن تريدها ولا تملكها في واقع الأمر. ولكي تسارع بالوصول الى حدود منطقة النفوذ التي خصصت لها بموجب المعاهدة المبرمة مع بريطانيا في عام ١٨٩٩ بدأت جحافل القوات الفرنسية في التحرك شرقاً من قواعدها في جنوبي الجزائر والنيجر، وكان ذلك تقريباً في نفس فترة انتقال السيد المهدي الى اقليم قورو. ثم كان الاستيلاء على زاوية بير علالي★، وهي مركز السنوسية في كانم، ومقتل شيخها سيدي محمد البراني سنة ١٩٠٢ بمثابة ضربة موجعة للحركة السنوسية. وبعدها شرع الغزاة الفرنسيون في شن حملة لا هوادة فيها بغية القضاء على الطريقة السنوسية بالكامل داخل كل الأراضي التشادية الشاسعة وخارجها. وفي خلال مدة قصيرة لم تكد تتجاوز العشر سنوات أصبحت الحركة السنوسية بتلك المنطقة في حكم المنتهية. وكان ادراك مدى خطورة التهديد الفرنسي، ولا سيما عقب احتلال طرق القوافل المؤدية من باقرمى والنيجر وكانم ووداي نحو ليبيا، هو السبب الذي حمل السنوسيين في آخر الأمر على دفن خلافاتهم القديمة مع الأتراك من أجل الوقوف معاً في مواجهة هذا الخطر المشترك.

فلقد كان السنوسيون دائماً يعتزون باستقلالهم لا يفرطّون فيه وظلوا حتى ذلك الحين يرفضون مجرد استقبال ممثلي السلطات التركية في الكفرة. ولكن بعدما تأزم الموقف جدياً بحلول عام ١٩٠٨ رحبوا برفع العلم التركي هناك اعلاناً للسيادة العثمانية واحتماءاً بها، غير أن الأتراك في نفس الوقت كانوا مشغولين بمتاعب داخلية في بلادهم فلم يعد بوسعهم توفير قوات كافية للدفاع عن مثل تلك التخوم البعيدة. ومن هنا اضطر السيد أحمد الشريف الى البحث عن وسيلة أخرى لانقاذ الحركة السنوسية، بينما كانت مناطق بورنو وتبستي بما فيها أقاليم قورو وواجنجا قد وقعت بأكملها في أيدي الفرنسيين، فأرسل في

★ تجاوز عدد الذين استشهدوا دفاعاً عن زاوية علالي المئة شهيد منهم ستون من قبيلة زويّه بينهم الشيخ ابو بكر قويطين الذي قالت والدته عندما سمعت نبأ وفاته ورفاقه من قبيلة الزويّه:

(انعنهم افدا لسياد   اللي في علالي رقّدوا)

كذلك استشهد شيخ الزاوية سيدي محمد البراني الساعدي والشيخ يونس بدر والشيخ مصباح الحولي والشيخ السنوسي خير الله العبد وشقيقه عبد الله خير الله العبد والشيخ غيث سيف النصر. كذلك استشهد الشيخ محمد بن عقيله شيخ زاوية (قرو) الذي جاء على رأس بعض المجاهدين في محاولة لانقاذ زاوية علالي.
(عن كتاب برقة العربية ـ للطيب الأشهب)

طلب النجدة من اللورد كتشنر بالقاهرة★ .ورأت الحكومة البريطانية في حينها أن الكفرة تعد من ضمن المناطق الخاضعة لسلطان الامبراطورية العثمانية، فتدخلت لمنع الفرنسيين من احتلالها في اللحظة الأخيرة اذ أن أحد الطوابير الفرنسية كان قد وصل بالفعل حتى منطقة سارة التي تقع على بعد مائتي ميل فقط جنوبي الكفرة. وفي سنة ١٩١٠ انسحبت القوات الفرنسية الى بلدة تكرو التي اعتبرت من ثم نقطة الحدود الفاصلة بين أراضي ليبيا وتشاد.

وما أن نجا السنوسيون من تهديد الخطر الماثل في الجنوب حتى أحدق بهم في الشمال خطر جديد أكثر الحاحاً من سابقه. فسعياً وراء حقها المزعوم في امتلاك منطقة نفوذ لها بليبيا وضمان موطىء قدم على الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ـ التي كان جزء كبير منها قد وقع في أيدي الانجليز والفرنسيين فعلاً ـ قامت ايطاليا فجأة باعلان الحرب على تركيا في سبتمبر ١٩١١ ثم بادرت بانزال قواتها في كل من مدن طرابلس والخمس وبنغازي ودرنة وطبرق. وكان ذلك العمل عدواناً سافراً أثار سخط العالم الاسلامي كله، بينما لم يرتفع في أوروبا سوى القليل من أصوات الاحتجاج لأن سائر الدول الأوروبية الكبرى كانت عاكفة على القيام بأعمال عدوانية مماثلة في أجزاء أخرى من القارة الأفريقية. أما تركيا التي كانت حينذاك غارقة في حرب البلقان حتى أذنيها فانها لم تكن في وضع يمكنها من القيام بأي عمل دفاعي فعّال في ليبيا. ولذا فان مسؤولية تنظيم المقاومة الليبية وقعت على عاتق الزعماء الوطنيين وحدهم بينما كان ينقصها التنسيق وكفاءة التوجيه.

وفي تلك الأثناء بعث السيد أحمد الشريف أوامره من الكفرة لحث السنوسيين على أن يهبوا لمساندة الحاميات التركية في مناطق بنغازي ودرنه. وهكذا أنشأ رجال القبائل المحلية حركتي مقاومة منفصلتين لا تنسيق بينهما في كل من طرابلس وبرقة، واستمرت المقاومة في السير على هذا المنوال طيلة فترة الكفاح الليبي ضد الايطاليين. وعلى الرغم من أن الحكومة العثمانية ظلت عاجزة عن ارسال امدادات عسكرية نظراً للحصار البحري الذي فرضته ايطاليا على سواحل ليبيا، الا أن كثيرين من الضباط الأتراك والمصريين استطاعوا التسلل الى داخل الأراضي الليبية حيث انضموا الى القوات التركية الليبية المشتركة. وكان من ضمن الضباط الذين وصلوا طرابلس فتحي بك، الملحق العسكري التركي في باريس، وحافظ عفيف وهو طبيب صار فيما بعد سفيراً لمصر في لندن، وعبد الرحمن عزّام، أمين عام الجامعة العربية في وقت لاحق. وبفضل تعاون المصريين الذين بذلوا كل جهد

★ منذ ذلك الحين كانت العلاقات بين بريطانيا والحركة السنوسية، وليس كما يعتقد البعض ويشيع من انها بدأت اثناء تواجد سيدي أدريس في المهجر بمصر في الاربعينات.



مستطاع لمساعدة المقاومة الليبية، وصل الى برقة أيضاً عدد من أولئك الضباط كان من بينهم أنـور بك الذي تولى فيها بعد منصب وزير الحربية التركية ومصطفى كمال الذي أصبح بعدها أول رئيس للجمهورية التركية وعبد العزيز المصري. وكانو كلهم ينتمون الى حركة تركيا الفتاة في ذلك الوقت.

وكان أنور بك بوجه خاص رجلاً ودوداً قوي الحجة نجح الى حد كبير في كسب ثقة القبـائـل الـبرقاوية التي تمكنت بغاراتها المتوالية من تضييق الخناق على قوات الاحتلال الايطالي وارغامها على أن تلزم معاقلها الساحلية. وفي صيف سنة ١٩١٢ أقنع السيد أحمد الشريف بالقـدوم الى الجغبوب حيث زاره هناك وأبلغه بأن السلطان قرر منح الليبيين استقلالهم، كما حثه على مواصلة الحرب وحده وعدم القبول بأية شروط للصلح طالما بقي الايطاليون في ليبيا. أما أنور نفسه فسافر بعدئذ الى تركيا وكان مصطفى كمال قد سبقه اليها. ثم لم يلبث الأتراك أن توصلوا الى تفاهم مع الطليان أسفر عن ابرام معاهدة لوزان بين الجانبين. وقد نصت تلك الاتفاقية المشبوهة على أن يسحب الأتراك قواتهم من ليبيا ويمنحوا البلاد حكماً ذاتياً كاملاً، فيما سمحت للسلطان العثماني بتعيين ممثل شخصي له في البلاد مع الاحتفاظ بسلطته الدينية على الأهالي. وكان السيد أحمد الشريف هو المفوض الـذي اختاره السلطان★، وهكذا أجبرته الظروف على أن يصبح رئيس حكومة وقائداً

★ لقد حمل انور باشا الى سيدي احمد الشريف ذلك الامر السلطاني الذي ينص على انه اصبح نائب الخليفة في افريقيا كلها، ويخوله ما للخليفة نفسه من النفوذ المطلق مدنياً وعسكرياً، كما يعطيه حق اعطاء الرتب والنياشين والعفو عن المحكومين والتولية والعزل بدون الرجوع الى دار الخلافة.

وقد وكّل سيدي احمد الشريف سيدي أدريس السنوسي توكيلاً كاملاً في كل ذلك قبل مغادرته برقة سنة ١٩١٨ م. وقد حمل انور باشا لسيدي احمد كثير من الاوسمة والنياشين لمنحها لمن يشاء من مساعديه. وقد منح السلطان سيدي احمد رتبة الباشوية من الدرجة الاولى وعدة اوسمة رفيعة منها الوسام العثماني الاول، كما منح سيدي أدريس السنوسي نفس الوسام ونفس رتبة الباشوية من الدرجة الاولى، ومنح رتبة الباشوية لكل من السيد محمد عابد السنوسي والسيد رضا والسيد علي الخطابي والسيد هلال والسيد صفي الدين مع أوسمة رفيعة.

تولى سيدي احمد سلطته العامة بأسم نائب الخليفة العثماني وقائد المجاهدين وقد وزع الرتب والنياشين على معاونيه التي نذكر منها:

رتبة الباشوية لكل من حسين بسيكري مع النيشان العثماني والسيد احمد بن ادريس والسيد احمد العيساوي والسيد محمد علي عبد المولى والسيد المرتضى فركاش والسيد محمد الدردفي والسيد محمد بن عمور والسيد عمران السكري، كما منح رتب و أوسمة اخرى لكل من السيد محمد الاسمع والسيد عبد الله بن عامر والسيد عبد السلام بو قشاطة والسيد مصطفى منينه والسيد وصفي الخازمي.

وقبل هذه النيابة عن الخليفة كان سيدي احمد يحمل رتبة مشير في الجيش العثماني ويحمل الوسام المجيدي الاول والعثماني الرابع والثاني والنيشان المرصّع مع الاوشحة، وفي فترة لاحقة حمل وسام الماني من ارقى الاوسمة العسكرية الالمانية.
(عن كتاب برقة العربية ـ للطيب الأشهب)

عسكرياً في آن واحد. وعلى الرغم من تفوق القوات الايطالية المعادية وقلة خبرته العسكرية، فانه تحمل مسؤولياته الجسام بكفاءة مذهلة.

وعقب انسحاب القوات التركية من طرابلس الغرب أخذت حركة المقاومة هناك تخمد تدريجياً. أما في برقة فقد أبقى الأتراك على بعض قواتهم فلقيت مساندة كاملة من قبائل البدو واستطاعت أن تلحق بالايطاليين عدة هزائم ساحقة. وفي غضون ذلك قام السيد أحمد الشريف بتأليف حكومته الخاصة التي جعل مقرها في الجغبوب وأصبحت كافة أوراقها الرسمية تحمل ختم «الحكومة السنوسية». وقد شد من أزره التأييد المعنوي الواسع النطاق الذي عمّ أرجاء العالم العربي والاسلامي، اذ نشطت في كل من مصر وسوريا والحجاز لجان جمع التبرعات دعماً للجهاد الليبي، فيما كانت امدادات المؤن والذخائر ترد عن طريق ميناء السّلوم بمصر التي لم يكن بوسعها ارسال قوات من عندها نظراً لوجود السيطرة البريطانية فيها آنذاك فشكلت جمعية للهلال الأحمر من أجل العناية بالمرضى والجرحى بين صفوف المقاتلين الليبيين.

وفي صيف عام ١٩١٣ بدأت الأمور تسير من سيء الى أسوأ بالنسبة للقوات السنوسية التي تكبدت خسائر فادحة في بعض المعارك واضطرت الى اخلاء المواقع القريبة من بنغازي ودرنة وعدة مناطق في الجبل الأخضر. كما زاد من تدهور الموقف حدوث خلاف بين السيد أحمد الشريف ومستشاره عبد العزيز المصري حول سير العمليات الحربية، مما أدى الى انسحاب هذا الأخير عبر الحدود المصرية حاملاً معه معظم قطع المدفعية التركية المتبقية في برقة. فاشتكاه الشريف الى أنور بك، وحوكم المصري أمام مجلس عسكري تركي أصدر ضده حكم الاعدام بتهمة تسليم برقة للايطاليين. ولما كان الشريف معروفاً بصلابة الرأي واعتداده الشديد بنفسه، مع قلة درايته بفنون الحرب التقليدية، فلعل تصرفات المصري كان لها ما يبررها من الناحية العسكرية على الأقل. الا أن البرقاويين اعتبروا تخليه عنهم في تلك الفترة العصيبة بالذات خيانة لا تغتفر. ومهما يكن من الأمر فان الحكومة التركية لم تلبث أن أطلقت سراحه وسمحت له بالاقامة في مصر استجابة لوساطة أصدقائه الكثيرين من ذوي النفوذ هناك وتدخل مراسل صحيفة «التايمز» البريطانية في اسطنبول. وفي وقت لاحق ساهم عزيز المصري في تفجير الثورة العربية بالحجاز، ثم اختار الجنسية المصرية وشغل في مصر عدة مناصب هامة كان من بينها منصب المفتش العام للجيش المصري. وقد توفي في سنة ١٩٦٥ عن عمر يناهز ٨٥ عاماً.

وكانت المقاومة المنظمة بقيادة الضباط الأتراك قد توقفت في برقة بعد رحيل عزيز المصري، غير أن القتال استمر بأسلوب حرب العصابات حيث ظل عرب برقة يضايقون الايطاليين



بشنّ هجمات متكررة على الموانىء وخطوط الامدادات لمنعهم من بسط سيطرتهم الى أبعد من حدود الشريط الساحلي.

وفي طرابلس انقسم أهـل البـلاد الى فريقين كان أحدهما يصرّ على مواصلة القتال والآخر ينادي بالدخول في مفاوضات مع الايطاليين على أساس المطالبة بالحكم الذاتي وفقاً لما نصت عليه معاهدة لوزان. وقد رجحت لبعض الوقت كفة الرأي الداعي الى استمرار المقاومة، وكان يتزعمه سليمان الباروني غير أنه لم يفلح في توحيد الشعب خلف قيادته. وكان انسحاب القوات التركية في أوائل عام ١٩١٣ قد ترك أهل طرابلس وحدهم بلا قيادة وعزّلاً من السلاح، فتمكن الايطاليون من احتلال معظم أجزاء البلاد دون مقاومة تذكر. ورحل الباروني الى اسطنبول في مارس ١٩١٣ فلم يرجع حتى سنة ١٩١٥ بعدما انشغلت ايطاليا باندلاع الحرب العالمية في أوروبا، مما أتاح الفرصة لاستئناف العمليات المساندة للأتراك في طرابلس الغرب.

٤
السيد إدريس يتوجه للحج

نعود الآن الى الكفرة لالقاء نظرة على ظروف حياة محمد ادريس في مطلع شبابه، فنقدم فيما يلي سرداً لتفاصيل الرحلة التي قام بها الى الحج خلال فترة ١٩١٣ - ١٩١٤ كما حكاها بنفسه:

«في عام ١٣٣٠ هـ (الموافق ١٩١٢ م) بلغت سن الرشد في الكفرة، فطلب مني بعض الاخوان السنوسيين بالاصالة عن أنفسهم ونيابة عن غيرهم أن أتسلم مسؤوليات المرحوم والدي من السيد أحمد الشريف الذي كان يومها يتأهب للرحيل الى الجغبوب بناء على طلب أنور باشا حتى يكون على مقربة من المجاهدين. وكان ردي على طلب الاخوان هو أن السيد أحمد مشغول بالاستعداد للسفر، وأننا على حافة الحرب مع ايطاليا، فلا أرى من المناسب أن أستلم منه في وقت كهذا. ثم انني أقدر خبرته الطويلة المجربة في ادارة شؤون الطريقة، ولكن متى استقرت الأحوال فسوف نلبي رغبتهم، ولا شك أن السيد أحمد سوف يوافق على ذلك.

وسافر السيد أحمد الى الجغبوب، بينما بقيت أنا في الكفرة عاماً كاملاً تدربت خلاله على تسيير الأمور المتعلقة بمسؤولياتي المقبلة. وفي تلك الأثناء تخلت تركيا عن البلاد لايطاليا (بمقتضى معاهدة لوزان المبرمة في سنة ١٩١٢). وبينما كان السيد أحمد يحارب الايطاليين، قررت أن أذهب الى مكة لأداء فريضة الحج ثم أعود لمساعدته.

وبتاريخ الرابع من شوال (الموافق أغسطس ١٩١٣) غادرت الكفرة برفقة ثلاثة من الاخوان - هم الحاج محمد التواتي (ابن أحد مستشاري السنوسي الكبير) والحاج فرج والحاج علي العابدية (وهو زعيم سنوسي معروف ولد سنة ١٨٧٠). وكان معنا أيضاً شيخ احدى الزوايا وثلاثة من الخدم، منهم واحد سوداني، بالاضافة الى حداة الابل. وكنت أركب فرسي، وتحمل أمتعتنا الجمال. وسرنا بطريق القوافل الرئيسي الذي يمر بمناطق



طلاب وربيانة وبوزيمة وزيغن وأبو عشكة وبوطفل مؤدياً الى جالو، فاستغرقت الرحلة الى هناك واحداً وعشرين يوماً منها ستة عشر يوماً من السفر الفعلي، اذ كنا نسير ليلاً ونستريح بالنهار كالمعتاد أثناء الصيف. وقضينا تسعة أيام في جالو التي كانت مركزاً تجارياً هاماً ثم أخذت مكانتها في التدهور على اثر اغلاق طريق القوافل من الساحل الى واداي. وبعدئذ واصلنا السير نحو الجغبوب مروراً بخربة وقطمر وترفاوي وعبد السلام، واستمرت الرحلة كلها ستة عشر يوماً منها ثلاثة عشر يوماً من المسير.

ومكثت بالجغبوب سبعة أشهر في بيت أبي. وكان المعهد الذي أسسه جدي هناك لا يزال مزدهراً. وفي شهر جمادي الثاني (الموافق لأبريل ١٩١٤) غادرت الجغبوب متجهاً الى مصر مع نفس الجماعة وكذلك الحاج يونس العابدية الذي انضم الينا في الجغبوب. وبعد مسيرة سبعة أيام وصلنا الى الساحل عند مكان يسمى بقبق (بالقرب من السلوم) حيث شاهدت البحر للمرة الأولى في حياتي. ثم سافرنا الى الضبعة (التي كانت في ذلك الوقت آخر محطة للسكك الحديدية المصرية من ناحية الغرب) ومررنا في طريقنا بمرسى مطروح حيث رحبت بي السلطات المصرية، كما زرنا الزوايا السنوسية في كل من سيدي البراني وشماس ونجيلة وأم الرخم وأبو هارون. ولدى وصولنا الى الضبعة استقبلنا صالح الحرب، وهو ضابط مصري جاء مندوباً عن الخديوي عباس (أي عباس الثاني، خديوي مصر من ١٨٩٢ الى ١٩١٤)، ثم سافرنا الى الاسكندرية بقطار خصوصي، ونزلت ضيفاً على الخديوي في قصر راس التين. ولقيت ترحيباً حاراً من المصريين، فهم على الرغم من حيادهم رسمياً في الحرب مع ايطاليا كانوا يؤيدون اخوتهم المسلمين ويبذلون كل ما في وسعهم لمساعدة السنوسيين بامدادات السلاح والمعدات الطبية. وفي ذلك الوقت كان اللورد كتشنر يشغل منصب المندوب البريطاني في مصر.

وبقينا في الاسكندرية تسعة أيام بانتظار باخرة بريد الخديوي الى حيفا، ثم سمعنا أنها سوف تعرّج على ميناء بور سعيد فاستقلينا قطاراً خاصاً تفضل به الخديوي أيضاً لنقلنا الى هناك حيث ركبنا الباخرة وأبحرت بنا عند الظهر في نفس اليوم. وكانت الرحلة مريحة وصلت بعدها الى حيفا يوم ٢٤ رجب فاستقبلني الوالي التركي استقبالاً رسمياً، وبعدها مباشرة سافرنا بقطار سكة الحجاز، وقد وضعت تحت تصرفي المقصورة الملكية الخاصة. وكان القطار الى المدينة يقوم بثلاث رحلات أسبوعياً وتستغرق رحلته ثلاثة أيام يمر فيها بعدة محطات رئيسية، وهي درعا وعمان وتبوك ومدائن صالح. وهو كان مريحاً رغم بطئه، ويضم ثلاث عربات للنوم وواحدة للأكل، كما وجدت به زريبة لفرسي.



سيدي ادريس في مصر ببدلة التشريفات المصرية الرسمية حاملا اوسمته العثمانية.



وبقيت في المدينة خمسة عشر يوماً كان الجو أثناءها قائظ الحر، فداهمتني الحمى، ولذا نصحت بالانتقال الى مكة لأن جوها ألطف قليلاً. ومع أن موسم الحج لم يكن قد حل بعد، الا أنني امتطيت فرسي وانطلقت في رحلة المائتي ميل من المدينة الى مكة، فقطعتها خلال أحد عشر يوماً من السفر الوئيد أثناء الليل والراحة في ظل خيمة بالنهار. وبعد اقامة ثلاثة أيام بمكة نصحني البعض بالذهاب الى مدينة الطائف الواقعة وسط التلال في جنوبي مكة، وكان الشريف حسين (أمير مكة الذي أصبح فيها بعد ملك الحجاز من عام ١٩١٦ الى ١٩٢٤) يمضي بها فصل الصيف مع ولديه عبد الله وفيصل.

وقضيت في الطائف ٧٥ يوماً، بما فيها رمضان وشوال (الموافق لشهر يونيه من عام ١٩١٤). وكان جوها لطيفاً بالفعل، فاستعدت صحتي تماماً. وفي تلك الأثناء حدث اغتيال أرشيدوق النمسا في ساراييفو، واندلعت الحرب العالمية الأولى (بتاريخ ٤ أغسطس ١٩١٤). وبعدئذ توجهنا الى مكة لأداء مناسك الحج (في أكتوبر ١٩١٤)، ونزلت بالزاوية السنوسية في أبو قبيس. ثم انتقلنا الى المدينة فاضطررنا الى البقاء فيها مدة شهرين لانقطاع المواصلات بسبب الحرب. وكان قد انضم الينا في مكة اثنان من عرب برقة المعروفين، وهما رشيد الكيخيا وعلي العبيدي.

وفيما كنا ننتظر بالمدينة أثناء شهر نوفمبر قامت الحرب بين بريطانيا وتركيا، فحاول الأتراك المسيطرون على الحجاز أن يحملوا العرب على الوقوف في صفهم، كما أخذ البريطانيون في التقرب الى العرب على نحو مماثل. غير أن الشريف حسين التزم موقف الحياد، متجنباً اعطاء أي رد مباشر على الدعوة التركية الى اعلان الجهاد. وفي ديسمبر، عندما استأنفت القطارات رحلاتها العادية، سافرنا الى حيفا حيث استضافنا الوالي التركي أبو شاهين. وهناك اكتشفنا أن الاتصالات مع مصر شبه مقطوعة تماماً لأن البريطانيين والأتراك كانوا يتقاتلون قرب قنال السويس. وكان البريطانيون قد أعلنوا الحماية على مصر بعد خلع الخديوي عباس الثاني واستبداله بعمه حسين كامل الذي منح لقب السلطان.

ولما كانت هنالك باخرة ايطالية تقوم برحلات منتظمة بين حيفا ونابولي عبر ميناء بور سعيد، فقد أرسلنا واحداً من جماعتنا لاستطلاع امكانية السفر بهذا الطريق. وجاءنا رده مشجعاً، فحجزنا أماكن على الباخرة، غير أن القبطان قال انه لا يضمن السماح لنا بالنزول في بور سعيد، نظراً لأن السنوسيين كانوا حلفاء للأتراك وبالتالي فاننا نعد نظرياً من رعايا دولة معادية. ولكن العلاقات في ذلك الوقت كانت قد تحسنت نوعاً بين السنوسيين والايطاليين الذين أخذوا يسعون الى التفاهم مع السيد أحمد الشريف، فاتفقنا على دفع عربون لقبطان الباخرة بحيث يحملنا الى نابولي في حالة ما اذا رفض البريطانيون



أن يسمحوا لنا بالنزول في بور سعيد، ومن نابولي يدبر الايطاليون أمر ترحيلنا الى برقة متى حانت الفرصة.

وهكذا غادرنا حيفا في فبراير ١٩١٥، وقد اضطررت للأسف الى ترك فرسي هناك لأن القبطان لم يجد لها مكاناً على الباخرة. وهي (أعني الفرس) كانت من سلالة برقاوية تربت في أرياف الجبل الأخضر، وكان أهداها الى خليل البناني. وقد حملتني طول الطريق من الكفرة الى مكة، ثم في طريق العودة كذلك، فتأسفت كثيراً لتركها في حيفا حيث ماتت بعدها بمدة قصيرة.

ولدى وصولنا الى بور سعيد طلبنا من رفيقنا علي العبيدي أن يسبقنا في النزول الى البر حتى رأيناه مرّ بسلام فتبعناه كلنا في زحمة الحجاج متظاهرين بأننا مصريون. وفور نزولنا الى الشاطىء بعثنا برقيات الى كل من السلطان حسين والجنرال ماكماهون الذي خلف اللورد كتشنر في منصب المندوب السامي البريطاني بمصر. وتلقينا منهما استجابة ودية، فتوجهنا الى القاهرة في ضيافة السلطان حسين. وفي أثناء ذلك قمنا بزيارة لكل من الجنرال ماكسويل، قائد القوات البريطانية في مصر، والكولونيل كليتون، مندوب حكومة السودان المقيم بالقاهرة، فناقشنا معهما أوضاع العلاقات السنوسية الراهنة مع الأتراك والايطاليين والبريطانيين. وأعرب الاثنان عن رغبتهما الأكيدة في أن نقطع علاقاتنا مع الأتراك ونؤيد البريطانيين في الحرب أو نبقى محايدين على الأقل.

وكان ذلك أول لقاء بيني وبين البريطانيين وخرجت منه بانطباع جيد عن سلوكهم الودي وقوتهم العسكرية. ولم يكن بوسعي أن ألتزم بأي تعهد نيابة عن السنوسيين قبل استشارة السيد أحمد الشريف أولاً. لكنني وافقت على متابعة الاتصال من خلال علاقاتنا بعائلة الادريسي في مصر، ووافقوا من جانبهم على تسهيل عودتي الى برقة.

وبعد فترة اقامة قصيرة في القاهرة، ركبنا قطار الصباح الى الاسكندرية. وفي نفس اليوم استقلينا باخرة لخفر السواحل وضعها البريطانيون تحت تصرفنا حتى أنزلتنا في السلوم، ومن ثم توجهنا الى امساعد للالتحاق بمعسكر السيد أحمد الشريف. وكانت غيبتي عن برقة استغرقت عاماً كاملاً تقريباً».

٥
جهاد الصحراء

شكل تراكم الأحداث اللاحقة مرحلة حرجة من تاريخ السنوسية. ففي عام ١٩١٥ كان القتال في ليبيا قد توقف تماماً، بينما ظلت القوات الايطالية تحتفظ بقدر من السيطرة المشوبة بالتوتر الدائم في مناطق طرابلس وساحل برقة الممتد من بنغازي الى طبرق والجبل الأخضر. أما مواقع السنوسيين فكانت تنحصر في جزء بسيط من المنطقة الساحلية ابتداء من شرق طبرق لغـاية الحدود المصرية، بالاضافة الى سلسلة من المعسكرات المسلحة المنتشرة في العمق من امساعد الى اجدابيا مروراً بالطرف الجنوبي للجبل الأخضر. وكان دور تلك المعسكرات هو احتواء القوات الايطالية داخل الحزام الساحلي، فلم يكن من المتيسر استخدامها في غير ذلك من العمليات. كما أن القوة المرابطة في امساعد تحت قيادة السيد أحمد الشريف نفسه كانت قليلة العدد ومهمتها حماية الشريط الساحلي الضيق قرب البردي من الوقوع في أيدي المحتلين الايطاليين.

وفور نشوب الحرب بينهم وبين بريطانيا انصرف الأتراك الى عمل استعدادات لمهاجمة المواقع البريطانية في مصر على أمل التمكن من تدميرها بواسطة هجوم مشترك من الجناحين الشرقي والغربي. فأوفدوا نوري بك (أخ أنور باشا) الى امساعد في فبراير ١٩١٥ لغرض تنظيم الجناح الغربي بمساعدة جعفر العسكري (وهو ضابط شاب قدير من أصل عراقي انضم فيما بعـد الى صفوف الثورة العربية ضد حكم الأتراك ثم تولى رئاسة الوزارة في العراق وقتل هناك أثناء انقلاب سنة ١٩٦٣). وقد لقيا استقبالاً فاتراً في البداية لأن السيد أحمد الشريف لم يكن يريد اقحام نفسه في معركة جانبية مع البريطانيين، كما أيده في ذلك السيد ادريس الذي كان قد أقام معهم علاقات ودية أثناء رحلته الأخيرة عن طريق مصر فنصح باتخاذ موقف محايد ازاء الحرب بين بريطانيا وتركيا. غير أن السيد أحمد كان في نفس الوقت رجلاً عنيداً ميالاً الى القتال بطبعه شديد الايمان بالواجب الاسلامي المتمثل في



خوض معارك الجهاد ضد الكفار. ثم انه كان لا يريد أن يخذل صديقه القديم أنور باشا.

فلما دعا السلطان العثماني كل العرب الى اعلان الجهاد ضد أعداء تركيا رأى السيد أحمد أن الواجب يفرض عليه تلبية نداء الحرب ضد البريطانيين مثلما سبق له الوقوف الى جانب الأتراك في مواجهة الغزو الايطالي. ولكن الفارق هذه المرة أن بريطانيا لم تكن تهدد بأي غزو للأراضي الليبية، كما أن سياستها تجاه السنوسيين كانت ودية وسلمية. ولهذا لم يعد واثقاً تماماً من صواب رأيه، فوجد نفسه في موقف الحائر المتردد. ومرّ الربيع والصيف من عام ١٩١٥ وهو لم يفعل أي شيء قد يستفز البريطانيين، بل انه شجع السيد ادريس على محاولة التفاهم معهم بوساطة أسرة الادريسي في مصر على أساس اتفاق يشمل تقديم معونة مالية مقابل الحياد في الحرب. ومن ناحية أخرى فان ولاءه للأتراك دفعه الى غض النظر عن الاستعدادات التي كان يقوم بها نوري بك لتجنيد وتدريب قوة عسكرية بقصد مهاجمة الانجليز. فلما تقاعس هؤلاء عن توفير المساعدات المادية التي تعهدوا بها، لم يجد حرجاً في قبول الأموال والامدادات التي تقدم بها الأتراك بالتعاون مع حليفتهم ألمانيا. ولعل من أسباب تأييده الضمني لتلك الاستعدادات التركية شعوره بالمسؤولية كوزير مفوض للسلطان في ليبيا واعتقاده الراسخ بضرورة الجهاد في سبيل الاسلام ضد أعداء الدين أياً كان جنسهم. وفي نفس الوقت بقي على الحياد متحفزاً ريثما تنجلي الأمور.

وطوال سنة ١٩١٥ ظل نوري بك وجعفر العسكري منهمكين في حشد وتدريب المتطوعين من رجال القبائل الذين كان معظمهم من أهالي برقة مع قلة من أفراد قبيلة أولاد علي المنتشرة في صحراء مصر الغربية، حيث كان للسنوسية نفوذ واسع. وهذه القوة التركية السنوسية المشتركة تم تزويدها بأسلحة ألمانية كانت ترد من تركيا بطريق البحر. وفي نفس الفترة نظم نوري شن عدة غارات متفرقة على الحامية البريطانية في السلوم. ومع أن موقف السيد أحمد لم يكن قد تحدد على نحو قاطع، بينما استمر في المحافظة على علاقات طيبة مع ضباط الحدود الانجليز، الا أن الدلائل أخذت تشير يوماً بعد يوم الى أن الهجوم على مصر بات وشيكاً. وقد ذكر جعفر باشا العسكري أيام كان سفيراً للعراق في لندن وهو يسترجع أحداث تلك الفترة البعيدة أن السيد أحمد لم يكن راغباً حقاً في محاربة القوات البريطانية آنذاك، اذ كان يدرك أن عليه أن يتصدى للايطاليين في طرابلس والفرنسيين في الجنوب، وانما جرّته الى دخول الحرب عدة عوامل أخرى منها الحاجة الى المعونات المالية وتأثير الدعاية المضللة التي كان يبثها جواسيس ألمانيا وعملاؤها في المنطقة الى جانب الضغوط القوية التي طفق يمارسها أنور باشا من مركز نفوذه الكبير في القسطنطينية.



سيدي أحمد الشريف السنوسي.

وكانت الشرارة التي أشعلت فتيل الصراع هي حادثة «تارا» الباخرة البريطانية المسلحة التي نسفت بقذائف الطوربيد من غواصة ألمانية أثناء مرورها بخليج السلوم في بداية نوفمبر ١٩١٥. فقد أنزل الألمان بحارة السفينة البريطانية في البردي حيث سلموهم الى الأتراك الذين أخذوهم أسرى وأرسلوا بهم تحت حراسة بعض القوات السنوسية الى معسكر بير احكيم الواقع في منطقة صحراوية نائية. وكان من المستحيل تجاهل مثل هذا التعاون الصريح مع الألمان. ومن جهة أخرى بدأت تظهر في الاسكندرية بوادر قلق جدي لتوارد أخبار تنبىء بقرب حدوث هجوم تركي سنوسي تسانده الغواصات الألمانية التي كانت تجوب البحر بمحاذاة الساحل. وكانت تقارير المخابرات البريطانية تنطوي على كثير من المبالغة من حيث تقديرها لحجم القوات التي كانت موجودة بالفعل تحت تصرف الأتراك في ذلك الوقت، كما سرت شائعات عديدة أثارت مخاوف السلطات البريطانية من أن الصحراء كلها ربما تهبّ عن بكرة أبيها لو دعاها السنوسيون للجهاد في صف تركيا. والحقيقة أن القوات التركية المرابطة على الساحل لم تزد قط عن نحو ألفين أو ثلاثة آلاف رجل، بينما كان جلّ المعسكرات السنوسية مشغولاً تماماً بمواجهة قوات الاحتلال الايطالي في برقة. ولكن المجهول دائماً يوحي بالخطر، خصوصاً وأن السنوسيين اشتهروا بأنهم محاربون أشاوس لا يهابون شيئاً في سبيل العقيدة. وكان من الجلّي أن تأثير السنوسية يمكن أن يلهب حماس أعداد لا حصر لها بدو الصحراء الأشدّاء لغزو وادي النيل فينقضّون على مصر الغنية القريبة المنال بدافع تختلط فيه الغيرة الدينية بالطمع في الغنائم. أما الاحتمال الأضعف نسبياً، وان لم يكن مستحيلاً، فهو أن السنوسيين قد يثيرون موجة من الشعور الديني تجرف حتى الفلاحين المصريين المسالمين نحو دعوة الجهاد تحت راية الاسلام. بل جاء في الأخبار أيضاً أن السلطان علي الدينار، سلطان دارفور، ربما ينضم اليهم هو الآخر (وكان يتلقى أسلحة من الأتراك عن طريق السنوسيين، ثم هزم وقتل أثناء معركة مع بعض القوات البريطانية المتواجدة بالسودان في نوفمبر ١٩١٦). وكل تلك المخاوف التي ضاعف من حدتها تهويل أجهزة المخابرات أدت الى تمركز جيش بريطاني قوامه ثلاثون ألف جندي للدفاع عن مصر وحدها في فترة من أدقّ مراحل الحرب العالمية الأولى.

وكانت المهمة العاجلة التي شغلت السلطات البريطانية حينذاك هي اتخاذ احتياطات كافية لدرء الأخطار المحدقة بالحدود المصرية. ولهذا فان المفارز المصرية الصغيرة المكلفة بأعمال خفر السواحل في السلوم وسيدي براني تم سحبها الى مرسى مطروح حيث تجمعت بسرعة خلال شهر نوفمبر قوات الحدود الغربية بقيادة الجنرال والاس، وكانت تضم لواءين مختلطين أحدهما من سلاح الفرسان والآخر من المشاة ووحدة من سلاح المهندسين بالجيش



المصري وقافلة التموين التابعة للفرقة الأسترالية الأولى. وفي نفس الوقت تقدمت القوات التي كان يقودها الأتراك فاحتلت سيدي براني ثم واصلت زحفها باتجاه مرسى مطروح، وكان قوامها حوالي ٢٥٠٠ رجل منهم ٢٥٠ من جنود الجيش النظامي التركي والبقية من أفراد القبائل السنوسية الذين دربهم نوري باشا وجعفر العسكري وتزودوا بالبنادق الألمانية فضلاً عن ثمان مدافع جبلية وعشر رشاشات. أما القوات البريطانية التي تصدت لهم بمرسى مطروح فقد كانت هي الأخرى مكونة من نحو ٢٥٠٠ جندي منهم ٥٠٠ من سلاح الفرسان.

ودارت المعارك على شكل سلسلة من المناوشات بين كثبان الرمال القريبة من الساحل، وكانت خسائر الجانب البريطاني طفيفة نوعاً. وقد جرى أول اشتباك بين الجانبين عند وادي صنب على بعد أربعة أميال غربي مرسى مطروح، ولم يسفر عن نتيجة حاسمة. ثم وقعت بعد ذلك اشتباكات أخرى في وادي ماجد وفي منطقة حلازين خلال شهري ديسمبر ١٩١٥ ويناير ١٩١٦ هزم فيها العرب فأرغموا على التقهقر. وكانوا في كل تلك المعارك يقاتلون بثبات واصرار، متقدمين في تشكيلات مفتوحة وهم يطلقون النار من خلف ساتر أثناء زحفهم، مما يشهد بكفاءة جعفر العسكري الذي أشرف على تدريبهم. أما المعركة الفاصلة فقد دارت رحاها عند العجاجية على مسافة ١٥ ميلاً في جنوب شرقي سيدي براني بتاريخ ٢٦ فبراير ١٩١٦. وكانت القوات التركية السنوسية البالغ عددها ١٦٠٠ رجل قد تحصنت في موقع دفاعي جيد بين التلال الرميلة وفي حوزتها ثلاث مدافع جبلية وخمس رشاشات. الا أنها هوجمت من الجانبين بقوات تفوقها عدداً فأجبرت على الانسحاب حيث تعرضت لهجوم فرقة من سلاح الفرسان ألحقت بها في النهاية هزيمة منكرة. وكان ممن شهدوا تلك المعركة دوجلاس نيوبولد (الذي منح لقب سير فيما بعد وأصبح وزيراً للشؤون المدنية في حكومة السودان، وتوفي سنة ١٩٤٦). وقد وصف الموقعة بقوله:

«... كانت الفرقة مؤلفة من ١٧٠ فارساً يرافقهم حمل من المجاريف وطباخ وبيطار. وقد اخترقوا صفوف القوات السنوسية تماماً حتى المؤخرة، وسقط منهم ستون قتيلاً معظمهم أصيبوا من الخلف برصاص بعض القنّاصة العرب ممن تظاهروا بأنهم موتى على أرض المعركة».

وقد وقع في الأسر جعفر العسكري بينما تمكن نوري من الهرب مع فلول القوات التركية ثم استقل سفينة نقلته من البردي الى تركيا مباشرة. واستمرت مطاردة المقاتلين العرب حتى توغلوا في الصحراء حيث تكبدوا خسائر كبيرة في الأرواح، وقدرت خسائرهم عموماً

بنحو خمسمائة قتيل وأربعين ألف طلقة من الذخيرة وستين رأساً من الابل المحملة بالتمور استولى عليها البريطانيون.

وانتهت بذلك الحملة الساحلية، فعاد البريطانيون الى احتلال السلوم في مارس ١٩١٦، كما تم انقاذ الأسرى من بحارة السفينة «تارا» (وكانوا يعيشون على أكل القواقع كقوت رئيسي وهم في الأسر!). وقد تمكن من انقاذهم رتل صغير من العربات المصفحة بقيادة دوق وستمنستر، الذي انطلق في عملية جريئة قطع خلالها مسافة ١٢٠ ميلاً عبر الصحراء الى بير احكيم وكانت نقطة أمامية منعزلة لا يوجد بها غير اثنين من الآبار الرومانية القديمة وضريح لأحد الأولياء وحصن تركي متهدم. وأقبل بدو الصحراء ممن كانوا قد انضموا الى قوات نوري، فاستسلموا للبريطانيين بأعداد كبيرة تحت وطأة المجاعة التي بدأت تفتك بهم. وبعدئذ عادت القوة البريطانية الى الاسكندرية بطريق البحر تاركة وراءها في السلوم حامية عسكرية تتألف من كتيبتين وسريّة من جنود الهجانة وبعض المصفحات والطائرات الخفيفة.

وفي غضون ذلك كان السيد أحمد قد شرع، بعد تأخر وتردد طويلين، في تنفيذ المهمة التي أسندتها اليه القيادة التركية العليا، وهي احتلال الواحات المصرية الواقعة غربي نهر النيل ومهاجمة وادي النيل في بعض المناطق غير الحصينة جنوبي القاهرة. وكانت تلك الحملة، وعلى رأسها السيد أحمد في زي قائد تركي، تضم حوالي ٥٠٠ من رجال القبائل السنوسية وترافقها أمتعة كثيرة جداً كان من بينها سرير مزدوج على شكل هودج تحمله الجمال. وبعد مسيرة بطيئة قطعها على عدة مراحل انطلاقاً من الجغبوب الى سيوة ومنها عبر الصحراء الى واحة الفرافرة ثم البحيرة، وصل جيش السيد أحمد الى واحة الداخلة على مسافة ١٧٠ ميلاً تقريباً غربي النيل حيث قضى صيف عام ١٩١٦. ورغم أن الحملة باءت بالفشل الذريع، الا أنها مع ذلك نجحت في تحقيق أهداف الاستراتيجية التركية التي كانت ترمي الى انشغال أكبر عدد ممكن من قوات العدو بمهمة الدفاع عن وادي النيل بحيث يخف الضغط عن القوات التركية المحاربة في منطقة قنال السويس.

ولنعد الآن الى متابعة سيرة السيد ادريس الذي كنا قد تركناه في امساعد، على الحدود البرقاوية، عقب عودته من الحج في شهر مارس ١٩١٥. وكان السيد ادريس أدرى بشؤون السياسة الخارجية وأبعد نظراً وأكثر حذقاً من السيد أحمد في هذا المجال. فهو لم يستصوب أبداً فكرة الزّج بالسنوسيين في الحرب التركية ضد البريطانيين الذين حاول أن يقيم معهم علاقات ودية. ولما كان على علم بالاستعدادات الجارية توطئة لاندلاع الثورة العربية في الحجاز، فقد أحس بأن الامبراطورية التركية أمست على شفا الانهيار، وبالتالي



فان مهـادنـة البريطانيين ربما تكون أجدى لخدمة مصالح شعبه من مساندة الأتراك في الحرب ضدهم. وكذلك فان السيد ادريس كان، مثل أبيه، رجلاً يجنح للسلام بقدر الامكان، فلم يشعر بأدنى رغبة في دخول الحرب شخصياً، غير أن اخلاصه للسيد أحمد منعه أيضاً من اتخاذ أي خطوة من شأنها عرقلة التعاون القائم بينه وبين الأتراك. وبحكم موقعه كقائد للمعسكرات المسلحة التي كانت تتصدى لمواجهة الايطاليين في دواخل برقة، استطاع السيد ادريس أن ينأى بنفسه عن الحملات التركية السنوسية في الأراضي المصرية وأن يركز كل جهده واهتمامه على مقاومة الغزو الاستعماري الايطالي داخل ليبيا نفسها. وهذا ما يتضح من خلال سرده لأحداث تلك الفترة كما سنرى في الفصل التالي.

٦

السيد ادريس يعقد الصلح

«لدى عودتي من الحج أقمت بمعسكر السيد أحمد في امساعد لمدة تسعة شهور تقريباً. وفي تلك الأثناء تلقى تعليمات من السلطان التركي باعلان الحرب ضد البريطانيين، فاعتبر نفسه ملزماً بالامتثال لأوامر السلطان وأعلن الحرب مدفوعاً بحسن النية كعادته دائماً. وتم تشكيل قوتين من السنوسيين لمناصرة الترك بأكثرية من أهالي برقة مع بعض رجال قبيلة أولاد علي المنتمية الى الطريقة السنوسية في مصر. وكانت القوة الرئيسية بقيادة نوري باشا وجعفر العسكري تقوم بعملياتها في محاذاة الساحل باتجاه مرسى مطروح، أما المجموعة الأخرى فقد تولى قيادتها السيد أحمد وتحركت صوب واحة الداخلة لمهاجمة وادي النيل في مصر العليا. وقبل رحيله، سلمني السيد أحمد قيادة الجيش السنوسي المتبقي في برقة. فغادرت امساعد في أواخر عام ١٩١٥ للقيام بجولة تفقدية بين المعسكرات المسلحة هناك، وبلغتني في الطريق أخبار هزيمة الجيش السنوسي الذي كان يقوده نوري باشا في معاركه ضد القوات البريطانية عند مغرب وبير تونس والعقاقير.

وكان الوضع في برقة يزداد صعوبة من جرّاء الحرب الطويلة الأمد مع الايطاليين ثم هزيمة قواتنا على يد البريطانيين. فحصار الساحل قطع وصول المؤن عن طريق البحر، كما أن أزمة نقص الأغذية تفاقمت أيضاً بفعل مواسم الجفاف المتعاقبة ـ مما دفع بالقبائل الى التسليم للايطاليين واحدة تلو الأخرى خشية الموت جوعاً. ونتيجة للحرب بين السيد أحمد وبين البريطانيين أغلقت الأسواق المصرية أمام البرقاويين فتوسّلوا اليّ أن أنقذهم مما يعانون من مشاق العيش. وكان سيّان عندهم أن يتحقق ذلك بالتعاون مع الايطاليين أو مع البريطانيين طالما يقيهم غائلة الجوع.

وفي صيف سنة ١٩١٦ قررت أن أفاتح السلطات البريطانية والايطالية في شأن ايقاف الحرب بأسرع ما يمكن. كما كتبت الى السيد أحمد لابلاغه بما عزمت عليه، وكان حينئذ



في واحة الداخلة بمصر، فردّ بالموافقة على التفاهم مع البريطانيين ولكن ليس مع الايطاليين★ . وكنت آنذاك في اجدابيا فبعثت رسالة الى ممثل الملك جورج الخامس في مصر، وهو الجنرال ماكماهون في ذلك الوقت (يعني السير هنري ماكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر من سنة ١٩١٤ الى ١٩١٦) مقترحاً عقد مفاوضات للصلح . فأجاب بموافقته على فكرة اجراء المفاوضات من حيث المبدأ بشرط أن يشارك فيها الايطاليون أيضاً. ولم أجد مفراً من قبول ذلك الشرط، فطلبت من ماكماهون أن يبلغ الايطاليين حتى يمكن البدء في المباحثات. وبناء عليه وصل وفد انجليزي ايطالي الى الزويتينة (وهي قلعة ساحلية كان قد أقامها الطليان على مسافة ٩٠ ميلاً جنوبي بنغازي) حيث تقرر عقد المحادثات. وكان المندوب البريطاني هو الكولونيل تالبوت. بينما أوفدت ايطاليا دبلوماسياً من روما يدعى بريجاتاني. وأقام الوفد داخل القلعة الايطالية، وكان الحاكم الايطالي لمنطقة بنغازي في ذلك الوقت هو الجنرال ايميليو.

وسرعان ما اتضح أن حجر العثرة الرئيسي في طريق الاتفاق هو التعهد الذي سبق للبريطانيين أن قدموه لحكومة روما بأنهم لن يتوصلوا الى أي تفاهم مع السنوسيين الا بموافقتها الكاملة. أما نحن فكان مطلبنا الأساسي فتح موانىء السلوم وبنغازي ودرنة للتجارة التي من دونها أصبحنا نواجه الموت جوعاً وكنا في مقابل ذلك مستعدين لاطلاق سراح الأسرى الايطاليين عندنا وطرد الضباط الأتراك من برقة. وأنا لم أجد صعوبة في التوصل الى اتفاق مع البريطانيين: «فالكولونيل تالبوت الذي سبق له أن قضى فترة خدمة بالسودان كان رجلاً متفهماً للغاية، لكن التعامل مع بريجاتاني كان أصعب بكثير. فهو أصرّ

★ من دراستي لتلك الفترة ادركت ان سيدي احمد الشريف كان قد تيقن من استحالة تحقيق اي انتصار عسكري وان ايقاف القتال والدخول في مفاوضات سلام مع العدو لأنقاذ الناس من المجاعة اصبح ضرورة ملحّة، ولكن التفاوض كان من اصعب الامور على نفس سيدي احمد الذي طالما افتخر بأنه لم يمد يده لأعداء الله الا والسيف فيها، فكلف سيدي أدريس بالقيام بذلك الدور حتى يخرج سيدي أحمد بنفس المبادىء التي دخل بها وبالمفخرة التي يعتز بها، وقد قبل سيدي أدريس ذلك عن طيب خاطر، فأنه مقتنع بضرورة المهادنة كما كان يهمه جداً ان يخرج سيدي أحمد من المعمعة فخوراً، فقد حمل له دائماً صادق المحبة وكثير الاعجاب.

وقد اتفق السيدان على أن يخرج سيدي احمد من برقة بطريقة لا تشير الى اتفاقه مع سيدي أدريس ليخلي الجو تماماً للمفاوضات ولضمان عدم اشتراط العدو توقيع سيدي احمد على أي اتفاقية سلام قد ينجح سيدي ادريس في تحقيقها، ولقد كان من المهم الاحتفاظ بذلك الاتفاق سراً فأن العدو لو علم به لأصر على وجود سيدي احمد في المفاوضات أو تصديقه على المعاهدات، ولذلك لم يطلعا احد على اتفاقهما ذلك حتى ابناء سيدي أحمد.

وقد تسبب ذلك في الكثير من الازعاج لسيدي أدريس وجلب له عداوات كثيرة واحاط جهوده بكثير من الاشاعات والتشكيك، منها اتهامه انه اغتصب القيادة من سيدي أحمد وطرده من برقة، ولكنه امتنع من الدفاع عن نفسه حتى لا يعرض استاذه للموقف الذي يخشاه.

على احالة كل شيء الى الحكومة الايطالية التي رفضت اقرار مجمل الاتفاق رغم التوصل اليه محلياً. ومن ثم استحال علينا الاستمرار في المفاوضات، فانقطعت في أوائل أكتوبر ١٩١٦، وعاد أدراجه كل من الوفدين البريطاني والايطالي».

وهكـذا كان السبب الـرئيسي في فشل محادثات الزويتينة هو العداء المستحكم بين الايطاليين والسنوسيين. فعلى خلاف الجانب البريطاني، تعنت الايطاليون في المساومة الى حد بعيد مصرّين على ضرورة تسليم الأسرى الايطاليين وتسريح القوات السنوسية في الوقت نفسه.

وأثناء تفاوض السيد ادريس مع البريطانيين والايطاليين في الزويتينة، كان السيد أحمد بصدد الانسحاب من واحة الداخلة بعيداً عن التأثير في مساعي السيد ادريس نحو ايجاد صيغـة ملائمـة للحوار مع الأطراف المعنية. فلما وصل السيد أحمد الى سيوة في طريق عودته، صار تحقيق التسوية أمراً ملحاً خشية من حدوث انقسام بين القبائل البرقاوية قد ينسف جهود السلام برمتها.

وفي أواخر خريف عام ١٩١٦ انتقل السيد ادريس من اجدابيا الى المرصّص في شرقي برقة، ثم عاود الاتصال بالمندوب السامي البريطاني في مصر (وكان وقتها الجنرال وينجيت) طالباً منه العمل على استئناف المباحثات. فاستجاب لطلبه وأوفد الكولونيل تالبوت الى برقة مرة ثانية. وسافر الوفد البريطاني أولاً بطريق البر انطلاقاً من الاسكندرية الى السلوم حيث وجد في استقباله زورق طوربيد ايطالي أكمل به الرحلة الى طبرق، فانضم اليه عضـوا الوفد الايطالي وهما الكولونيل دي فيتا والدكتور لويجي بينتا. وجرت المحادثات خلال شهر يناير ١٩١٧ في عكرمة، وهي مكان صحراوي مهجور يبعد عن طبرق بحوالي عشرين ميلاً. وكان السيد ادريس قد عسكر هناك مع فريق مستشاريه، ومن بينهم محمد الشريف ادريس أحد أعيان عائلة الادريسي بمنطقة الأقصر وكان وسيطاً له في الاتصال بالسلطات البريطانية في مصر. أما المفاوضون الايطاليون والبريطانيون فاختاروا الاقامة بمدينة طبرق نفسها، متنقلين بالسيارات بينها وبين مقر الاجتماعات. وكان السيد ادريس في موقف صعب حيث أن هزيمة جيش السيد أحمد الشريف في مصر جرّدت السنوسيين من عنصر القوة العسكرية، فأصبح السيد ادريس مضطراً الى التفاوض من موقع ضعف عسكري فيما كان رصيده الوحيد يكمن في ولاء قبائل برقة العربية. وهو كان مفاوضاً بارعاً يجمع بين الصلابة والكياسة في آن واحد، فاستطاع أن ينتزع عدة مكاسب لا يستهان بها من خلال اتفاقية معقدة نوعاً. وكانت المفاوضات قد تواصلت ثلاثة شهور كاملة من قبل أن تتمخّض عن عقد اتفاقيتين منفصلتين بين كل من الجانب البريطاني والايطالي على

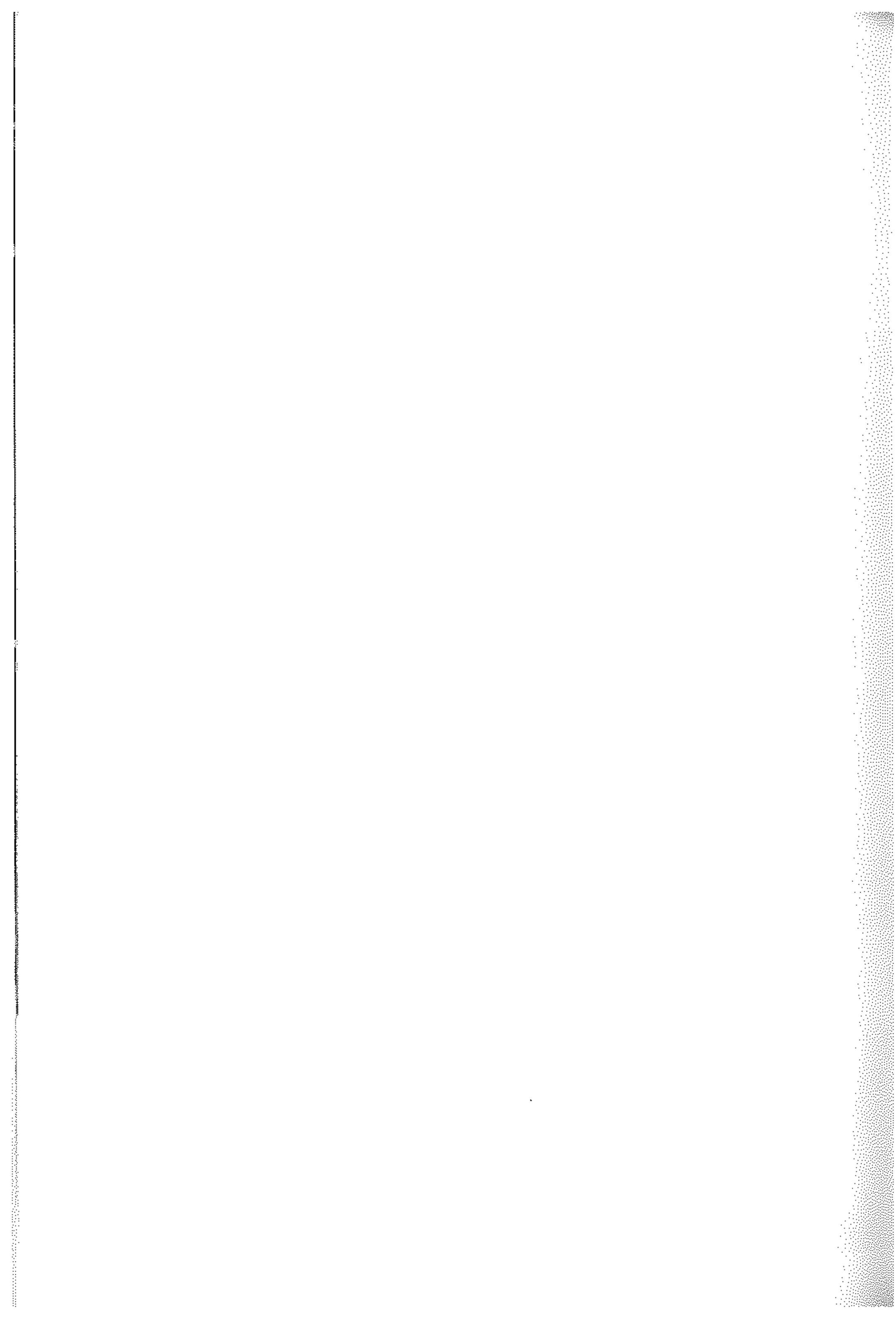


حدة وبين السيد ادريس من جهة أخرى. وجاءت الاتفاقية البريطانية على غرار الشروط العامة التي سبق للسيد ادريس أن قبل بها في الزويتينة، فقد نصّت على تسليم كافة الأسرى من جنود الحلفاء والمصريين وعدم ابقاء أية قوات سنوسية مسلحة داخل الأراضي المصرية أو تواجد حشود عسكرية قرب الحدود. ومن ناحية أخرى تم الاتفاق على فتح منطقة السلوم للأغراض التجارية، بحيث يكون الطريق الوحيد لدخول البضائع من مصر الى برقة هو الطريق الواصل بين الاسكندرية والسلوم وبشرط ألا يسمح بوقوع أي منها في أيدي الألمان أو الأتراك. وفي نفس الوقت أصرت السلطات البريطانية على عدم بقاء أية زوايا سنوسية في الأراضي المصرية، وان سمحت بجمع الصدقات أو أموال الزكاة من أتباع الطريقة في مصر. كما وضعت أملاك السيد ادريس في مصر تحت الحراسة، بينما تركت له ادارة واحة الجغبوب.

ولكن المفاوضات مع الايطاليين كانت أكثر تعقيداً بمراحل. وقد وضع ما لا يقل عن أربعة مشاريع منفصلة للاتفاق قبل أن يتم التوصل الى اتفاقية نهائية لم يلتزم بها السيد ادريس الا في أضيق الحدود. وكانت أهم النقاط الواردة فيها ايقاف الحرب واطلاق حرية القبائل السنوسية في التبادل التجاري مع كل من بنغازي ودرنة وطبرق والاعتراف للسيد ادريس بسلطته السياسية على دواخل طبرق، بحيث لا يتعدى أي من الجانبين على منطقة الآخر ولا يجوز انتهاك حرمة المحاكم الشرعية والمدارس القرآنية. كما نص الاتفاق على أن يشرع الايطاليون في ترميم أو اعادة بناء الزوايا الواقعة داخل المنطقة التي يسيطرون عليها، وسمح للقبائل أن تحتفظ بأسلحتها على أن يبادر السيد ادريس الى نزع السلاح في وقت لاحق. أما مسألة تسريح المعسكرات المسلحة فقد تأجلت للتفاوض بشأنها مستقبلاً.

ولقد كان لكفاءة الكولونيل تالبوت دور مهم في امكانية التوصل الى تسوية عكرمة، اذ أنه اكتسب احترام الجانب العربي لما أبداه من حسن التفهم والنزاهة. وهو كان من خيرة ضباط سلاح المهندسين البريطاني وسبق له أن اشتغل مديراً لمصلحة المساحة في السودان أثناء ادارة كتشنر ثم وينجيت من سنة ١٨٩٦ الى ١٩٠٥. وكذلك فان تلك التسوية جاءت بمثابة انتصار شخصي للسيد ادريس من حيث أنها أسهمت في تعزيز مكانته لدى البرقاويين وتقوية مركزه كرئيس للطريقة وحاكم فعلي لمناطق الدواخل في برقة★. فهو دخل المفاوضات من موقف شديد الضعف حين كانت القوات السنوسية تعاني من مغبة

★ بتلك الاتفاقية فاز سيدي أدريس بأول اعتراف من الغرب بوجود سلطة وطنية في برقة بعد ان اعتبرت المنطقة كلها غنيمة لأوربا من الدولة العثمانية.





كان يظن أن الحلفاء سوف يستسلمون في نهاية الحرب، ولهذا رأى من الأصوب أن يذهب الى اسطنبول عسى أن يحمل الأتراك على التوسط لدى ألمانيا من أجل أن يوضع استقلال بلادنا ضمن أحكام معاهدة الصلح المرتقبة. وقال انني أنا، محمد ادريس، سوف أكون أميراً للبلاد، كما طلب مني أن أكتب على ظهر نسخة من القرآن ما يفيد بموافقتي على أن يخلفني أبنه السيد العربي (وهو الابن الثاني لأحمد الشريف وقد توفي سنة ١٩٦٣). فقد كان لا بد له من عبور حدود كل من النمسا وبلغاريا أثناء رحلته، ولو دونت تلك المذكرة على أي ورقة غير القرآن فانها ربما تكون عرضة للمصادرة أو الضياع. فكتبت حسبما طلب.

وحين أزف الوقت للرحيل استقل السيد أحمد غواصة ألمانية من العقيلة حتى أنزلته في مرسى بولا. ثم وصل اسطنبول في حوالي نفس الفترة التي استسلمت فيها بلغاريا، ولم تلبث أن تلتها كل من ألمانيا وتركيا. وهكذا انتهت الأمور الى نتائج معاكسة تماماً لتوقعات السيد أحمد رحمه الله»★.

ولقد كان خروج السيد أحمد الشريف من ليبيا على نمط حياته الحافلة بالمخاطرات والأحداث المثيرة. ولدى وصوله الى تركيا قوبل بكل مظاهر التكريم والحفاوة اللائقة بمقامه كصديق لأنور باشا وحليف مخلص للأتراك لم يتراجع قط عن موقف الولاء لهم حتى في أوقات المحن والشدائد. وخلال الفترة العصيبة التي أعقبت هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى كرّس أقصى جهوده لمساعدة مصطفى كمال في الكفاح من أجل انقاذ تركيا من خطر الاندثار كأمة مستقلة، كما سعى الى اعادة العلاقات الودية بين الترك والعرب. وفي أثناء انعقاد مؤتمر أنقرة سنة ١٩٢١ وقع عليه الاختيار لتولي عرش المملكة العراقية الوليدة، غير أن النفوذ البريطاني فرض بدلاً من ذلك تعيين الأمير الحجازي فيصل. ثم

★ كان شرط سيدي أحمد ان يكون ابنه السيد العربي ولي عهد الامارة مربوطاً بانتصار المحور، وعندما جائت نتيجة الحرب كما توقع سيدي أدريس بانتصار الحلفاء وهزيمة المحور، اعتبر نفسه في حل من الارتباط مما اثار حفيظة بعض ابناء سيدي أحمد لبعض الوقت.

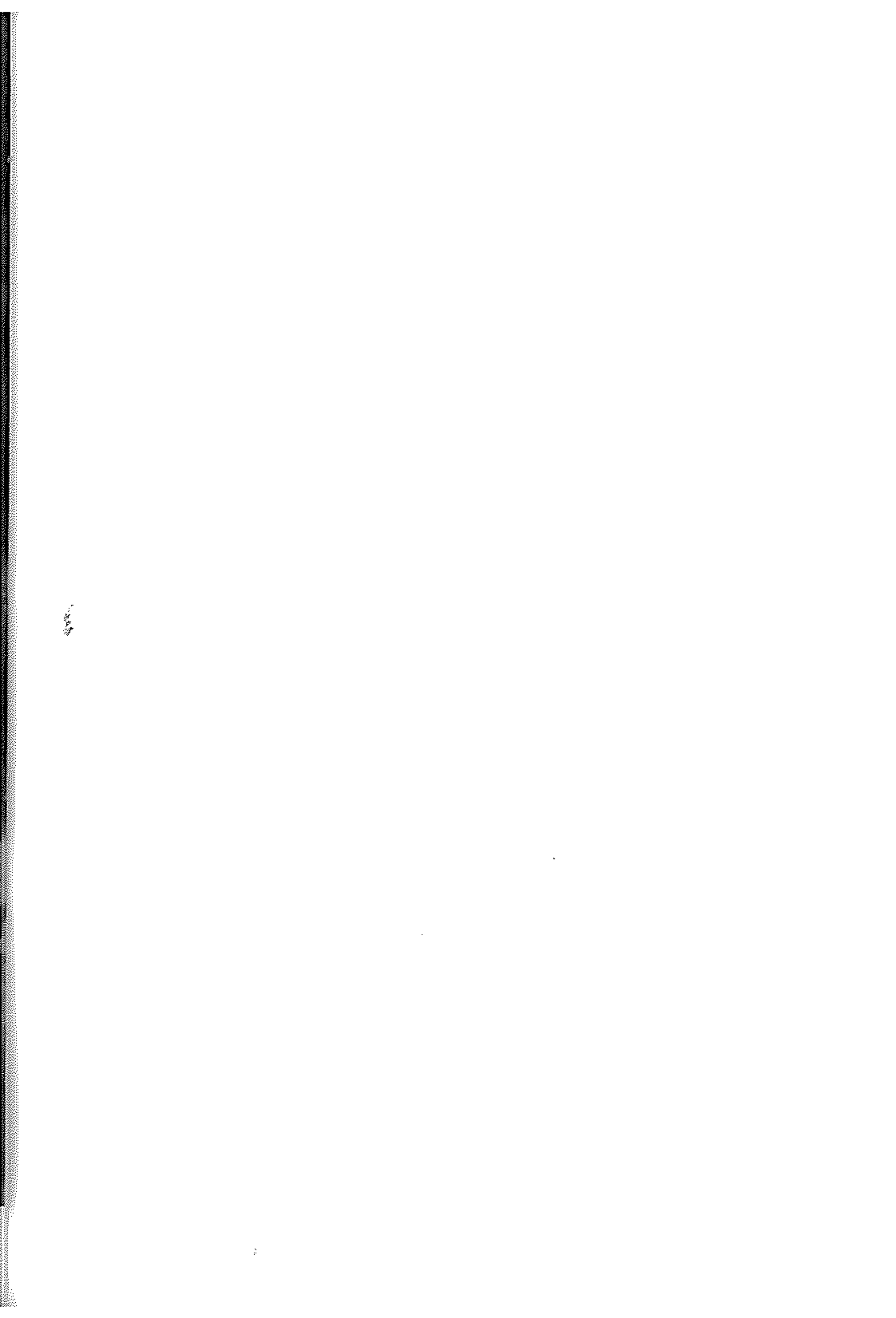
(راجع مذكرات سيدي أدريس التي نشرت مع نعيه لابراهيم الشلحي في جريدة الزمان يوم ٢٧ يناير ١٩٥٥ م) ولها ترجمة انجليزية وردت في كتاب «ذي عرب ستيتس اند ذي عرب ليج ـ دكتور محمد خليل ـ نشر دار الخياط ـ بيروت ـ ١٩٦٢ م.»

وقد جائت في المذكرات هذه الفقرة:

في سنة ١٩٢٠ م توصلنا نحن والايطاليون الى اتفاقية الرجمة المعروفة، والتي اعترفت بموجبها ايطاليا بي كأمير وبتعييني للسيد الرضا ولياً للعهد. في ذلك الوقت كان السيد احمد في مرزن بتركيا، وبعد ذلك انتقل منها الى المملكة العربية السعودية في سنة ١٩٢٥ م وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٩٣٣ م. ولم يذكر السيد احمد لي او لأي شخص آخر على الاطلاق مسألة ولي العهد، ولا انتقد اختياري السيد الرضا وليس السيد العربي. وهذا ليس بغريب فالسيد احمد رحمه الله كان حكيماً متبحراً في علوم الدين وكان يعلم جيداً ان اتفاقنا بالنسبة لتعيين ابنه لم يكن خالياً تماماً من الشروط، وكان يعلم جيداً ايضاً ان الاتفاق (كونه يعتمد على شرط هزيمة الحلفاء) قد فقد فعاليته (بسبب عدم استيفاء هذا الشرط).

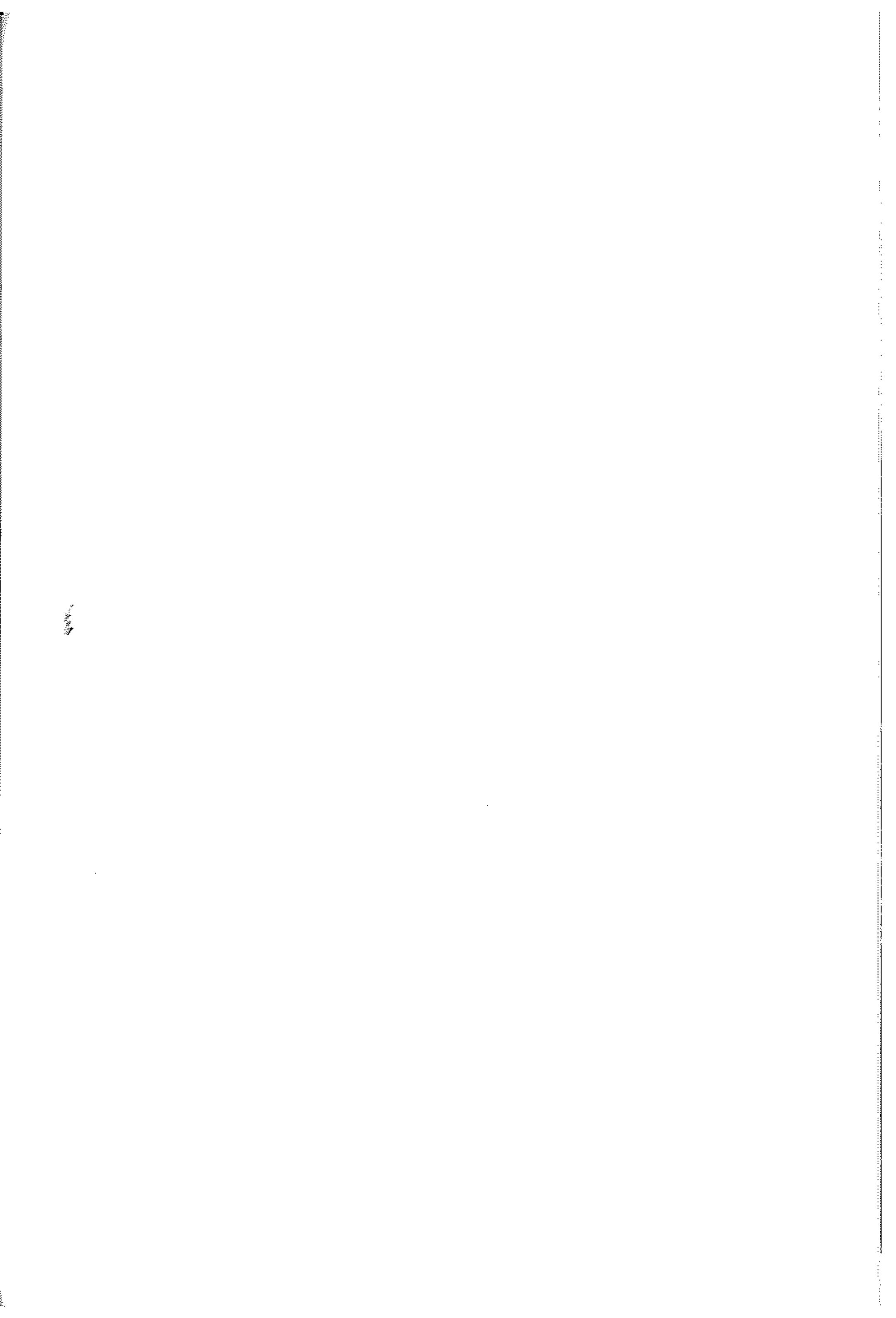


السيد العربي ابن السيد أحمد الشريف.





السيد محمد الرضا المهدي السنوسي الاخ الاصغر لسيدي ادريس.



بدا واضحاً مع الوقت أن السيد أحمد لم يكن يرتاح لاتجاهات النظام الجمهوري الجديد الذي خلف السلطنة العثمانية في تركيا، فطلب منه مصطفى كمال مغادرة البلاد في عام ١٩٢٦.

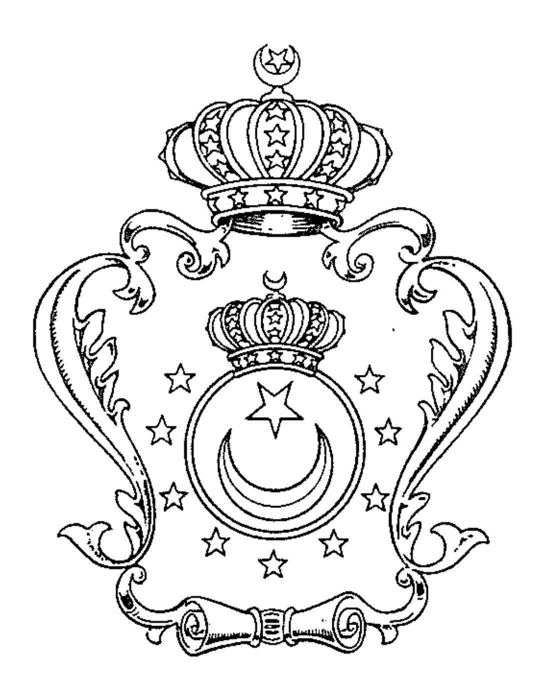
مثل غيره من الزعماء الوطنيين العرب الذين تنكرت لهم أوطانهم في تلك الأيام، فان هذا المناضل الصلب الجريء لقى الملاذ في ضيافة فارس عربي عظيم أيضاً، وهو الملك ابن سعود★ الذي رحب بقدومه الى الحجاز حيث أقام بالمدينة المنورة فقضى فيها بقية حياته معززاً مكرماً كما يليق برجال الدولة القدامى الى أن وافته المنيّة هناك سنة **١٩٣٢**.

وكان السيد أحمد، على خلاف سلفيه، يهتم بشؤون الحياة العادية الى جانب مشاغل الطريقة الدينية. فهو كان شخصية فذة تنبض بالحياة والحماس الدافق والورع الشديد في آن واحد. وهو، من ناحية أخرى، لم يكن يتسم بفرط الاعتدال والتروي مثل ابن عمه الأصغر السيد ادريس. ومن هنا ليس غريباً أنه انخدع بترّهات بعض الضباط الأتراك الخبثاء ممن حاولوا استدراجه لخدمة الأطماع والمصالح الألمانية. الا أنه، فوق كل اعتبار، كان رجلاً ثابت المبدأ والعقيدة واسع الهيبة والنفوذ بين قبائل الصحراء، وما برحت ذكراه موضع اجلال عظيم عند أبناء الجيل القديم من أهل برقة بالذات. وقد خلف السيد أحمد في الكفرة عدداً من الأولاد والبنات، احداهّن السيدة الكريمة زوجة الملك ادريس التي سوف نأتي على ذكرها في صفحات تالية من هذا الكتاب.

★ نقل الملك عبد العزيز لسيدي أحمد رغبة رسمية من ايطاليا لاقحامه في المفاوضات التي تجري في برقة كما ابدى جلالته استعداده لان يكون طرف فيها بموافقة ايطالية لاستعمال ثقله في الحصول على الضمانات التي يطلبها السيد، ولكن سيدي احمد رفض ذلك وابلغ الملك عبد العزيز اثناء نقاشهما للموضوع في منزل الشيخ محمد حسين نصيف بجدّة، ان الأمير أدريس السنوسي موجود في برقة وينوب عنه شخصياً وعن أهل برقة.

(عن كتاب الفوائد الجلية ـ عبد الملك بن علي ـ دار الجزائر العربية ـ دمشق ١٩٦٦ م).





٧
الأمارة الأولى

بعد رحيل السيد أحمد الشريف الى منفاه بقي السيد ادريس زعيماً وحيداً للبرقاويين يتمتع بسلطة الحاكم السياسية المعترف بها من قبل الحكومة الايطالية نفسها فضلاً عن مكانته الخاصة كرئيس للطريقة السنوسية. غير أن سلطته شملت اقليم برقة فقط، بينما اتخذت الأحداث مساراً مختلفاً جد الاختلاف في طرابلس الغرب. فقد كان الأتراك أوفدوا نوري باشا الى طرابلس في سنة ١٩١٨ بقصد التحريض على مقاومة الايطاليين واثارة العداء ضد السيد ادريس بسبب عقد الصلح مع البريطانيين والايطاليين. وبالتالي فان العلاقات بين كل من برقة وطرابلس الغرب شابها النفور والتوتر في حين كانت الضرورة تقتضي توحيد الجهـود والتعـاون في مواجهة الحكم الاستعماري الايطالي. فايطاليا التي أنهكتها الحرب في أوروبا لم تكن في موقف يسمح لها بخوض حرب استعمارية جديدة في ذلك الوقت، بل كانت تميل الى مهادنة الطرابلسيين مثلما فعلت مع البرقاويين من قبل.

ولكن بدلاً من اتباع سياسة تستهدف تحقيق التعاون مع البرقاويين، عمد أبرز زعماء طرابلس الغرب وهو رمضان الشتيوي الى تضييق الخناق على أنصار السنوسية في منطقة سرت حتى اشتد خطره عليهم فاضطر السيد ادريس الى الاستعانة بالوالي الايطالي في بنغازي، الذي تمكن من امدادهم ببعض المال والسلاح من أجل اقامة خط دفاعي عند العقيلة. وبالنظر الى ظروف الفوضى السياسية الشاملة التي عمت مناطق طرابلس الغرب أثناء الفترة التي تلت نهاية الحرب العظمى وسادها التنافس الشديد على مكان الصدارة بين عدة زعماء أقوياء من فئات شتى، فقد تعذّر على الطرابلسيين أن يتفقوا على أي حل مع الايطاليين بقدر ما تقاعسوا عن التعاون مع اخوانهم في برقة.

أمـا بالنسبة لبرقة فان السيد ادريس ظل يدير دفة العلاقات مع الايطاليين بمنتهى الحذر واللباقة، خصوصاً من حيث المحافظة على علاقته الجيدة بالوالي الايطالي الكونت



جاكومو دي مارتينو. وكان ممثل السيد ادريس هو عمر باشا منصور الكيخيا الذي سبق له أن لعب دوراً فعالاً في تحقيق التقارب بين الترك والسنوسيين عام ١٩٠٨. وقد تمت مفاوضات سنة ١٩٢٠ بعد أن استغرقت عدة شهور، وكان السيد ادريس صادق الاقتناع بالحاجة الى ايجاد تسوية سلمية ودائمة مع الايطاليين، ، كما أدرك هؤلاء بدورهم أن النفوذ السنوسي لازم لتهدئة الأوضاع في البلاد. غير أن المجاهدين من رجال القبائل التي قاومت الطليان من قبل لم يكونوا كلهم يتفقون مع رأي السيد ادريس في هذا الشأن، فتشدد البعض في معارضتهم لأية تسوية قد تنم عن التسليم لدولة أجنبية. ولهذا فان الزعيم السنوسي الشاب (اذ لم يكن بلغ الثلاثين بعد) كان عليه أن يحسب خطواته بحذر بالغ، فقد كانت أمامه مهمة صعبة تتمثل في كيفية اقناع القبائل بالتخلي عن رفضها القاطع لأي اعتراف بالسلطة الايطالية كأمر واقع.

وفي نوفمبر ١٩٢٠ انتهت المفاوضات بتوقيع الاتفاقية التي عرفت باسم معاهدة الرجمة، وكان أهم شروطها هو الاعتراف بالسيد ادريس كأمير سنوسي لادارة تمارس الحكم الذاتي بحيث يشمل نطاقها كلا من واحات الجغبوب وأوجلة وجالو والكفرة ويكون مقرها في اجدابيا★. ونص الاتفاق على أن يملك الأمير الحق في رفع علمه الخاص ويفرد له مكان الشرف الى جانب الوالي في المناسبات الرسمية وتؤدى له التحية العسكرية المعتادة باطلاق المدافع أثناء زياراته الرسمية، كما تخصص لرحلاته خارج البلاد باخرة حكومية. وكان للأمير أن يعين موظفيه بنفسه ويختار رجال الشرطة والجيش على ألا يتجاوز تعداده ألف جندي. وكذلك تضمنت المعاهدة رصد اعتمادات مالية سخيّة للانفاق الحكومي، منها ٦٣ ألف ليرة ايطالية (أي ما يعادل ٦٨٥ جنيهاً استرلينياً) كمخصصات شهرية للأمير شخصياً، بالاضافة الى مبلغ مليونين وستمائة ألف ليرة (أي ٢٨٣٠٥ من الجنيهات الاسترلينية) سنوياً للمصروفات العامة و٩٣ ألف ليرة شهرياً (أي ألف جنيه استرليني) لأفراد أسرته. وعلاوة على ذلك، تكفل الايطاليون بدفع مرتبات الشرطة والجيش ومشايخ القبائل والزوايا. وكان على الأمير أن يعمد من جانبه الى حل سائر المعسكرات والمواقع المسلحة وغيرها من التنظيمات السنوسية ذات الطابع السياسي أو الاداري أو العسكري في بحر ثمانية أشهر.

وقد تصادف أن أحد الرحالة الانجليز كان يزور البلاد في تلك الآونة بالذات، فأورد عن السيد ادريس وصفاً شيّقاً وان كان واضح التكلف الى حد بعيد، حيث كتب يقول:

★ بذلك انتزع سيدي أدريس الاعتراف الرسمي الاول بميلاد الدولة الليبية واصبحت حكومة اجدابيا اول حكومة وطنية برقاوية.

«واحتفالاً بابرام هذه الاتفاقية أقام عمر باشا الكيخيا مأدبة كبيرة في بنغازي حضرها الوالي الايطالي الكونت دي مارتينو والأمير الجديد وعدد من كبار الاخوان السنوسيين كان من بينهم علي باشا العابدية والشارف باشا الغرياني، ذلك الرجل المسّن المهيب الذي كان معلماً للسيد ادريس في الكفرة ثم صار مستشاره المقرّب وموضع ثقته. وكان السيد ادريس يرتدي جلبابا أبيض وبرنوسا من الحرير وكوفية فاخرة تنسدل تحت عقال موشّى بالذهب. وهو كان يومها في حوالي الثلاثين من عمره تظهر على سيماه أمارات شظف العيش والتقشف. ولم تلبث أن بدت في عينيه الرصينتين نظرة عطوفة، فيما ارتسمت على محياه ابتسامة عريضة. واذا كان اللطف من شمائل الملوك، فلا شك أن تاج السيد ادريس ابتسامته الآسرة. وأمام طلعة كهذه لا يملك البدوي سوى أن يخرّ ساجداً حتى يقبّل التراب الذي وطئته القدمان الطاهرتان. وقد باركني بصوته الخفيض وهو يبتسم قائلاً: فليحقق الله أمانيك!».

بعد ذلك بفترة قصيرة دعى الأمير للقيام بزيارة رسمية الى ايطاليا. وقد وصفها بنفسه على النحو التالي:

«كان الوالي الايطالي في بنغازي رجلاً ودوداً عاقلاً استوعب بعض الأفكار البريطانية عن ادارة المستعمرات أثناء مدة خدمته السابقة في اريتريا. وبعد معاهدة الرجمة رافقته في زيارة رسمية لروما، ومعي كل من عمر باشا الكيخيا والشيخ احميدة المحجوب ومحمد الفزاني وعلي باشا العابدية والشارف الغرياني وحسن بو خضرة وعبد القادر فركاش ومحمد الساقزلي كاتباً وابراهيم الشلحي★ مساعدي الخاص. وكان البحر هائجاً طوال الرحلة حتى نزلنا في نابولي. ومنها سافرنا بالقطار الى روما، فحضرت مأدبة أقامها الملك فيكتور عمانويل بمناسبة قدومي. وبعد ذلك زرنا فلورنسا حيث عرّفوني بمحمود المنتصر، وكان طالباً هناك في تلك الأثناء. ثم واصلنا الرحلة الى البندقية فشاهدنا مبانيها العتيقة، كما قمنا بزيارة لمصانع الزجاج في مورانو.

ولأن رحلة الذهاب كانت متعبة جداً فقد طلبت العودة على ظهر احدى البواخر الكبيرة. وعلى ذلك انتقلنا الى صقلية فركبنا باخرة كبيرة عادت بنا من باليرمو الى بنغازي.

★ كان ابراهيم أحمد الشلحي احد جنود الحرس الخاص بسيدي احمد الشريف الذي كونه بعد تعيينه نائباً للخليفة من ابناء رؤساء الزوايا وشيوخ العشائر وكبار الاخوان وسماه طابور المعية. وقد ولد ابراهيم الشلحي بزاوية قفنطة من الجبل الأخضر وتعلم بالزاوية البيضاء وبزاوية الفايدية وكان والده احمد الشلحي من كبار الاخوان.

ومنذ استلام سيدي أدريس لمهامه سنة ١٩١٥ م بعد رجوعه من الحج، خصص سيدي احمد ابراهيم الشلحي ليكون في خدمة سيدي أدريس، ومنذ ذلك التاريخ وحتى مقتله في الخمسينات وهو في رفقة سيدي أدريس وخدمته.

(بتصرف عن كتاب برقة العربية ـ للطيب الأشهب).



ولما رجعت الى اجدابيا في أول يناير ١٩٢١ وجدت أن الأوضاع في ليبيا في حالة ارتباك. ففي برقة كان الايطاليون يلحون على تسريح المعسكرات المسلحة فوراً، مع أن مثل ذلك الاجراء كان ينبغي أن يتم بالتدريج ويعالج بحكمة. فرجال القبائل البرقاوية الذين تحملوا العبء الأكبر في مقاومة الطليان رفضوا أن يلقوا السلاح فيضعوا أنفسهم تحت رحمة السلطات الايطالية. وكنت من جانبي أنصح بالتروي والبحث عن حل وسط، وبعد مزيد من النقاش مع الوالي دي مارتينو تقرر نشر دوريات مشتركة من الجنود الايطاليين والسنوسيين حول المعسكرات المسلحة في كل من مناطق الأبيار وتاكنس واسلنطة وعكرمة والمخيلي كخطوة أولى نحو تسريح القوات المرابطة بتلك المعسكرات الخمس. وتم الاتفاق على ذلك الاجراء بمقتضى ميثاق بومريم في نوفمبر ١٩٢١، لكنه لم ينجح في حل الاشكال».

وبينما كانت الأحوال في برقة تزداد سوءاً، فان أحداث طرابلس الغرب هي التي ساهمت أكثر من غيرها في تردي العلاقات بين السيد ادريس والايطاليين. وذلك أن زعماء طرابلس، بعد أن أخفقوا في التوصل الى أي اتفاق مع السلطات الايطالية مباشرة، لجأوا الى السيد ادريس طلباً للمساعدة. ففي نوفمبر ١٩٢٠ عقدوا مؤتمراً في غريان قرروا فيه مبايعة السيد ادريس أميراً على طرابلس، الا أن اتفاقهم على هذا الرأي جاء بعد فوات الأوان وربما كان ينجح لو حدث قبل ثلاث سنوات. فالايطاليون ما عادوا مستعدين لمنح طرابلس وضعاً سياسياً مشابهاً لبرقة بعد أن فطنوا الى مدى التنافس والخلاف بين الزعماء الطرابلسيين، ثم ان السياسة الايطالية كانت تستهدف حكم كل من الاقليمين على حدة وما كانت لتقبل بأية تدابير قد تؤدي الى قيام ليبيا كبلد موحد. ولهذا فان العرض الطرابلسي وضع السيد ادريس في موقف بالغ الدقة. وقد حكى عن أحداث تلك الفترة قائلاً:

«أثناء مؤتمر لأعيان طرابلس عقد في غريان في شهر نوفمبر ١٩٢١، تقرر تأسيس امارة طرابلسية وعرض البيعة عليّ. ثم طلبوا مني ارسال مبعوثين الى سرت لبحث الأمر معهم، فأوفدت ابن عمي صفى الدين للقاء بهم، كما أعلمت والي بنغازي في الوقت نفسه. وعاود الطرابلسيون عرضهم بأن أكون أميراً لهم.

وهذا وضعني في موقف صعب للغاية. فعلي حين أنني كنت متعاطفاً مع رغبتهم في أن يصبح لهم رئيس عربي، لم أكن أريد المجازفة بعلاقاتي مع الايطاليين في برقة. ولذلك امتنعت عن البت في الموضوع، لكنني طلبت من الحكومة الايطالية أن تقبل وساطتي بينها

وبين الطرابلسيين فرفضت بشدة. بل انها منعتني من أي تدخل في الشؤون الطرابلسية، اذ كانت تعتبر برقة وطرابلس بلدين منفصلين.

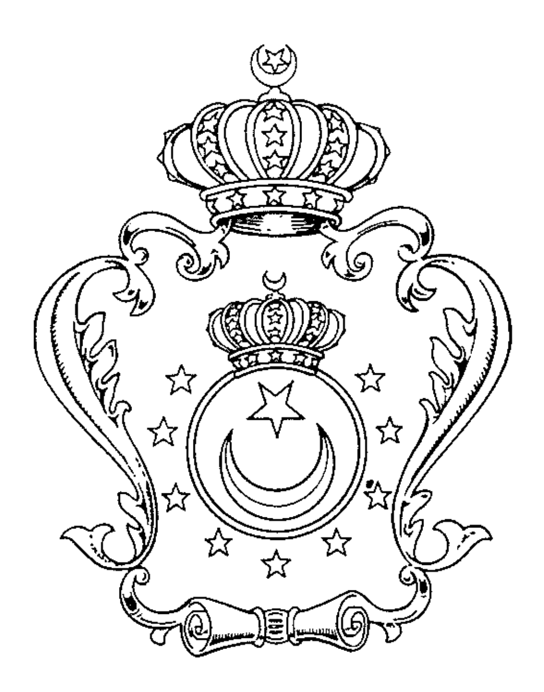
وفي يوليه ١٩٢٢ شكل الطرابلسيون وفداً آخر حضر الى اجدابيا وكان يتألف من بشير السعداوي وبالخير وعبد الرحمن عزام. ومرة أخرى أبلغت الوالي الايطالي بوصولهم. وأثناء وجود الوفد في اجدابيا قدم الى برقة كل من اميندولا، وزير المستعمرات الايطالي، وفولبي والي طرابلس الغرب فاجتمعت بهما في جردس العبيد حيث كررت طلب الوساطة لكنه رفض مرة أخرى. فعدت الى اجدابيا وأشرت على الطرابلسيين أن يتصلوا بالحكومة الايطالية رأساً، اذ لم يعد بوسعي أن أفعل أكثر مما فعلت.

وفي غضون ذلك مات الكونت دي مارتينو وكان الوالي الايطالي الذي حل محله شخصاً متعنتاً ناصبني العداء، فشعرت بأن تغيراً قد طرأ على سياسة الحكومة الايطالية وأن موقفي آخذ في التدهور باستمرار. وبعد تداول الرأي مع سائر مستشاريّ ومع عبد الرحمن عزام، قررت مغادرة البلاد فكتبت الى الملك فؤاد أعلمه برغبتي في زيارة مصر للعلاج. وكنت بالفعل في أمس الحاجة الى قليل من الراحة وتغيير الجو بعد كل الهموم والمتاعب التى حفلت بها السنوات السبع الماضية».

وهكذا نرى أن الأمير ادريس وقع في مأزق بالغ الحرج نتيجة لالحاح الطرابلسيين في تنصيبه أميراً لهم أيضاً، وهي دعوة تعذر عليه قبولها بسبب الحظر الايطالي المتصلب. فقبول العرض الطرابلسي كان يعني قطع علاقاته بالايطاليين وقيادة ثورة لم يكن بطبعه قادراً تماماً على القيام بها، وهو فوق ذلك كله لم يشعر بأن في استطاعته الركون الى ولاء الطرابلسيين أو قدرتهم على القتال. وقد بدا لهم أنه تخاذل عن نصرتهم، أما البرقاويون الذين شهدوا كفاحه الحازم العنيد لحمايتهم من الخضوع الكامل للحكم الأجنبي فهم لم يتخلوا قط عن ولائهم له. ★

★ غاب عن علم الكاتب ان سيدي أدريس قبل البيعة بعد تكرر الحاحهم عليه.
نص بيعة الطرابلسيين لسيدي أدريس ورده عليها (ملحق الناشر رقم ٢ ورقم ٣).





٨

إغتراب السيد إدريس*

«بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ انطلقت من اجدابيا ممتطياً صهوة جوادي وبرفقتي كل من محمد الفزاني والحاج محمد التواتي وعبد الرحمن عزام ومساعدي ابراهيم الشلحي، بعدما تركت أخي السيد محمد الرضا مفوضاً عني في برقة وعلي باشا العابدية متصرفاً لاجدابيا. وسلكنا طريق جالو والجغبوب باتجاه سيوة، وبعد وقت قصير من مغادرتنا الجغبوب صادفنا أحمد حسنين بك وكان في مستهل رحلته الشهيرة لارتياد الصحراء الليبية، فأبلغني رد الملك فؤاد على رسالتي بالموافقة على زيارتي لمصر بقصد الاستشفاء.

ولما انتهينا الى سيوة في ٢٠ يناير ١٩٢٣ رفض المأمور المصري المسؤول أن يسمح لعبد الرحمن عزام بدخول الأراضي المصرية لأن اسمه كان مدرجاً في القائمة السوداء باعتباره مصرياً حارب مع الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى. فرفضت مواصلة الرحلة من دونه عملاً بواجب المسلم تجاه رفيق السفر، وأحيلت المشكلة الى محافظ الصحراء الغربية في مرسى مطروح فأمـر بادخال جماعتنا كلها بلا استثناء كما أرسل عدة سيارات لنقلنا الى مرسى مطروح. وغادرنا سيوة بالسيارات بعد ثلاثة أيام متجهين الى مرسى مطروح حيث رحب بنا المحافظ، ثم ركبنا السيارات مرة أخرى الى أن وصلنا الحمام. وبعدها سافرنا الى الاسكندرية بالقطار في المقصورة الملكية التي وضعت تحت تصرفي. ولقيت من المصريين

★ في رأي ان سيدي أدريس لم يتخذ قرار الهجرة ذلك الا بعد دراسة وافية لجميع الامكانيات، فالحل العسكري كان يعرف بأستحالته منذ البداية وكان يعمل ما في وسعه لأقناع الاخرين بذلك للمحافظة على دماء المواطنين التي كانت ستهدر بدون نتيجة مما كان سيسبب احباط الروح المعنوية الوطنية وتمكين العدو للابد من البلاد، فقد كان يرى بوضوح ان المقاومة الليبية المسلحة لن يمكنها بأي حال من الاحوال دحر القوات الايطالية.

ثم ان المجهودات الدبلوماسية التي كان يقوم بها قد اعطت كل ما يمكنها اعطائه في تلك المرحلة فرحل عن البلاد ليحتفظ بحريته ويراقب الوضع الدولي ويتحين الفرص. وقد كان مساعديه من كبار الاخوان وقادة المجاهدين مقتنعين برأيه ذلك فبعد ان حصل على أذن بالاقامة في مصر لحق به اغلبهم وعلى رأسهم سيدي عمر المختار. وقد ورد في كتاب (حياة عمر المختار ـ محمود شلبي ـ دار الجيل) ان سيدي عمر رفض مقابلة خصوم سيدي أدريس الذين حاولوا الاجتماع به عند قدومه مصر.



استقبالاً في غاية الود، فهم كانوا يتعاطفون معنا كثيراً لمعاناتنا من الايطاليين.
وفي الاسكندرية نزلت بفندق سافوي القريب من البورصة في وسط المدينة. وبعد ثمانية أيام تلقيت رسالة بالذهاب الى القاهرة لمقابلة الملك، فركبت قطار الصباح في اليوم التالي متجهاً الى القاهرة حيث التقيت بالملك فؤاد (ملك مصر من سنة ١٩٢٢ الى ١٩٢٦) ودار بيننا حديث ودي أبدى فيه عدم اعتراضه على اقامتي بمصر. وقد مكثت بالقاهرة نحو عشرة أيام في ضيافة صديقي محمد الشريف ادريس، ثم رجعت الى الاسكندرية فأقمت أولاً في فندق ماجستيك وبعدها انتقلت الى فندق دي ستيفانو».

ولقد تعرض السيد ادريس أحياناً للانتقاد بدعوى أنه تخلى عن شعبه أثناء منعطف تاريخي حاسم في عام ١٩٢٢. ولكن رغم أنه غادر برقة من تلقاء نفسه للاقامة بمصر، فقد كان السبب يكمن في تنامي الخلافات والمشاكل بينه وبين الحكومة الايطالية حتى لم يعد في مقدوره التغلب عليها. فمعاهدة الرجمة، كما رأينا، لا تعدو كونها محاولة عقيمة لاقامة نوع من الحكم الثنائي يشارك فيه الايطاليون والسنوسيون معاً. ولم يقدر لها النجاح أبداً من الناحية العملية، ثم انقطع الرجاء في استمرارها نهائياً عقب استيلاء الفاشست على مقاليد السلطة في ايطاليا. ولم يعد ثمة مكان للامارة السنوسية في وجود نظام فاشي. فلو أن السيد ادريس أصر على البقاء داخل ليبيا في ذلك الوقت لكانوا قبضوا عليه حتماً رهن الاعتقال الفوري في ايطاليا ذاتها. وهو، من ناحية أخرى، لم يكن مؤهلاً لقيادة حرب المقاومة في الميدان، وانما كان بطبعه رجل دين مسالماً على شاكلة جده وأبيه أول رئيسين للطريقة السنوسية★. وكانت أهميته القصوى بالنسبة لليبيين تكمن في سعة نفوذه وهيبته في العالم العربي كزعيم للحركة السنوسية العظيمة وقدرته على اثارة مشاعر الولاء الخالص في نفوس أتباعها، وحنكته في أساليب التفاوض السياسي، وخبرته بالقضايا الدولية. والبرقاويون عموماً لم يخالجهم أدنى شك في صواب قراره بالافلات من قبضة الفاشست، لأن ابعاده الى ايطاليا كان من شأنه أن يسبب انهيار التنظيم السنوسي وسرعة اخضاع برقة ودمجها بالكامل ضمن منظومة المستعمرات الايطالية الفعلية، على حين أن

★ لقد تنبأ سيدي ابن السنوسي اثناء حياته بالغزو الاوروبي للمنطقة وباحتلال الايطاليين لليبيا وقد دعاهم في نبوئته (نابلتان) نسبة الى مملكة نابلي، وقد أمر اخوانه وخلفائه بأن يعدوا ابنائهم للقتال دفاعاً عن العقيدة والوطن، كما شدد على الجميع في امر اقتناء البنادق والبارود وايجاد مصادر لها. وكان سيدي المهدي يعمل على ضوء تلك النبوءة وذلك الامر، ومن ذلك المنطلق كان يعد الزوايا ويختار مواقعها وشيوخها، كما كان فارساً لا يشق له غبار.

(يراجع بالخصوص ولمزيد من التفاصيل كتاب برقة العربية ـ للطيب الأشهب، كذلك كتاب الفوائد الجلية ـ لعبد الملك بن علي).

وجـوده في مصر على مقربة منهم ظل مصدر تشجيع متواصل للبرقاويين يستحث روح المقاومة في البلاد ويبعث الآمال في حتمية التحرر النهائي من نير الاستعمار.

وحتى حياته في المنفى بقيت محفوفة بالمتاعب اذ كانت حريته مقيدة، بل في خطر دائم، طوال السنوات التالية لهجرته من ليبيا، كما يتضح من خلال سرده للأحداث التي حصلت بعد وصوله الى مصر:

«بعد بضعة أشهر من قدومي الى مصر أبلغني الوزير الايطالي المفوض في القاهرة بأن حكومة موسوليني ألغت كافة العهود والمواثيق المعقودة مع السنوسيين (وكان ذلك في مايو ١٩٢٣). وكـان الايطاليون قد ألقـوا القبض على عمر باشا الكيخيا بتهمة التواطؤ في هروبي، فحبسوه أولاً في بنغازي ثم نقلوه الى معتقل في ايطاليا. وبعدها بشهور قلائل علمت أن الحكومة الايطالية قد طلبت من الحكومة المصرية تسليمي اليها ووعدت بعدم تعرضي لأي أذى.

وشعرت بالخطر المحقق نظراً لأن الملك فؤاد كانت أمه ايطالية وقد تربى في ايطاليا وتربطه بالايطاليين علاقة حميمة ربما تدفعه الى تلبية طلبهم. ولذلك اتصلت بالمندوب السامي البريطاني، وكان شخصاً يدعى المستر كلارك كير يعملُ بالنيابة عن اللورد اللنبي الذي كان وقتها غائباً في اجازة. فذهب المستر كير هذا لمقابلة الملك فؤاد في قصر عابدين، حيث شاءت الصدف أن يلتقي بعلي باشا ابراهيم رئيس الوزراء وهو في طريقه للاجتماع بالملك حول نفس المـوضوع. ولحسن الحظ تمكن المستر كير من اقناع علي باشا بتزكية وساطته في الخصوص، فتقرر منحي حق اللجوء السياسي شريطة التعهد بعدم المشاركة في أي نشاط مناهض للحكم الايطالي في ليبيا وعدم الخروج من منطقة دلتا النيل. أما رفاقي الليبيون فلم يسمح لهم بالبقاء في مصر، بل كان عليهم أن يهاجروا الى بلدان عربية أخرى، فيما عدا مساعدي الشخصي ابراهيم الشلحي. فانتقل علي باشا العابدية مثلاً للاقامة في فلسطين، كما أن بعض الأخوان الآخرين الذين لحقوا بنا فيما بعد، ومنهم عمر المختار، رجعوا الى برقة لمواصلة المقاومة★.

★بعد مكوث سيدي أدريس بضع أشهر في مصر ودراسته للامكانيات والاحتمالات، لا شك انه وصل الى القناعة انه لن يكون لجهوده السياسية اي ثقل ولن يكون لها أي تأثير في الاحداث العالمية ما لم يكن له قوة ضاربة في داخل البلاد. وقد تطوع سيدي عمر المختار للقيام بذلك الدور الذي يتناسب مع شخصيته واستعدأداته وميوله. ومن الواضح ان سيدي عمر ما رجع الى ليبيا الا بعد الاتفاق التام بينه وبين سيدي أدريس على تفاصيل الخطة الواسعة بجميع حلقاتها.



وقد عاملني المصريون باحترام بالغ يعكس مدى احساسهم بمحنة اخوانهم العرب الليبيين. وخلال السنوات الخمس الأولى من وجودي بمصر أقمت في القاهرة، فسكنت أولاً في بيت بشارع خموس باشا، ثم في شارع عمر بن عبد العزيز بحي المنيرة، وأخيراً في شارع رشدي باشا بحي جاردن سيتي. وكنت أقضي الصيف بالاسكندرية في منزل بحي بولكلي استأجرته من موظف بريطاني أثناء اجازاته. كما التحقت بنادي الجزيرة الرياضي حيث كنت أمارس لعبتي التنس والجولف. ورغم أنني وضعت تحت الرقابة المستمرة، الا أن الشرطة المصرية كانت تؤدي عملها بأسلوب مهذب دائماً وكان مديرها آنذاك فيتزباتريك بك.

وفي عام ١٩٢٨ انتقلت للاقامة الدائمة في الاسكندرية، فاشتريت منزلين متجاورين في حي سان ستيفانو. وفي نفس الوقت كانت عندي بضعة أملاك في سيوة، وهي كانت في الأصل تخص السيد أحمد ولكن صادرها البريطانيون في سنة ١٩١٧. فابتعتها من ملاكها الجدد الذين كانوا اشتروها من الحراسة البريطانية سنة ١٩٢٢. ومنذ عام ١٩٢٥ خصصت ريعها لولدي السيد أحمد، وهما السيد ابراهيم والسيد محي الدين، اللذين هربا من الايطاليين في تلك السنة. وأخيراً، بعدما توالت شكاوى الايطاليين من كثرة تردد الاخوان السنوسيين على واحة سيوة، أبدلتنا الحكومة المصرية عن تلك العقارات بما يعادلها في منطقة وادي النيل بينما قدرت قيمتها لمصلحتنا، فكنا في غاية الامتنان لها.

وما رجع سيدي عمر للبلاد الا لأحياء حركة الجهاد المسلح بدرجة مناسبة تلفت انظار العالم اليها وتزعج الايطاليين اطول فترة ممكنة لأعطاء سيدي أدريس الوزن السياسي الدولي المطلوب الذي يمكنه من تحريك القضية الوطنية على مسرح اللعبة الدولية بالمنطقة في محاولة لأنتزاع البلاد من براثن الاستعمار (وقد اثبتت النتائج صحة تلك الرؤية ووجاهة ذلك التخطيط). ولم يعتقد سيدي عمر في أي يوم من الأيام انه في امكانه هزيمة ايطاليا بالكامل وطردها من البلاد بالمجهود الحربي فقط، فقد عرف بالذكاء.

وقد جاء ذلك واضحاً جلياً في اجاباته على جرسياني في سراي الحكومة بعد ان وقع في الأسر:

جراسياني: هل كان لديك أي أمل في انك سوف تستطيع اخراجنا من برقة بهذا العدد القليل من الرجال الذين يحاربون معك وتلك المعدات الضئيلة التي تملكها؟

سيدي عمر: كلا، فأن هذا على ما يبدو كان أمراً مستحيلاً.

جراسياني: ماذا كان غرضك اذن وماذا كنت تبغي؟

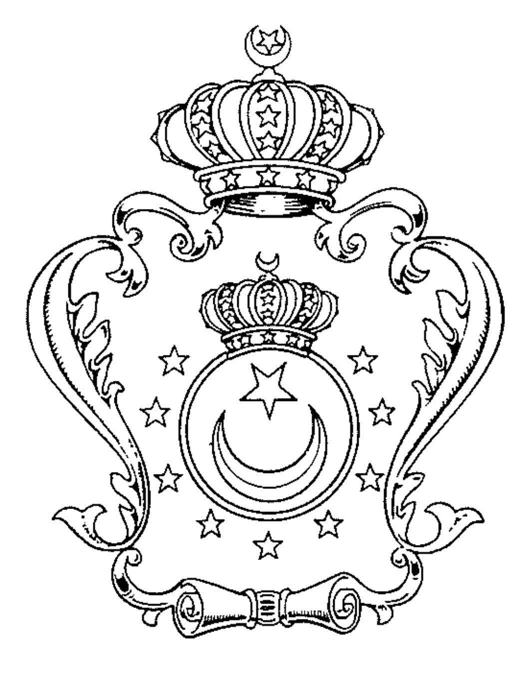
سيدي عمر: كنت مجاهداً وكفى.

جراسياني: كلا، بل الصحيح، هو انك لم تحارب الا من اجل السنوسية فحسب،

ثم انطلق جراسياني يندد بالسنوسية فلم يجبه سيدي عمر ولكنه «على حد قول جراسياني في مذكراته» كان يظهر في اثناء ذلك ألماً شديداً. ولقد كان سيدي عمر يدرك تمام الادراك وفي وضوح شديد ان دوره القتالي هو جزء مهم جداً في خطة واسعة متكاملة الحلقات، وقد كان يتصرف طول الوقت على ذلك الأساس.

وفي سنة ١٩٣٠ رفع الحظر عن تحركاتي خارج منطقة الدلتا، فاشتريت قطعة أرض في الصحراء بناحية حمام مريوط على مسافة نحو ٥٠ كيلومتراً غربي الاسكندرية و٢٠ كيلومتراً من ساحل البحر. وهناك بنيت منزلاً صغيراً وزرعت في فنائه حديقة، وكان منزلي هذا قريباً من بيت الرائد جييننجز براملي في برج العرب. وهو ضابط بريطاني متقاعد كان قد اشتغل مدة طويلة في كل من مصر والسودان ثم قرر أن يعيش في ايطاليا، ولكن لم يواتيه جوها فعاد الى صحراء مصر حيث كان يعمل من قبل وأقام لنفسه مسكناً في ناحية برج العرب. وكان يحظى باحترام كبير من بدو المنطقة، اذ ساعدهم كثيراً في انشاء بعض الصناعات البسيطة هناك، كما أنه كان متفهماً جداً ومفعماً بالود تجاه العرب عموماً، فأصبح من خيرة أصدقائي. وبقي يعيش في برج العرب حتى سنة ١٩٥٦ عندما اضطر الى الرحيل بسبب أزمة السويس، ولم أره بعدها، وبيته في برج العرب مخصص حالياً للقائد العام المصري المشير عبد الحكيم عامر. أما أنا فقد أقمت في منطقة الحمام بصفة مستمرة من عام ١٩٣١ الى ١٩٤٠.

وكانت تلك فترة تعيسة للغاية، فقدت أثنائها الكثيرين من أخلص أصدقائي وأنصاري الذين استشهدوا في معارك الجهاد ضد الايطاليين، كما غمرني الحزن والأسى الشديد لمعاناة أهل برقة. وعقب احتلال الكفرة دمّر المسجد الذي كان يضم رفات والدي ونهبت وبعثرت محتويات المكتبة التي كان فيها الكثير من كتبنا ومخطوطاتنا. وما كان يشد من أزري عبر تلك الظروف العصيبة سوى ثقتي بالله وتعاطف أصدقائنا في العالم العربي».



٩
المقاومة البرقاوية

ولننتقل الآن الى حكاية الظروف الفاجعة التي ألّمت بحركة المقاومة السنوسية في برقة خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٢٣ الى ١٩٣١. ففي تلك الأثناء أسدل حول برقة شبه ستار حديدي لمنع العالم الخارجي من معرفة أي شيء عما كان يجري بالداخل. وبعدها تجمعت خيوط القصة المأساوية كلها من ذكريات عدد من أهل برقة الباقين على قيد الحياة ممن عاصروا أحداث تلك الفترة. وهذا قد يدفع البعض الى الظن بأن روايتها لا بد أن تتسم بالتحيّز لوجهة النظر العربية على الأخص، الا أننا راعينا في نقلها منتهى الدقة والأمانة استناداً الى الوقائع التاريخية الثابتة.

ان نوايا الفاشست لم تدع أي مجال للتعايش السلمي مع أهل البلاد على غرار الترتيبات التي تضمنتها معاهدة الرجمة. فأصدر موسوليني أوامره الى الوالي الايطالي الجديد، الجنرال بونجوفاني، بأن يعمد الى اخضاع البلد كله للسيطرة المباشرة بقوة السلاح. وفي مارس ١٩٢٣ شرع هذا في شن حملة واسعة النطاق شملت مختلف المعسكرات السنوسية المسلحة التي أخذت على حين غرّة، مما أدى الى أسر ما يقرب من نصف عدد المحافظيّة (أي الجنود السنوسيين) المرابطين بها. وتلا ذلك احتلال اجدابيا، مقر الادارة السنوسية، في شهر أبريل، فاضطر السيد محمد الرضا الى اللجوء الى واحة جالو على بعد ١٢٠ ميلاً نحو الجنوب. وقد رد السنوسيون بحدة على ما اعتبروه خرقاً صارخاً لمعاهدة الرجمة، فاستأنفوا الحرب ضد الايطاليين فوراً. وفي عدة معارك طاحنة دارت رحاها في جنوبي اجدابيا وقرب مرسى البرقية تمكن رجال قبيلة المغاربة من الحاق الهزيمة بطابور ايطالي كامل كان يتألف من مجندين اريتريين زاحفاً باتجاه جالو، فأبادوه عن آخره بعد قتال شرس (في يونيه ١٩٢٣). وكان قائد تلك الحملة السنوسية المظفرة رجلاً يدعى قجّه عبد الله، وهو من قبيلة القرعان (التي تقطن في منطقة تبستي بشمالي تشاد) وسبق له أن حارب الفرنسيين في واداي سنة ١٩٠٥.

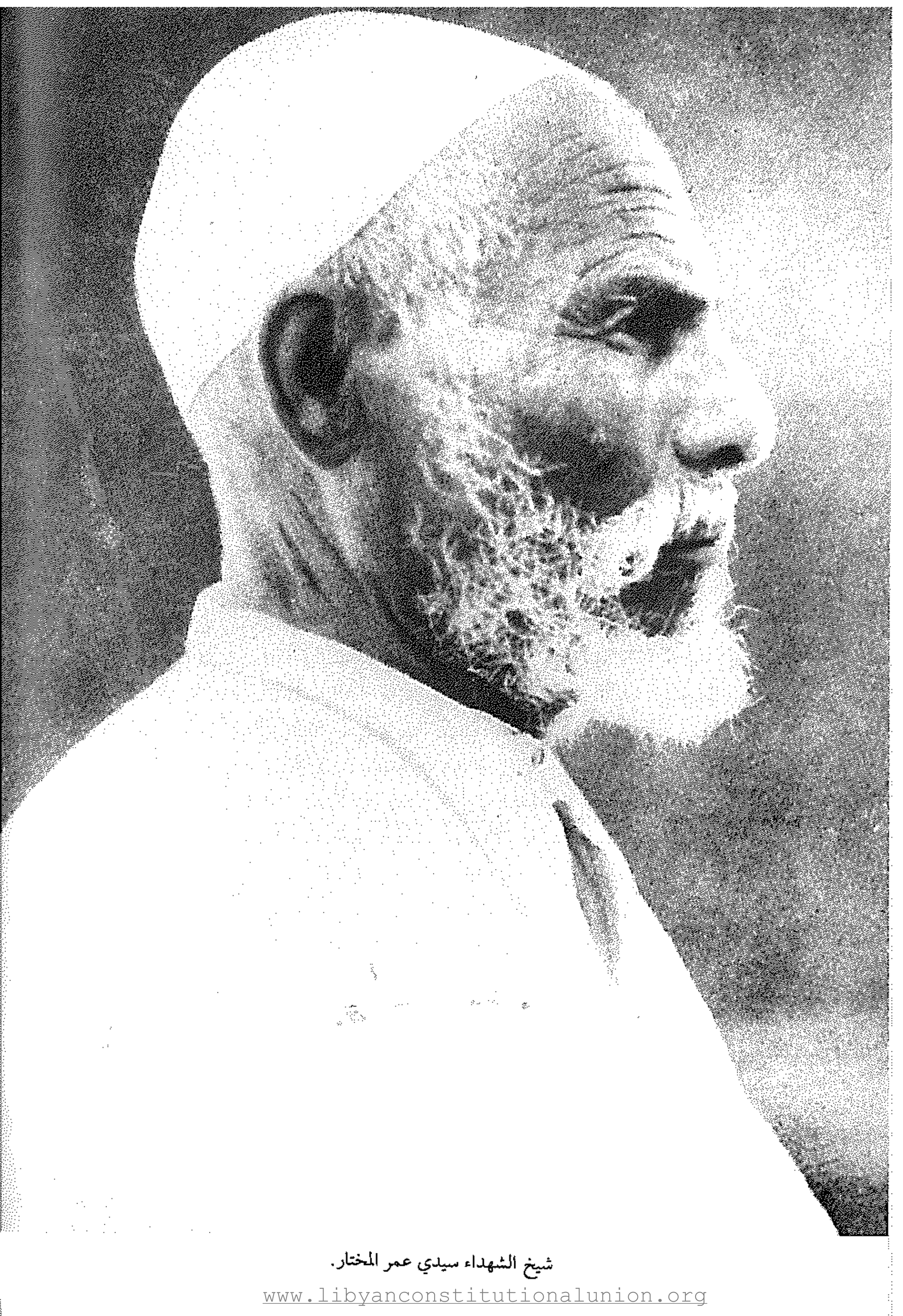


ومن ثم ركز الايطاليون جهدهم على عملية جمع وتطويق القبائل السنوسية التي كانت تسكن منطقة الجبل الأخضر وتنتمي اليها غالبية المحافظية. ونتيجة لذلك، تكبد الأهالي خسائر جسيمة في الأرواح فضلاً عن فقد الكثير من قطعان المواشي اما بسبب نفوقها أثناء الرحيل أو لاستيلاء الايطاليين عليها عنوة. ولكن تلك الاجراءات القاسية كلها لم تنجح الا في زيادة تصميم المجاهدين واصرارهم على مواصلة الكفاح.

وفي سنة ١٩٢٥، أيام كان أحمد زيوار باشا رئيساً للوزارة في مصر، جرت بين الحكومتين الايطالية والمصرية مفاوضات رسمية بشأن رسم الحدود بين ليبيا ومصر. فعقدتا اتفاقية نصت على أن يبتدىء خط الحدود عند بير الرملة الواقعة على مسافة سبعة أميال شمالي السلوم، ثم يسير نحو الجنوب لغاية القيقب على بعد أربعين ميلاً في شمال غربي سيوة، بحيث بقيت الجغبوب مركز الطريقة السنوسية ضمن اقليم برقة. ومن ثم يمتد في اتجاه وسط بين الجنوب والشرق حتى يلتقي بخط الطول ٢٥ درجة فيحاذيه جنوباً الى جبل العوينات الواقع على مسافة ٦٠٠ ميل من الساحل، وهو كان الطرف الغربي لحدود مصر مع السودان المصري الانجليزي. وبعد العوينات يستمر خط الحدود في اتجاهه صوب الجنوب الى مسافة ١٩٠ ميلاً أخرى حتى يصل الحدود الشمالية لاقليم تشاد التابع لأفريقيا الاستوائية الفرنسية آنذاك. وهذا الخط البالغ طوله ٧٩٠ ميلاً كان كله تقريباً يمتد عبر الصحراء الليبية القاحلة الخالية من السكان. فهو يمر من خلال كثبان رملية يكاد يتعذر اجتيازها وتغطي مسافة ١٥٠ ميلاً في جنوبي الجغبوب، ثم يخترق هضبة رملية تتناثر بها النتؤات الصخرية ويصل ارتفاعها الى ألفي قدم في أقصى الجنوب. ولم تكن شروط الاتفاق مرضية تماماً في نظر المصريين لأنه ترك واحة الجغبوب لبرقة بعد أن كانت تعد واقعة داخل الأراضي المصرية، غير أنه جاء مطابقاً على وجه التقريب لنفس الوضع الذي كان سائداً أثناء العهد العثماني حيث كانت نقاط الحدود المصرية تقوم عند السلوم والقيقب. ومما لا شك فيه أنه أصاب السنوسيين بنكسة خطيرة في ذلك الوقت نظراً لحرمانهم من مركز الطريقة، اذ أن القوات الايطالية بادرت الى احتلال الجغبوب على الفور.

وعلى حين أن الاجراءات التي اتخذها الايطاليون لاستكمال غزوهم لليبيا حققت أهدافها الى حد بعيد خلال الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ و١٩٢٦، الا أنهم نجحوا في طرابلس الغرب أكثر من نجاحهم في برقة. فبحلول عام ١٩٢٥ كانوا قد تمكنوا من احكام سيطرتهم الفعلية بالكامل على سائر الأجزاء الشمالية من اقليم طرابلس الغرب. أما في برقة فان الجنرال مومبيللي، الذي حل محل بونجوفاني سنة ١٩٢٤، عمد الى اقامة صف من النقاط الحصينة على أطراف الصحراء بمثابة قواعد لانطلاق قواته التي استمرت في





شيخ الشهداء سيدي عمر المختار.

مهاجمة المعسكرات السنوسية وسرقة أعداد كبيرة من المواشي في الوقت نفسه. ونتيجة لتلك العمليات استطاع الايطاليون اخضاع بعض قبائل المنطقة. ومن ناحية أخرى فان السيد محمد الرضا، نائب السيد ادريس، أصبح في موقف لا يحسد عليه، وهو أبعد ما يكون عن خصائص القائد العسكري. وذلك أنه كان رجلاً متديناً ينزع الى الهدوء دائماً ولا مطمح له سوى أن يبقى بمنأى عن مسرح الأحداث بقدر الامكان. فلما صار أمنه مهدداً بالخطر، حاول السيد ادريس أن يدبر أمر اجلائه عن برقة ووافق الحاكم العام في السودان، وهو السير جيفري آرشر آنذاك، على السماح له باللجوء الى هناك. ولكن، لسوء حظه، قامت القوات الايطالية باحتلال جالو قبل أن يتمكن من الوصول الى الكفرة. وفي يناير ١٩٢٨ جاء الى اجدابيا مستسلماً للايطاليين فنفي الى جزيرة صقلية حتى عام ١٩٣٥ ثم سمح له بالعودة الى بنغازي، وعاش فيها على مبلغ زهيد الى أن انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة الايطاليين.

وكما سبق القول فان برقة، على خلاف طرابلس الغرب، رفضت الاستسلام للايطاليين. وأبدى البرقاويون مقاومة عنيدة لم تقهر في آخر الأمر الا تحت وطأة العمليات العسكرية المكثفة التي حشد لها الايطاليون قوات هائلة قوامها نحو عشرين ألف جندي مجهزين بالمدفعية الثقيلة والمصفحات والطائرات أيضاً. واذا كانت قلة من أبناء القبائل البرقاوية، لم يزد مجموعها في أي وقت من الأوقات عن ألفي مقاتل فقط، ولا كانت مسلحة بغير البنادق القديمة الصدئة، استطاعت أن تصمد طيلة سنوات في وجه تلك الآلة الحربية الجبارة، فان هذا يعد في حد ذاته اشادة عظيمة بعمق تأثير السنوسية وصلابة البرقاويين وعشقهم للحرية. وفي حين أن حركة المقاومة كانت تجري باسم السنوسية وبايعاز من السيد ادريس على الأخص، الا أنه يجدر اعتبارها انتفاضة تلقائية طوعية قام بها أهل برقة دفاعاً عن استقلالهم.

والمقاومة البرقاوية قادها عمر المختار الذي عاد من مصر الى برقة حيث أصبح ينوب عن السيد ادريس بعدما قرر الايطاليون نفي السيد محمد الرضا. وكان عمر المختار★،

★ ولد سيدي عمر المختار سنة ١٨٦٢ م، وكان ابويه من اخلص الاخوان السنوسيون، وتعلم في زاوية الجغبوب وقد اصطحبه سيدي المهدي معه الى الكفرة ثم عينه سنة ١٨٩٧ م شيخاً لزاوية القصور بالجبل الاخضر قرب المرج. وعندما عزم سيدي المهدي على الانتقال الى تشاد استدعى سيدي عمر لمرافقته حيث أقام معه فترة في (قرو) ثم عينه شيخاً لزاوية (عين كلك).

بعد وفاة سيدي المهدي اعاد سيدي احمد الشريف سيدي عمر شيخا لزاوية القصور. ثم وضع سيدي عمر نفسه تحت امرة سيدي أدريس منذ استلامه لامور الطريقة من سيدي أحمد. وقد اعدمه الايطاليون في سبتمبر ١٩٣١ م في قرية سلوق ودفنه المواطنون في مقبرة سيدي عبيد بمدينة بنغازي، وفي عهد الاستقلال نقل جثمانه الطاهر الى ضريح جميل شيد له في ميدان فسيح في قلب مدينة بنغازي، ثم هدم الضريح في بداية الثمانينات بناء على امر من معمر القذافي ونقل الجثمان الى قرية سلوق.



وهـو من قبيلة المنفـة، قد تلقى تعليمـه بمعهد السنوسية في الجغبوب كما حارب ضد الايطاليين خلال الفترة من عام ١٩١١ الى ١٩١٧ . فلقد كان مناضلاً قديماً حازماً شديد البأس صار بطلاً أسطورياً للمقاومة السنوسية التي تواصلت من سنة ١٩٢٣ الى ١٩٣١ . وكان المجاهدون تحت قيادته من بدو برقة ينتمون الى قبائل العبيد والعواقير والبراعصة والدرسة والعبيدات والحاسة والمغاربة، وكلها تعتز بأصولها العربية الى أقصى حد. وهم كانوا عصب المقاومة ضد الحكم الايطالي، حققوا انتصارات عديدة ولم يقهروا قط. وكانوا يعتبرون أنفسهم رجالاً أحراراً يقاتلون دفاعاً عن بلادهم ضد معتدين أجانب يبتغون حرمانهم من أرضهم وسلب حريتهم. وكان في طليعتهم رجال من أمثال الفضيل بو عمر ويوسف بورحيل المسماري وعثمان الشامي وعيسى الوحواح وصالح باشا الاطيوش ومحمد بو نجوة والشيخ عبد الحميد العبار وحسين الجويفي وأحمد سيف النصر، ومنهم كثيرون سقطوا في ساحات القتال، ومنهم من استطاع الهروب الى مصر ثم التحق بالقوات العربية الليبية التي شكلت هناك في عام ١٩٤٠ .

وقد تواصلت عمليات المقاومة أولاً من نفس المعسكرات المسلحة التي كانت أنشأها أنور بك في سنة ١٩١٢ . وبعد وقوع تلك المعسكرات في أيدي الايطاليين، استمرت الحركـة انطلاقاً من كهوف الجبل الأخضر ومخابىء أخرى متفرقة بالمناطق الصحراوية الجنوبية. وكان المجاهدون يرتاحون بالنهار ويطلعون ليلاً للاغارة على خطوط المواصلات وطوابير القوات الايطالية المتحركة، فينصبون لها الكمائن في وهاد الجبل الكثيفة الغابات ويهاجمون معسكراتها تحت جنح الظلام. وشكلوا وحدات متنقلة من الفرسان المسلحين ببنادق كانت في معظمها بنادق ألمانية قديمة من مخلفات الحرب العالمية الأولى، زودتهم بها القبـائـل في مختلف المنـاطق، علاوة على البنادق الايطالية التي كانوا يغنمونها أثناء المعارك. وحتى سنة ١٩٢٧ نجح المجاهدون الى حد كبير في احتواء الايطاليين داخل معـاقلهم المحصنـة، أمـا بعـدها فان حركة المقاومة ازدادت صعوبة كما غدت خسائر السنوسيين أكثر جسامة من أي وقت مضى. وذلك أنهم فقدوا قواعدهم الرئيسية في كل من اجـدابيا وجـالو والجغبوب وخط امداداتهم من مصر ومعسكراتهم المسلحة ومخازن تموينهم الدائمة. والأدهى من هذا كله أن الايطاليون عمدوا الى اقامة سور هائل من الأسـلاك، غير عابئين بتكاليفه الباهظة، على طول الحدود المصرية الليبية من ساحل البحر عند امساعد لغاية نقطة بعد الجغبوب على مسافة نحو ١٨٠ ميلاً من الساحل. وكان خطاً يتألف من أربعة صفوف من الأوتاد المعدنية البالغ ارتفاعها خمسة أقدام تم تثبيتهـا في قاعـدة من الاسمنت المسلح بينما نسجت حولها لفات متراصة من الأسلاك

الشائكة حتى بلغ سمكها حوالي عشرة أقدام. ثم ان هذا الحاجز الضخم وضع تحت حراسة مشددة تقوم بها دوريات مزودة بوسائل النقل الآلية كانت تنطلق من مراكز التفتيش الحصينة المنتشرة في سلسلة منتظمة على امتداد السور كله. وهو أدى بالفعل الى عزل السنوسيين في برقة عن أنصارهم من بدو مصر الغربية، وبالتالي اضطروا الى الاعتماد الكامل على مواردهم الذاتية الضئيلة.

وفي بداية عام ١٩٢٩ عين موسوليني المارشال بادوليو حاكماً عاماً لليبيا حيث أوكل اليه مهمة قمع حركة المقاومة في برقة واخضاع البلاد نهائياً. وأصدر بادوليو على الفور بياناً صاغه بلهجة في منتهى العجرفة والصلف والتعنت، عارضاً على السنوسيين أحد خيارين: اما الاستسلام التام واما الابادة الكاملة. والظاهر أن عرب البلاد، وهم لم يكونوا يعتبرون أنفسهم مهزومين أصلاً، فسروا مضمون البيان بأنه دلالة على أن الايطاليين تعبوا من الحرب ويرغبون في التفاوض على الصلح. وهذا ما دعا عمر المختار الى الاتصال بالايطاليين بقصد الاتفاق على عقد هدنة بين الجانبين. فتقرير الجانب العربي يصف محادثات الهدنة على النحو التالي:

«بعد عدة اجتماعات* مع المسؤولين الايطاليين وضعت قائمة بالمقترحات السنوسية الرامية الى تحقيق تسوية سلمية، ثم قدمت تلك المقترحات أثناء اجتماع آخر عقد في سيدي ارحومة (قرب المرج) وحضره القادة السنوسيين والمارشال بادوليو ومعاونوه. وهي كانت تتضمن المطالبة بحضور مندوبين عن كل من الحكومتين المصرية والتونسية لدى عقد مؤتمر الصلح المقترح، كما تطالب بعدم المساس بالدين الاسلامي، وكذلك الاعتراف باستعمال اللغة العربية رسمياً، وفتح المدارس الدينية وغير الدينية على أن يجري تعليم اللغتين العربية والايطالية على قدم المساواة، واعادة الأملاك المصادرة، واقتسام الوظائف الحكومية بين الايطاليين وعرب البلاد، واطلاق حرية حيازة السلاح. وقد تليت هذه المقترحات أثناء الجلسة وأبدى المارشال بادوليو استعداده للموافقة عليها».

أما على حد زعم الايطاليين، فان القائمة التي قدمت خلال الاجتماع تضمنت مقترحات ايطالية وافق عليها عمر المختار في حينها ثم تنصلّ منها فيها بعد. ولم ترد في تقاريرهم أية اشارة للمطالب السنوسية السالفة الذكر. وأيا كانت حقيقة ما حدث، فلا جدال في أن المحضر الايطالي الرسمي عن وقائع الاجتماع كان مضللاً على كل حال حيث جاء فيه أن عمر المختار قبل بالاستسلام من غير قيد أو شرط. ويظهر أن المسألة كلها

---

* بعد عدة مراسلات تم اجتماع تمهيدي في الشليوني ثم أخر في قندولا ثم الاجتماع النهائي في سيدي ارحومه.



اكتنفها سوء الفهم والتأويل من أولها الى آخرها، ومن أسباب ذلك ان بعض السنوسيين المتحمسين لفكرة الصلح عن حسن نية قد انطلت عليهم الخدعة في مساعيهم الخاصة لتحقيق التسوية. ومن هؤلاء السيد الحسن الرضا، وكان وقتذاك شاباً قليل الخبرة، فيبدو أنه عقد مع الايطاليين اتفاقاً منفرداً على أساس المقترحات بالذات، مع أن عمر المختار بالتأكيد لم يقبل بها أبداً. وهذا الاتفاق رفضه عمر المختار على الفور، فاندلعت الحرب من جديد قبيل نهاية عام ١٩٢٩. والواقع أن وجهات نظر الطرفين كانت تنطوي على خلافات جذرية متأصلة من الصعب أن نتصور أي سبيل الى التوفيق بينهما. وذلك أن الايطاليين كانـوا يتعاملون مع المقاومة السنوسية على اعتبار أنها مجرد تمرد ضد الحكومة الشرعية، في حين أن القبائل البرقاوية ظلت تعتبر نفسها صاحبة الحق المشروع في البلاد بينما تنظر اليهم بوصفهم معتدين غاصبين.

وفي مايو ١٩٣٠ عين الجنرال غراتسياني السيء السمعة نائباً لوالي بنغازي، وكان قد فرغ لتـوه من شن حملة عسكرية ناجحة في فزان، فأصدر أوامره الفورية باغلاق كافة الـزوايا ومصادرة ممتلكات الطريقة السنوسية وتجريم حيازة الأسلحة النارية تحت طائلة الموت. كما عمد في نفس الوقت الى القاء القبض على شيوخ الزوايا ومشايخ القبائل، غير أن أشد تصرفاته قسوة وجوراً هو أنه ساق كل سكان البادية تقريباً الى الحبس الجماعي في معسكرات اعتقال بمنطقة سرت. وبدا جلياً أنه من غير الممكن أن يتوقع أهالي برقة أي رحمة أو شفقة من هذا الوالي الجديد.

١٠
إحتلال الكفرة وانتهاء المقاومة

لعله من المناسب أن نتوقف قليلاً عند هذا الحد كي نعود الى تحري أخبار الكفرة التي كدنا نغفل ذكرها منذ أن تحدثنا عن رحلة السيد ادريس الى الحج في سنة ١٩١٣ . وان انتقال مركز النشاط الرئيسي للسنوسية الى منطقة الساحل، والتغير الذي طرأ على طبيعة الطريقة السنوسية ذاتها حتى تحولت من مجرد دعوة دينية سلمية الى حركة نضالية في الوقت نفسه، واغلاق طريق القوافل الى واداي بسبب الاحتلال الفرنسي ـ كل تلك التطورات قللت كثيراً من أهمية الكفرة حتى أنها خلال السنوات التالية أصبحت عبارة عن نقطة خلفية نائية. وتركها السنوسيون تحت اشراف السيد محمد العابد، وهو أخ لأحمد الشريف، بقيت معه نساء الأسرة وأطفالها ممن كانوا يواصلون تعليمهم بمدرسة زاوية التاج. واتسمت حياة الكفرة في تلك الأيام بالعزلة الهادئة التي أجاد وصفها كل من أحمد حسنين بك وروزيتا فوربز، وهما الأجنبيان الوحيدان اللذان تمكنا من زيارة المنطقة آنذاك. ففي كتابه «آخر الواحات» الذي يتحدث فيه عن رحلته الشهيرة لاستكشاف الصحراء الليبية على ظهور الابل من سيوة الى الفاشر في اقليم دارفور، يقدم حسنين بك أروع ما كتب حتى الآن عن ظروف الطريقة السنوسية وتصوير نمط الحياة بالكفرة في ذلك الوقت.

وفيما كانت تحميها فيافي الصحراء المترامية الأطراف من حولها، بقيت الكفرة بمثابة آخر المعاقل السنوسية التي استمرت فيها الحياة على نفس المنوال الذي كان سائداً في عهد السيد المهدي العظيم، لا تكاد تعكر صفوها تقلبات الأحوال مثلما حدث للسنوسيين بعد انتقالهم الى منطقة الساحل الليبي. غير أن تلك الحياة الهانئة كانت لسوء الحظ في طريقها الى الزوال بنهاية فاجعة. وذلك أن محمد العابد، الرئيس الرمزي لمجتمع الكفرة حينذاك، كان رجلاً طيب الشمائل من جميع الوجوه لكنه هيّاب. فهو لم يكن من نفس الطينة الصلبة التي تشكلت منها شخصية أخيه المحارب الجسور. وبعدما تمكن الايطاليون من احتلال



جالو في عام ١٩٢٧ اعتراه الخوف على سلامته الخاصة، فشرع في اجراء اتصالات مبدئية معهم دون الرجوع الى السيد ادريس أو استشارة القبائل المحلية في أي وقت. وانتهز الايطاليون تلك الفرصة السانحة فأرسلوا بعثة استطلاعية بقيادة النقيب فورناري تحت ستار القيام بزيارة ودية الى هذه الواحة شبه المجهولة تماماً لدى الأجانب. ولما علم أبناء قبيلة الزويّة في الكفرة أن عزلة موطنهم هذا التي ما انفكوا يحرسونها بيقظة شديدة من تطفل الغرباء أمست على وشك أن تنتهك على ذلك النحو، استشاطوا غضباً. فما أن وصلت البعثة الايطالية الى ناحية بير زيغن حتى قبضوا على جميع أفرادها وساقوهم الى الكفرة أسرى. أما محمد العابد نفسه فانه حوكم بصفة عاجلة وأدين بتهمة التآمر مع الايطاليين، وأعطى مهلة أسبوع واحد لمغادرة الكفرة الى مكان آخر. وفعلاً رحل بأسرته في قافلة من الابل الى اقليم تشاد، حيث سلم نفسه للسلطات الفرنسية ومنح حق اللجوء هناك. فأقام هو وجماعته في منطقة «عاطى» التي كانت مخفراً فرنسياً بين ابشر وفورت لامى وعاشوا بها حياة عوز شديد. وكنت أثناء خدمتي على حدود السودان أتردد على المنطقة من وقت لآخر، فسمعت من هذه العائلة السنوسية قصة الظروف التعيسة التي أحاطت بابعادها عن الكفرة. ثم رأيت محمد العابد للمرة الأخيرة قبل وقت قصير من وفاته في عام ١٩٣٨، وذلك حين نزل عندي في «جنينة» وهو متوجه الى مكة عن طريق السودان لأداء فريضة الحج. وكان في حالة صحية سيئة للغاية، غير أنه رفض البقاء للعلاج بالمستشفى، فتوفي بعدها بثلاثة أيام في شاحنة كانت عائدة به الى أهله. وقد رجع الى برقة ثلاثة من أبنائه★، منهم واحد اشتغل ضابطاً في قوة دفاع برقة، وآخر أثري من أعمال المقاولات.

وبعد رحيل العابد تولى الصدّيق بن محمد الرضا مهمة تصريف الشؤون السنوسية في الكفرة، ولكن نظراً لوقوع مشاحنات بينه وبين الزويّة، لم يلبث أن انتقل الى واحة سيوة ثم استقر بمحافظة البحيرة في مصر. وخلفه في الكفرة السيد شمس الدين، وكان شاباً في العشرين من عمره، بالاشتراك مع أخيه الأصغر حسن، وانضم اليهما في سنة ١٩٢٩كل من صالح الأطيوش أحد كبار قبيلة المغاربة والشيخ عبد الجليل سيف النصر وأخيه أحمد من الأسرة الحاكمة بفزان آنذاك. وفي نهاية عام ١٩٣٠ قام الايطاليون بعمليات استطلاع جوي تمهيداً لاحتلال الكفرة. وقبل بدء الهجوم الايطالي بأسبوع واحد فقط، رحلت عن الكفرة زوجات السنوسيين وأطفالهم، وكانت في عدادهم فاطمة ابنة السيد أحمد الشريف. ووصلت القافلة الى سيوة سالمة في نهاية المطاف. وبالنسبة لفتاة

★ السيد عبد الله عابد، السيد الصديق عابد، السيد الطاهر عابد.

سنوسية صغيرة السن، فان قطع مفازة طولها أربعمائة ميل على ظهور الجمال عبر بحار الرمال الليبية المصرية الشاسعة لم يكن حدثاً خارقاً يدعو الى التباهي في تلك الأيام. بل ان فاطمة حتى الآن، وهي سيدة في منتهى الجرأة والصراحة، لا تقرّ بأكثر من أنها كانت رحلة «متعبة الى حد ما». وليس يؤسفها شيء سوى أن القافلة لم تستطع اجلاء كل النساء والأطفال دفعة واحدة. وبعد عام من وصولها الى مصر، اقترنت فاطمة بالسيد ادريس وعاشا معاً زوجين سعيدين منذ ذلك الوقت. (ملاحظة المحرر: بقيت فاطمة تعيش في مصر عقب وفاة السيد ادريس في عام ١٩٨٣، وهي لا زالت مقيمة هناك).

والهجوم الايطالي على الكفرة شاركت فيه ثلاثة طوابير من القوات المجهزة بالآليات وتدعمها الطائرات، وقد انطلق الزحف من جالو وزلّة ومرزق في آن واحد. وبلغ عدد القوات نحو خمسة آلاف جندي، معظمهم من الارتريين، بينما لم يكن قد بقي في الواحة غير أربعمائة رجل من السنوسيين، اذ أن عدداً من الزوية انتقلوا الى نواحي سرت قبلئذ لمساندة المقاومة البرقاوية هناك. ورغم كل ما أبدوه من بسالة في دفاعهم عن الكفرة، لم يلبث السنوسيون أن خسروا المعركة تحت وطأة التفوق الهائل الذي كان للقوات الايطالية عدداً وعدّة. ويقول أحد الناجين من موت محقق في موقعة الكفرة:

«داهمنا الايطاليون في ثلاثة طوابير من ثلاث جهات بالعربات المصفحة، فيما كانت طائراتهم تحلق على مستوى منخفض وتلقي قنابلها على البيوت والمساجد وبساتين النخيل جزافاً كما تطلق نيران المدافع الرشاشة على الناس الآمنين في البساتين والقرى. ولم يكن بيننا سوى بضعة رجال قادرين على حمل السلاح ـ فبقية السكان كانت كلها من الشيوخ والنساء والأطفال. وقاتلنا من منزل لمنزل حتى لم تبق بأيدينا في النهاية سوى قرية هواري. وكانت بنادقنا عديمة الجدوى في وجه مصفحاتهم فاكتسحونا، ولم ينج منا الا قلائل . . . وأنا اختبأت في أحد بساتين النخيل أتحين الفرص لاختراق الخطوط الايطالية، وبقيت طول الليل أسمع صراخ النساء العربيات وهن يتعرضن للاغتصاب من قبل العساكر الارتريين».

وكما ذكر شاهد العيان هذا، فانه لم ينج من تلك الهجمة الشرسة غير أفراد قلائل. وكان من بينهم السنوسي الأطيوش، الذي أصبح بعد الاستقلال قائداً للجيش الليبي ثم وزيراً للمواصلات في الحكومة الليبية، وقد أعطاني صورة حية عن المعاناة الأليمة التي كابدها الفارون من جحيم الكفرة في ذلك الوقت. وان المآسي التي تعرضت لها عائلة الأطيوش بالذات، وهي أسرة مشيخة أصيلة في قبيلة المغاربة، تعد نموذجاً لما قاسته مختلف العائلات البرقاوية البارزة عبر فترة الكفاح الطويل ضد الايطاليين. فمن الجدير



بالذكر أن الكيلاني الأطيوش، الذي عينه الوالي التركي في منصب قائمقام الكفرة سنة ١٩١٠، توفي في العام التالي مباشرة وهو في طريقه الى جالو للالتحاق بقوات المقاومة التركية ضد الغزو الايطالي. وأخوه سعيد قضى نحبه خلف أسوار معتقل ايطالي في العقيلة. ومن بني أخيه واحد شنقه الطليان في سرت. وعبد الله لقي مصرعه في معركة النوفلية، كما قتل في البريقة اثنان آخران هما علي وأحمد عبد القادر. وغير هؤلاء جميعاً قتل اثنان آخران من أولاد اخوة الكيلاني، أحدهما عبد الهادي الذي قتل في سرت سنة ١٩١٨ والآخر استشهد في معركة جرت بالقرب من اجدابيا. وكذلك فقدت هذه العائلة ما لا يقل عن أربعة آخرين ماتوا في أثناء محاولة النجاة بأرواحهم من أتون معركة الكفرة.

فعندما هاجم الايطاليون الكفرة بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٣١ رحل القائمقام صالح باشا الأطيوش بأهل بيته، وكان من بينهم السنوسي ابن أخيه وبضعة أشخاص آخرين، في قافلة من الابل اتجهوا بها أولاً صوب العوينات على حدود السودان، فبلغوها بعد ستة أيام، وهناك ملأوا قربهم بالماء وانقسموا الى فريقين، توجه أحدهما الى الشمال الشرقي نحو وادي النيل، بينما عمد الفريق الآخر الى مرقة وهي واحة صغيرة غير مأهولة تقع في ناحية الجنوب الشرقي بالسودان. ويبلغ طول هاتين المسافتين ٥٠٠ ميل و ٣٠٠ ميل على التوالي، أي مسيرة ٢٥ يوماً و ١٥ يوماً بمعدل سير الابل العادي. ولم يكن ثمة أي أثر يمكن للمسافر اقتفاؤه ولا مورد ماء في الطريق، ولا أحد يستطيع أن يتخيّل مدى خطورة رحلة كهذه ما لم يكن قد جرب اجتياز تلك المفازة القاسية على ظهر جمل. فلنتابع حكاية السنوسي الأطيوش الذي رافق عمه صالح باشا ضمن الفريق المتجه شطر مرقة:

«بعد مسيرة عدة أيام أخفقنا في الوصول الى مرقة وعرفنا أننا تائهون في الصحراء، فرجعنا أدراجنا نقصد العوينات. ولما كنا استنفدنا مؤونتنا من المياه، أصبحنا مضطرين الى نحر ناقة أو جمل كل يوم لنشرب الماء المخزون في بطون الابل. وكان كل منا يحمل في مخلاته بعض لحم الذبيحة ويأكل أثناء السير. ومع أن المسافة التي قطعناها منذ خروجنا من العوينات كانت قد استغرقت منا ثمانية أيام كاملة، فقد بلغت بنا شدة المحنة أننا في طريق العودة قطعنا نفس المسافة خلال أربعة أيام فقط، راكبين أو ماشين ليل نهار.

وفي العوينات ملأنا قرب الماء من جديد، وبعد استراحة قصيرة واصلنا السفر عامدين نهر النيل رأساً، باقتفاء آثار الفريق الآخر من جماعتنا. وعثرنا في الطرق على جثث البعض، ومن بينهم أمي وأختي واثنين من اخوتي قصفتهم طائرات الطليان أو ماتوا عطشاً. وكنا نغذ السير ليل نهار حتى وصلنا آبار كريم بعد تسعة أيام ونحن أقرب الى الموت منا الى الحياة. وهناك أسعفنا الحظ بلقاء بعثة استكشافية كان قد نظمها الأمير عمر

طوسون بقيادة ضابط بريطاني، فحملتنا معها الى واحة الخارجة ثم الى الداخلة. ومنها انتقلنا الى المنيا حيث استقر بنا المقام مع ناس من قبيلة الجوازي التي تربطنا بها صلة القرابة. ومكثنا هناك حتى سنة ١٩٤٠ وعندها التحقنا بالقوات العربية الليبية تلبية لنداء الأمير».

ان هذه الحكاية بأسلوبها المتواضع تعطينا فكرة بسيطة عما تحمله الذين استطاعوا الهروب من هجة غراتسياني الوحشية على الكفرة. وتلك الغارة البربرية لا يعاد لها شيء سوى أعمال التخريب الهمجي التي تلتها مباشرة حين عمد الايطاليون الى نسف ضريح السيد المهدي في زاوية التاج ونهب مكتبة السيد ادريس الشهيرة التي كانت تضمّ نخبة من المخطوطات العربية النفيسة مكتوبة على الرق القديم ونسخاً من القرآن مزينة بالرسوم ومؤلفات نادرة في الفلسفة والتصوف الاسلامي والشعر العربي والروحانيات. وعلاوة على ذلك كله، حولت منازل السنوسيين في التاج الى ثكنات لعسكر الطليان.

وكان احتلال الكفرة بداية مرحلة حاسمة نحو انهاء ملحمة المقاومة السنوسية ببرقة. فلدى مطلع صيف عام ١٩٣١ كانت المقاومة المنظمة في برقة أشرفت على نهايتها، ولم يبق مع عمر المختار غير قلة من الأنصار الأوفياء، فيما أخذت شباك الايطاليين تطبق عليه من كل جانب. وفي يوم ١١ سبتمبر من ذلك العام حوصر في واد ضيق يقع الى جنوب البيضاء مباشرة في قلب الجبل الأخضر. وأصيب بجرح طفيف، لكنه وقع تحت جواده. وقبل أن يستعيد توازنه، وكان قد تجاوز السبعين بكثير، أمسكه الطليان فأخذوه على متن طرّاد بحري من سوسة الى بنغازي حيث أحضروه أمام غراتسياني شخصياً. ثم أجروا له محاكمة عسكرية سريعة وشنقوه في سلوق علناً بعد خمسة أيام من وقوعه في الأسر. وقد صفّ الايطاليون في ساحة الاعدام كل شاغلي معسكر الاعتقال المجاور، كما عبأوا قطاراً خاصاً بوجهاء بنغازي وجاءوا بهم أيضاً، ليشهدوا شنق المناضل الشيخ الشجاع. وذكرى عمر المختار خالدة في قلوب الليبيين، وهو يستحق التكريم دوماً باعتباره واحداً من أعظم أبطال العرب امتاز بالشجاعة الفذة والجلد المذهل في مواجهة الموت. ورغم أنه ما كان يملك أكثر من صدق الولاء وروح المقاومة الصلبة عند حفنة من البدو تدفعها قوة العقيدة وحدها، الا أنه مع ذلك استطاع الصمود أكثر من ثمان سنوات أمام جبروت الآلة الحربية الفاشستية التي توفرت لها أحدث وسائل الفتك والدمار.

نفذت حملة غراتسياني العسكرية قوة مؤلفة من كتائب اريتيرية يساندها سلاح الفرسان والعربات المصفحة والطائرات. وكان هدف الحملة سحق المقاومة عن طريق الابادة الكاملة للقبائل البرقاوية وقطع دابر الطريقة السنوسية تماماً. فكلما رصدت طائرات



الاستطلاع موقع أحد المخيمات القبلية في برقة، كانت المصفحات الايطالية تهرع اليه فتسويه بالأرض وهي تطلق نيران رشاشاتها على أي كائن حي بلا استثناء ـ فتهلك الرجال والنساء والأطفال والحيوانات أيضاً. كما كان الايطاليون يتعاملون مع الأسرى الأحياء بشكل فوري: فالرجال يعدمون في الحال والنساء والأطفال يساقون الى معسكرات الاعتقال. وفي نفس الوقت شجعوا الجنود الاريتريين على اطلاق العنان لشهواتهم بملء المواخير التي أنشأوها لهم.

وكان من ضمن المجاهدين القلائل الذين استطاعوا الفرار من برقة الى مصر الفارس الجسور الشيخ عبد الحميد العبار الذي تمكن، مع خمسين آخرين، من قطع حاجز الأسلاك الشائكة واختراق الحدود، بينما ظل أربعة من رفاقهم البواسل بقيادة الشيخ يوسف بو رحيل المسماري يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم لصد القوات الايطالية التي كانت تحاول اللحاق بهم وقد أشاد الايطاليون أنفسهم بهذا العمل البطولي، فتضمن البلاغ الرسمي ما يلي:

«ان الشيخ يوسف ورفاقه الثلاثة أظهروا شجاعة رائعة طوال المعركة. ولما توقف اطلاق النار، تقدم الملازم بريندیزي الى موقعهم فوجد أربعة رجال موتى وأيديهم ما زالت تمسك بالبنادق الساخنة».

بعدئذ أقدمت حكومة الفاشست على اتخاذ خطوات جديدة لم تكن ترمي الى مجرد محو كل آثار الطريقة السنوسية فحسب، بل تقويض البنيان القبلي المساند لها أيضاً. ففرضت حظراً على أداء الصلوات في المساجد. ودكت الزوايا السنوسية أو حولتها لخدمة أغراض أخرى، وصادرت أراضيها، وطردت مشايخ القبائل، كما أعلنت قراراً رسمياً بالغاء التقسيمات القبلية والعشائرية كلية. وكان القصد البعيد من ذلك هو احلال الفكر الفاشستي وحس الرعويّة الايطالية في نفوس الشباب العرب الليبيين بدلاً من الولاء التقليدي للاسلام والنظام القبلي. وكذلك استهدفت سياسة الفاشست توطين أعداد كبيرة من الايطاليين في ليبيا بحيث تتركز بين أيديهم سائر الامتيازات الزراعية والصناعية والتجارية في البلاد. وهكذا، فبتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٣٨ تم دمج ليبيا «قانونياً» ضمن المملكة الايطالية ـ وأصبحت مقاطعاتها الأربع، وهي طرابلس ومصراته وبنغازي ودرنة، تعتبر «ولايات تابعة للمملكة». واستولت الدولة على أحسن الأراضي اما عن طريق المصادرة أو الشراء أو نزع الملكية بتجريد القبائل من حقوقها التقليدية التي كانت تحكم حيازة الأراضي من قبل (وبحلول عام ١٩٣٩ تم وضع اليد على ١٢١ ألف هكتار بمختلف تلك الوسائل). ثم وزعت الأراضي على أسر المزارعين الطليان من صقلية

وجنوب ايطاليا وفقاً لبرنامج استيطان سكاني واكبته حملة دعائية واسعة النطاق لما عرف باسم «مشروع استيطان برقة». وتم اسكان تلك العائلات في مستوطنات زراعية تتألف من بيوت ريفية بيضاء أنيقة وتغطى كل منها رقعة من الأرض تتراوح مساحتها بين ستة عشر وعشرين ألف متر مربع في المتوسط. وكان لكل مستوطنة مركزاً اداري واجتماعي وبها كنيسة ومدرسة ومستوصف ومكاتب للادارة. وأنشئت في برقة اثنتا عشرة مستوطنة من هذا القبيل أطلق على كل منهــا اسم ايطالي خاص بها، وقبـل نهاية عام **١٩٣٩** كانت قد استقرت فيها أكثر من ١٧٠٠ عائلة ايطالية. ولم يكن هذا المشروع قد أثبت نجاحه بعد حين اجتاحت الحرب برقة. فالمياه لم يكن تم توصيلها حتى ذلك الوقت، والمزارعون كانوا لا يزالون بحاجة الى اعانات حكومية ضخمة. الا أن المزارع الواقعة في أراضي الجبل الأخضر الأكثر خصوبة بدأت بالفعل تبشر بنتائج طيبة من حيث زراعة الكروم وانتاج الزيتون والفواكه الأخرى.

وفي نفس الـوقت فان سكان الأرياف والبوادي العرب كانوا كلهم تقريباً محتجزين بمعسكرات اعتقال هائلة، كما سبق أن رأينا. وكانت تلك المعتقلات محاطة بالأسلاك الشائكة وتقع في أماكن متفرقة بين بنغازي والعقيلة تساق اليها عائلات بأكملها سيراً على الأقدام من جميع أنحاء برقة فتحشر هي وحيواناتها معاً. وفي تقدير الزعماء البرقاويين أن نصف عدد المعتقلين على الأقل ماتوا داخل المعتقلات، بينما تدل الاحصائيات الايطالية نفسها على أن قطعانهم نقصت الى نسبة العشر من تعدادها الأصلي.

أما أهالي المدن فكانوا أحسن حظاً بالمقارنة، اذ أن من لم يشتركوا في أعمال المقاومة سمح لهم بالحصول على الجنسية الايطالية من الدرجة الثانية باعتبارهم ليبيين من رعايا ايطاليا تمييزاً لهم عن الطليان الحقيقيين (والواقع أن كثيرين من سكان المدن لم يتعاونوا مع الطليان الا مرغمين من أجل المحافظة على البقاء). وكان أبناء هؤلاء العرب يلحقون بمنظمة القمصان السود منذ سن مبكرة بقدر الامكان لتلقينهم مذهب الفاشست، ثم يجندون لأداء الخدمة العسكرية الايطالية بحيث وجدوا أنفسهم في مواجهة مع بني قومهم بالذات سواء أثناء المقاومة وفي الحرب العالمية الثانية. ومن أسوأ أشكال العسف التي تعرض لها الليبيون حرمانهم من حقهم الطبيعي الموروث في تعلم اللغة العربية وثقافتها الرفيعة، فقد كانت الايطالية هي وحدها اللغة الرسمية ولغة التعليم، وبانت نتيجة ذلك عندما تحررت ليبيا من الحكم الايطالي اثـر الحـرب العالمية الثانية، فاتضح أن جيلاً كاملاً بلغ طور الرجولة في عهد الايطاليين لم يكد يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية. بل ان ابناء ذلك



الجيل كانوا أشبه بنوع من الطليان المزيفين يعيشون على هامش الجنسية الايطالية وتتوقف حياتهم على رضا الايطاليين.

والشعب الايطالي عموماً شعب طيب ودود يعتز بحضارته وثقافته العريقة، لكن تاريخ الفاشية في ليبيا لطخ شرفه بوصمة مشينة لن يمحوها الا زمان طويل. ومع هذا فان الايطاليين لم يكونوا كلهم راضين عن سياسة الفاشست في ليبيا، كما أن الكثيرين من عامة الشعب الايطالي عاشوا مع الأهالي العرب في صحبة ووئام. وكذلك فان الايطاليين في ليبيا قاموا بعدة أعمال جيدة تستحق التنويه في بعض المجالات، مثل تخطيط المدن وتصميم وبناء العمارات والطرق والموانىء والأشغال العامة ورفع مستوى فلاحة البساتين في البلاد. وكثير من هذه الأعمال بقي الى يومنا هذا شاهداً على البراعة الفنية وروح الابداع عند أبناء الشعب الايطالي. وخلال الفترة الأخيرة من حكم الايطاليين، وعلى الأخص في عهد المارشال بالبو الأكثر استنارة من سابقيه، جرت محاولة جادة لتلافي أخطاء الفاشست الماضية بتحسين ظروف معيشة الليبيين واظهار شيء من الاحترام لمشاعرهم الدينية. فبذلت جهود للمسارعة بتوفير التعليم الثانوي لأبناء العرب، وسمح لكثيرين منهم بدخول الخدمة المدنية، بل عين منهم أيضاً عمداء لبعض البلديات. وجرى ترميم عدد من المساجد القديمة وبناء بضعة مساجد جديدة، كما تم انشاء معهد عال للدراسات الاسلامية في طرابلس. وفي برقة أقيمت للعرب قريتان زراعيتان، أطلق عليهما اسماً «فيوريتا» و«آلبا» على الساحل الجميل في منطقة رأس الهلال، مع بناء مساكن لأسر المزارعين ومدارس وجوامع. وكذلك حددت منطقة المراعي في أراضي الجبل الأخضر، حيث جرى تصليح بعض الصهاريج الرومانية القديمة وتركيب مضخات هوائية وتوفير أحواض المياه لسقي الحيوانات.

وصادفت هذه السياسة الجديدة قدراً من النجاح في طرابلس الغرب، حيث كانت الظروف السلمية قائمة منذ وقت مبكر وكان الأهالي مستفيدين من المنافع المشتركة التي وفرتها الانشاءات الايطالية. الا أن تلك المشاركة لم تكن مبنية على أساس الود بل على التبعية. فالمخطط الايطالي كان موجهاً لصالح المستوطنين الطليان أكثر مما كان يهتم بخدمة السكان العرب. أما بالنسبة لأهل برقة فان المرارة التي خلفتها في نفوسهم وحشية غراتسياني كانت أشد حدة وأحزان الناس أقرب عهداً من أن تسمح لهم بالتعاون مع النظام الفاشي. فهم انما ظلوا يتحينون الفرص تخيم عليهم التعاسة وقلوبهم طافحة بالسخط، صابرين في انتظار اللحظة المواتية للخلاص من ربقة الأجنبي البغيض.

١١

حياة السيد ادريس في مصر
ونشوب الحرب العالمية الثانية

طوال الفترة من ١٩٢٣ الى ١٩٣٩ ظل السيد ادريس يعيش حياة شديدة العزلة في مصر، وكان لا بد له من ان يبقى على حذر مستمر من مكائد الايطاليين الذين شكلوا طائفة كبيرة واسعة النفوذ في البلاط الملكي والدوائر السياسية ولم يدخروا جهداً في محاولات تشويه سمعته والاساءة اليه. وفرضت عليه الظروف أن يكون حريصاً جداً على عدم القيام بأي عمل قد يعد اخلالاً بحظر نشاطه السياسي، وهو لم يحاول أن يستغل مكانته كأمير في المنفى ولا كان المصريون يعاملونه بتلك الصفة. وانما عاش حياة عائلية هادئة في دارة صغيرة مع سكرتيره الخاص★١ واثنين من الخدم. وفيما عدا زيارة نادي الجزيرة لمزاولة رياضة التنس من حين الى حين، كان يقضي جل وقته وحيداً لا يشارك في أي نشاط سياسي أو اجتماعي. وهو كان دائم الورع والتقشف لا يدخن ولا يشرب ولا يتردد على المقاهي أو حلبات السباق أو الملاهي. وكم حاول العملاء الايطاليون ايقاعه في شراك بعض النساء بغية احراجه، لكن جميع تلك المحاولات منيت بالفشل الذريع، لأن اتجاهه الديني الصارم كان دائما ينأى به عن أي سلوك قد يوحي بالانغماس في الملذات من قريب أو بعيد. وكانت السلطات المصرية تعامله بالاحترام اللائق بمركزه الديني، وبعدما تم رفع الحظر على تنقلاته في سنة ١٩٣٠ استطاع أن يحج الى مكة. وهو لم يطلب الجنسية المصرية، وكان يعتبر فاقد الجنسية عمليا، فسمح له باستعمال جواز مرور مصري. وفي عام ١٩٣١ تزوج قريبته فاطمة★٢، بنت أحمد الشريف، وانتقل بها للاقامة في حمامات مريوط.

★١ ابراهيم الشلحي.

★٢ حضر عقد الزواج اخوي السيدة فاطمة السيد محي الدين والسيد ابراهيم، واثنان من كبار الاخوان وهما سيدي عبد القادر الزنتاني وسيدي الاخضر العيساوي. وقد كان المهر ٢٥ قرشاً مصرياً و٧ قطع من القماش ٦ منها قطنية وواحدة من القطيفة وقد خاطتها جلابيب للعروس زوجة الاخواني علي المغبوب صديق سيدي ادريس.



ولما كان المصريون يعتبرون أتباع السنوسية مجرد جماعة شديدة الفقر عديمة الأهمية لا تحمل أي وزن سياسي، فان ملك مصر وزعماءها السياسيين على السواء لم يعيروا أدنى اهتمام لصالح السيد ادريس ومستقبل شعبه. فكان صديقاه، الوحيدان من ذوي النفوذ هما عبد الستار الباسل في الفيوم وعبد الله لملوم باشا في أسيوط. ومع الوقت تجمع بمصر عدد غير قليل من اللاجئين الليبيين كانوا في حالة فقر مدقع يحتالون على العيش كخفراء أو عمال مياومة في الفيوم وأسيوط. ويذكر مقيم بريطاني أحاط بأحوال السنوسيين في ذلك الوقت:

«لم يصادفني من السنوسيين أي واحد يملك أية وسيلة للعيش اطلاقاً، بل كانوا معدمين كلهم يعيشون على مجرد الكفاف. وحتى السيد ادريس نفسه كان دائماً يعاني من ضيق ذات اليد، فيما بقيت أملاكه المتواضعة مثقلة بالرهون».

ولكن على الرغم من تلك الظروف البائسة والحياة المغمورة فان السيد ادريس وغيره من اللاجئين الليبيين لم يقطعوا الأمل في العودة الى بلادهم في آخر المطاف. وقد أصبحت بريطانيا محط آمالهم في الخلاص، اذ رأوا أن غطرسة الفاشست لا بد أن تقحم ايطاليا عاجلاً أو آجلا في صدام مع الدول الديمقراطية الحرة، فأخذوا يترقبون بفارغ الصبر أية بوادر تشير الى قرب تفجر الصراع المحتوم. ومن ذلك مثلاً رد الفعل الذي أثاره العدوان الايطالي على اثيوبيا في عام ١٩٣٦، مما أدى الى استقالة وزير الخارجية ايدن ووضع بريطانيا على شفا الحرب مع ايطاليا. فغزو اثيوبيا أيقظ غرور الفاشست حتى بدا لهم، بعد توقيع اتفاقية المحور، أن الشمال الأفريقي كله بات في متناول أيديهم. وفي سنة ١٩٣٩ زار المارشال بالبو القاهرة في محاولة فاشلة لاقناع المصريين بفسخ المعاهدة القائمة بينهم وبين بريطانيا. ومن ثم صار المسرح مهيأ للحرب.

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة عقد في الاسكندرية اجتماع ضم أعيان المغتربين الليبيين لبحث خطة العمل المناسب في حالة قيام تحالف بين ايطاليا وألمانيا. وأصدروا قرارات أخطروا بها كلا من رئيس الوزراء المصري والسفير البريطاني في القاهرة، مؤكدين فيها أن برقة ما زالت تعترف بالسيد ادريس أميراً عليها، كما أن الدعوة التي وجهت اليه من طرابلس الغرب لتولي امارتها منذ عام ١٩٢١ لم تزل سارية المفعول أيضاً. وكذلك فوضوا اليه، بصفته أميراً لعموم ليبيا، أن ينوب عنهم في مختلف الأمور. ونعود الى متابعة حديث السيد ادريس في هذا الصدد:

«عندما أعلنت ايطاليا الحرب على بريطانيا بتاريخ ١٠ يونيه ١٩٤٠ اتصل بي في مقر اقامتي بمنطقة الحمام الجنرال ويلسون، آمر القوات البريطانية في مصر تحت قيادة الجنرال

ويفل، وطلب مني المساعدة في المجهود الحربي ضد الايطاليين. فدعوت الزعماء الليبيين الى عقد اجتماع بالقاهرة خلال شهر أغسطس لمناقشة الاجراء الذي ينبغي لنا اتخاذه لتحديد موقفنا من الحرب. ولم يبد البرقاويون أي اعتراض على انتهاز الفرصة لاستئناف الجهاد ضد الطليان، باعتبار أنه لا يمكن أن يعود علينا الا بالكسب، فنحن لن نخسر أكثر مما خسرنا على اي حال. ولكن موقف الطرابلسيين كان أكثر حرجاً بسبب الخوف من أن تنتهي الحرب بانتصار دول المحور فيأخذ عليهم الطليان انهم حَاربوا في صفوف الأعداء. وكنت شخصياً على يقين كامل من أن النصر النهائي سوف يكون من نصيب الحلفاء، لأيماني بحتمية انتصار الحرية على الطغيان. وعملت جهدي لاقناع الحاضرين بأن يضعوا ثقتهم في قدرة بريطانيا بحيث نوحد كلمتنا على مساندتها في الحرب.

وجاء قرار الأغلبية (باستثناء بعض الطرابلسيين) معبراً عن الثقة في الحكومة البريطانية، والاعتراف بي مفوضا عن الليبيين في علاقاتهم مع بريطانيا، والاتفاق على انشاء جيش ليبي يسمى «القوة العربية الليبية» للقتال الى جانب القوات البريطانية ضد الايطاليين. فأصدرت تعليمات فورية بالبدء في تجنيد جيش من بين الليبيين المقيمين بمصر. وعين قائدا للجيش ضابط بريطاني برتبة كولونيل (أي عقيد) يدعى بروميلو سبق له العمل في خدمة القوات العربية العراقية، بينما أقيم مركز القيادة بفندق سميراميس في القاهرة. وكان ضابط الاتصال الكولونيل آندرسون من خيرة المتخصصين في الدراسات العربية، وقد أمضى في مصر فترة من الوقت. فخبرته بالشؤون المحلية ساعدت كثيراً في تسهيل انشاء الجيش. (والمقصود هنا هو جي. ن. د. آندرسون الذي أصبح فيما بعد أستاذا لمادة الفقه الاسلامي بجامعة لندن). وكان مكتبي في شارع بركات ومحل سكنى شقة بالدور الأرضي في مبنى من طابقين بشارع حشمت باشا في حي الزمالك، حيث جاورتني في الطابق العلوي أسرة بريطانية.

والقوة العربية الليبية تكونت في معظمها من البرقاويين اللاجئين بمصر، ومن ضمنهم بعض المجاهدين الذين فروا بعد اشتراكهم في مقاومة الايطاليين. ولم يلبث الجيش أن وصل الى قوة قوامها أربع كتائب قتالية وكتيبة أركان. وكان مستودع السلاح والذخيرة ومعسكر التدريب يقع عند الكيلو تسعة بجوار الأهرام. واستغرقني العمل في الاشراف على تجنيد المتطوعين ومعالجة المشاكل العديدة المتعلقة برفع مستوى القدرة القتالية للجيش الذي كان على أحر من الجمر لخوض المعركة. وبعد أول هزيمة لحقت بجيش غراتسياني قرب سيدي براني في ديسمبر ١٩٤٠ وقع في الاسر الآف الليبيين المجندين بالجيش الايطالي ونقلوا الى معسكرات أسرى الحرب في منطقة قنال السويس. فأخذت أتردد على



تلك المعسكرات لمحاولة اقناعهم بالانضمام الى القوة العربية الليبية، وامتنع أغلب الطرابلسيين خوفا من تعريض عائلاتهم لانتقام الطليان من جهة ولأنهم من جهة أخرى كانوا سعداء بمجرد الخروج من خضم الحرب. وفي الوقت نفسه كانت وحدات الجيش الليبي الناشىء ترسل الى خطوط القتال أولا بأول حالما ينتهي تدريبها. ومنها كتيبتان شاركتا في معركة الدفاع عن طبرق سنة ١٩٤١».

ولعله ينبغي الايضاح هنا بأن بريطانيا، في تعاملها مع السنوسيين أثناء الحرب العالمية الثانية، لم تلجأ الى محاولة كسب تأييدهم عن طريق التلويح بأية اغراءات مادية. وانما تقدموا بدعمهم لها طواعية وعن طيبة خاطر عسى ان يساعدهم ذلك في الحاق الهزيمة بالايطاليين ونيل حرية بلادهم. وثمة ضابط اتصال بريطاني كان مكلفا بتنسيق التعاون مع السيد ادريس في تلك الفترة، علق على هذا الموضوع بقوله:

«خصصت للسيد ادريس نفقات قدرها ١٢٠٠ جنيه استرليني سنوياً بالاضافة الى تأجير شقة في الزمالك بمبلغ ٣٦٠ جنيها في السنة، وهم كانوا جميعا فقراء الى أقصى حد. وثبت منذ البداية أن السيد ادريس حليف قوي يمكن الاعتماد عليه، ومن خلال تعاملي الشخصي معه لمست فيه دائماً صفات التعقل وحسن الادراك والصراحة والنزاهة بالثقة الكاملة».

وفيما كان مصير الحرب يتأرجح بين كر وفر عبر الصحراء طوال تلك الفترة الحافلة بالأحداث، قدم البرقاويون بقيادة السيد ادريس كل ما عندهم لدعم الصف البريطاني. فالى جانب الدور البارز الذي قامت به القوة العربية الليبية في حرب الصحراء، كان الأهالي المدنيون أيضا يقدمون للجيش البريطاني مساعدات جريئة وهو يواصلون حياتهم العادية بقدر المستطاع بعد أن تحولت بلادهم كلها الى ميدان قتال هائل مزروع بالألغام. وكثيرون من الجنود البريطانيين والفارين من الأسر آوتهم قبائل برقة، فكان لها كل الفضل في انقاذهم من غائلة الجوع والموت في العراء، بل انها قامت حتى بتوصيلهم الى مواقع وحداتهم التي ضلوا طريق العودة اليها في بعض الأحيان، مع ان تلك الأعمال كلها انطوت على مخاطر جسيمة بالنسبة للأهالي. وذلك أن معاملة الايطاليين كانت شديدة القسوة تجاه من يعتبرونه متعاونا مع العدو. وكان هذا التعاون عظيم الأهمية والفائدة للوحدات البريطانية العاملة خلف خطوط الأعداء، مثل مفرزة العمليات الصحراوية البعيدة المدى التي كانت تغير على المواقع الامامية للايطاليين في الصحراء الليبية، ومثل قوة بنياكوف لحرب العصابات التي اشتهرت باسم «جيش بويسكي الخصوصي».

وقد اعترفت الحكومة البريطانية رسمياً بأهمية المساعدات التي قدمها السنوسيون أثناء الحرب، وذلك حين نوه بها وزير الخارجية ايدن في تصريح أدلى به أمام مجلس العموم البريطاني بتاريخ ٨ يناير ١٩٤٢، وفيما يلي نصه:

«اتصل السيد ادريس السنوسي بالسلطات البريطانية في مصر قبل مضي شهر واحد على سقوط فرنسا، بينما كان موقفنا في أفريقيا متأزماً للغاية. وبعدئذ تم انشاء قوة سنوسية من بين أنصاره الذين فروا من الاضطهاد الايطالي في فترات مختلفة خلال العشرين سنة الماضية. وهـذه القوة أدت عدة مهام جديرة بالاعتبار أثناء المعارك الظافرة التي دارت بالصحراء الغربية في شتاء عام ١٩٤٠- ٤١، كما أنها تقوم بدور فعّال أيضاً في سياق الحملة الجارية حالياً.

وأود أن أنتهز هذه الفرصة للتعبير عن مشاعر التقدير الحار التي تحملها حكومة صاحب الجلالة للمساهمة التي قدمها ويقدمها السيد ادريس السنوسي وأنصاره دعماً للمجهود الحربي البريطاني. ونحن نرحب باشتراكهم مع قوات صاحب الجلالة في مهمة دحر العدو المشترك. **وان حكومة صاحب الجلالة لمصممة على ألا يعود السنوسيون في برقة بأي حال من الأحوال للوقوع تحت السيطرة الايطالية مرة أخرى لدى انتهاء الحرب**».

ومع أن هذا البيان لم يتضمن (ولا كان بوسعه أن يقدم) أي وعد باستقلال برقة، الا أن البرقـاويين قابلوه بالترحيب والحماس البالغ، فصار عندهم بمثابة اعلان الحقوق، واستغلوه الى أقصى حد أثناء مفاوضاتهم اللاحقة بشأن شكل الدولة الليبية مستقبلاً.

ولكن الآمال التي أنعشها في نفوس الليبيين تصريح ايدن لم تلبث أن انتكست خلال الأشهر التالية نتيجة لحدوث نوع من التغير المباغت الذي يطرأ على سير الحروب عادة. ففي عدة معارك ضارية دارت رحاها بشرقي برقة في أوائل صيف عام ١٩٤٢، أحرز رومـل سلسلة من الانتصارات الباهرة على القوات البريطانية مكنته من الاستيلاء على طبرق والتوغل في مصر حتى وصل الى نقطة على الساحل لا تبعد عن الاسكندرية غير ستين ميلا فقط. فبدا الطريق مفتوحاً على مصراعيه امام قوات المحور لاحتلال مصر، وطار موسوليني من روما الى بلدة القبة في الجبل الأخضر ببرقة وهو على أتم الاستعداد لقيادة جيوشه المظفرة والزحف بها على القاهرة راكباً حصاناً أبيض. وهذا التحول المفاجىء في مجرى الأحداث أثار موجة من الذعر في مصر حتى أن القيادة البريطانية أخذت تعد العدة لاخلاء المنطقة من الأهالي، اذ كان عليها ألا تستبعد امكانية الانسحاب من مصر

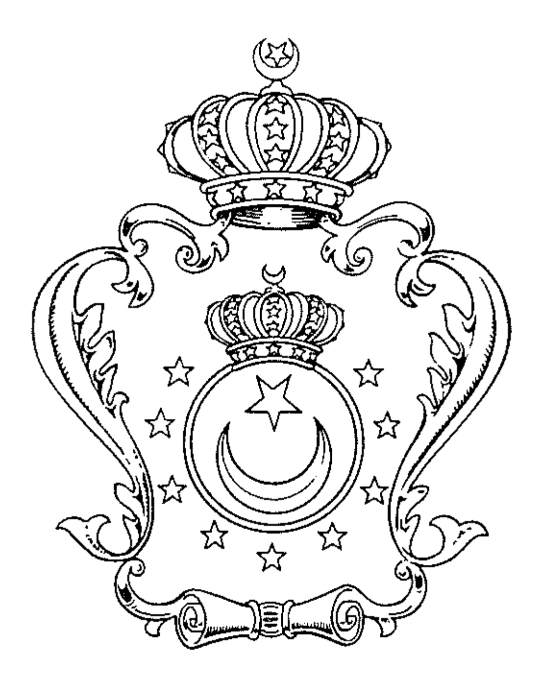


السفلى. وكان ممن جرى ترحيلهم في تلك الأثناء جملة الزعماء الليبيين الذين أيدوا الحلفاء، وعلى رأسهم السيد ادريس الذي أقنع بالذهاب الى القدس بدلاً من السعودية لأن الملك ابن سعود لم ترق له كثيرا فكرة انتقاله الى هناك، وذلك فيما يبدو بسبب بعض الموانع المذهبية من جانب الزعماء الوهابيين. وفي نفس الوقت نقل المدنيون الليبيون الآخرون الى فلسطين والسودان حيث بقوا الى ما بعد معركة العلمين، وكان من حسن حظ الحلفاء أن القوات الجوية البريطانية لم تهزم، بل استطاعت بشن غاراتها المتواصلة ايقاف رومل في ثغرة ضيقة بين منخفض القطارة وبين البحر، مما اتاح للقوات البرية فرصة استرداد أنفاسها ثم العودة الى مواجهة الفيلق الأفريقي المنتصر فأوقفته عند حده. ولدى منتصف أغسطس ١٩٤٢ كان رومل قد كف عن الهجوم، بينما أعاد الجيش الثامن البريطاني تنظيم صفوفه وتكثيف قواته حتى أصبح من حيث التفوق الحربي وارتفاع الروح المعنوية مستعدا لاستئناف عملياته الهجومية من جديد. وبتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ هجم الجنرال مونتجمري على المواقع الألمانية في العلمين بكل ما يملك من قوة، وبعد قتال شرس دام اثنى عشر يوما هزمت قوات المحور هزيمة ساحقة وتقهقرت فلولها عبر صحراء برقة. فذهبت الى غير رجعة هذه المرة.

بدأ موسم الامطار مبكراً في شتاء سنة ١٩٤٢- ٤٣. وفي شهر نوفمبر، حين كان الجيش الثامن يواصل تقدمه عبر أراضي برقة تحت سمائها المكفهرة صادفته مشاهد الفوضى والخراب في كل مكان. وكان الايطاليون قد أخلوا البلاد من جميع مواطنيهم المدنيين البالغ عددهم آنذاك نحو أربعين أو خمسين ألف نسمة. فغدت مدينة طبرق شبه خالية من الحياة تماماً، وقد تهدمت كل مبانيها تقريباً وغص الميناء الواسع بحطام مائة وثلاثين سفينة غارقة. وبدت آثار القصف الجوي في ما خلفته القنابل من دمار شامل في البردى ودرنه وفي بنغازي بوجه خاص، حتى أن كثيرين من سكانها لاذوا بالتلال والأغوار خارج المدن. وكانت سفوح المنحدرات التي تناثرت فوق أرضها بقايا الدبابات والشاحنات المحترقة أشبه بحقل ألغام هائل لا أول له ولا آخر، فكانت سيارات الجيش عرضة لخطر الهلاك في أي لحظة اذا حادت عن الطريق العام. وقد تعطلت الخدمات العامة كالكهرباء والمياه والمرافق الصحية، لأن قوات العدو قبل انسحابها من بنغازي دمرت محطة توليد الكهرباء ونسفت سدود الميناء كما عمدت الى تلويث المياه بتحويل قنواتها للمرور في مجاري المدينة. وبقية المباني القليلة القائمة على جانبي الطريق كانت معبأة بالشراك القاتلة والمتفجرات المخبؤة في كل ركن منها. أما في منطقة الجبل الأخضر، وهي لم تشهد كثيرا من معارك الحرب، فان الأضرار المادية كانت أخف وطأة، غير أن بيوت المزارع البيضاء الجميلة التي هجرها

ساكنوها الطليان بدت موحشة وخاوية. ولم يعد حول القرى سوى القليل من الزراعة، بينما لم يبق أي أثر على الاطلاق للحرف أو التجارة. فمظاهر الحياة العادية قضى عليها بالكامل.

وعند بداية شهر ديسمبر أصبحت برقة كلها خالية من قوات المحور المهزومة. وبتاريخ ٢٣ يناير دخل الجيش الثامن طرابلس فيما احتل الفرنسيون فزان في نفس الوقت، وتداعت أحلام ايطاليا في بناء امبراطورية أفريقية.



١٢

برقة تحت الحكم البريطاني

المرحلة الأولى: ١٩٤٢-٤٥

طوال السنوات التسع اللاحقة تولت بريطانيا، بموجب ميثاق لاهاي، مسؤولية حكم برقة (وبقية المستعمرات الايطالية) باعتبارها احدى المناطق المحتلة من العدو. وكان الوضع في برقة خارجا عن المألوف من حيث أن الدولة ذات السيادة الاسمية، وهي ايطاليا، تخلت عن البلاد تماما. فالجيش والشرطة وموظف الحكومة والمستوطنون فروا كلهم على السواء عند مقدم الجيش الثامن البريطاني في نوفمبر ١٩٤٢. ولم يبق أحد من المسؤولين المدنيين الايطاليين، فاستمرت الأجهزة الادارية والقضائية تعمل تحت اشراف الجيش البريطاني. ثم ان الفارق الجوهري بين برقة وغيرها من المستعمرات الايطالية هو أن أهل برقة لم يحاربوا مع الايطاليين، بل انهم على العكس من ذلك تماما انحازوا الى صف القوات البريطانية بقدر المستطاع. وهم كحلفاء لبريطانيا أثناء الحرب صاروا يتوقعون منها معاملة خاصة على اعتبار أنهم لم يساعدوا الايطاليين ضدها بتاتاً. ولهذا أصيبوا بخيبة أمل مريرة لما اكتشفوا ان أحكام معاهدة لاهاي قد ألزمت بريطانيا باحترام حق السيادة الايطالية القائمة ضمنا وعدم اتخاذ أي اجراء دستوري من شأنه أن يؤثر في وضع البلاد مستقبلاً.

وهذا أدى الى احراج موقف السيد ادريس بوجه خاص. فهو كان من نفاذ البصيرة السياسية بحيث رأى أن فكرة العودة للاقامة في برقة قبل تحقيق شروطه بالذات من شأنها أن تضعف حجته في المطالبة بالاستقلال المبكر، اذ يبدو وكأنه قد أخضع نفسه لحكم دولة أجنبية وتنكر للمبادىء الأساسية التي كافح البرقاويون من أجلها طيلة ثلاثين عاماً. فلما دعاه البريطانيون الى العودة للاستقرار في برقة، وهم مستعدين لأن يغدقوا عليه كل مظاهر الشرف والتكريم دون الاعتراف به حاكماً للبلاد، رفض بأسلوب مهذب وحازم على أساس أن عودته في تلك الظروف، طالما ليس بالامكان تحديد موقفه على نحو واضح، سوف تسيء الى سمعته شخصيا وربما تحرج الادارة العسكرية كذلك. وقد انتقد البعض



هذا الموقف الذي اتخذه السيد بدعوى انه كان موقفاً سلبياً تجاه الادارة البريطانية، ولكن هذه نظرة خاطئة. فالواقع أن موقفه ظل ثابتا تماما منذ البداية، وهو التمسك باستقلال ليبيا في شؤونها الداخلية وضرورة الاعتراف بحاكم مسلم كرئيس لحكومتها في أقرب وقت.

وخلال السنوات الخمس أو الست الأولى من عهد الاحتلال البريطاني بقي السيد في مصر بينما أخذ يتردد على برقة زائرا في فترات متباعدة، وكان شغله الشاغل هو العمل الدؤوب على اعادة اللاجئين الليبيين الى أرض الوطن، ومنهم حوالي عشرين ألف مهاجر رجعوا من مصر والسودان وفلسطين أثناء الأشهر التالية لمعركة العلمين مباشرة. وطوال تلك الفترة ظل يحكم علاقاته بالبريطانيين منتهى حسن النية والاعتدال من جانبه، فهو لم يمتنع عن توجيه اللوم اليهم لعدم استجابتهم لمطلبه الملح بتقديم بعض الضمانات لاستقلال البلاد، وانما كان أيضاً يوصي أتباعه بطول الأناة وضبط النفس واستمرار التعاون مع الادارة البريطانية. كما أنه لم يقحم نفسه في أي من الدسائس المتواصلة التي كانت تغذيها بعض العناصر المناوئة للسياسة البريطانية في مصر. وهو، اذ أوقف حياته على تحقيق أهداف الكفاح الليبي ضد الاستعمار، كان في نفس الوقت من أبرز المدافعين عن استقلال العرب كافة ومن أقوى دعاة الوحدة العربية الشاملة. لم يكن يؤمن بوجود الحواجز المصطنعة بين أمة يربطها تراث واحد من الدين واللغة والأصول العرقية، غير أنه من ناحية أخرى كان لا يوافق على اتباع أساليب التهديد والاغتيال والتخريب تحت ذريعة «النضال ضد الامبريالية» لأن هذه الأساليب تخالف التعاليم الاسلامية وينفر منها رجل الدين والسلام. وكان أيضاً لا يقر قيام فئة من الناس في أحد أجزاء العالم العربي بمحاولة فرش سيطرتها على بقية أجزائه، لأن مثل تلك الأطماع انما تخلق أجواء التنافر والقلاقل، فهي لا يمكن ان تخدم قضية الوحدة العربية.

وبسبب نواياه الطيبة تجاه البريطانيين أثار السيد حنق البعض من غلاة المتطرفين العرب، فاتهموه بأنه مجرد ألعوبة في يد الانجليز. فهو كان دائما من أشد الناس تصلبا في نصرته لحرية العرب جميعا ومن أكثرهم صراحة في دعوته الى الاستقلال الناجز عن الحكم الأجنبي. وعندما توصل زعماء القبائل الى اقامة جبهة وطنية بموافقة السيد ادريس لتمثيل القضية البرقاوية في المحافل الدولية، منعها السيد من التعامل مع السلطات البريطانية رسميا لئلا ينقص ذلك من نزاهتها كهيئة وطنية صرفة. ولذا خلت عضوية الجبهة من أي برقاوي من موظفى الادارة العسكرية البريطانية.

وكان هدف الادارة العسكرية أثناء الفترة التي أعقبت معركة انتصار الحلفاء في العلمين هو توفير مناخ من الطمأنينة والأمن كي تستطيع البلاد تسوية امورها الداخلية، مع بذل كافة الجهود الممكنة لاعادة الخدمات العامة الى ما كانت عليه وزيادة الانتاج الغذائي. فسرى بين الأهالي شعور بالتفاؤل والحيوية المتجددة والود الملحوظ تجاه أبناء الجيش الذي حرر البلاد. ورغم قسوة الفقر، استبشر عرب برقة بمزايا الحرية الوليدة التي مكنتهم من استرجاع أساليب الحياة المألوفة لديهم فيها التأم شمل العائلات بعد تمزقها، وتزايدت قطعان المواشي، وعادت الأراضي السليبة الى أصحابها، وبدأ الناس يمارسون حقهم كاملا في حرية التعبير وفي حرية الرأي بعد حرمان طويل.

وعملا بسياسة التقشف التي يتحتم على الادارة العسكرية أن تتقيد بها في جميع الظروف، لم يكن مسموحاً باقامة مشروعات جديدة. وكانت قلة الاموال المتوفرة تعني أن الادارة لن تستطيع الانفاق الا في أضيق الحدود على أية حال. فحتى تموين الأهالي كان مهمة صعبة، خصوصا وأن موارد البلاد أهدرت الى درجة خطيرة ابان العهد الايطالي، كما أن أهوال الحرب أدت الى نقص فظيع في مستوى الانتاج الزراعي بالمناطق المحدودة التي بقيت للمواطنين العرب. ورغم كل اشكال التطور الخارجي المتمثل في وجود الطرق العامة والمجمعات الحكومية وبيوت المزارعين، وما الى ذلك، فالواقع أن برقة كانت دمرتها الحرب وكان أغلب سكانها في غاية الفقر.

وكانت المهمة العاجلة هي انشاء تنظيم اداري لسد الفراغ الذي تركه الجلاء الايطالي من هذه الناحية. وقد أسندت وظائف الادارة الى مجموعة من الضباط البريطانيين برياسة ضابط سياسي قدير جداً كان يعمل في السودان، وهو البريجادير (العميد) دنكان كمنج، كما تم تعيين مساعدين ليبيين ممن كانوا في خدمة القوة العربية الليبية أو اكتسبوا قدراً من الخبرة في أيام الطليان وهذا الجهاز الحكومي لم يكن كبيراً، بل ان عدد موظفيه في المراحل المبكرة لم يكد يتجاوز مائة ضابط بريطاني واثني عشر شخصاً من الموظفين المحليين. ومع أن بعض الضباط البريطانيين كانوا يملكون خبرة سابقة في ادارة شؤون المستعمرات، الا أن أغلبهم كانوا مجرد ضباط عسكريين عاديين نقلوا من وحداتهم لهذا الغرض. وكان من بين الموظفين الوطنيين رجال من أمثال حسين مازق وعبد السلام بسيكري ومحمود بوقويطين والسنوسي الاطيوش وعلي الجربي الذين وصلوا فيما بعد الى مناصب رفيعة في حكومة ليبيا المستقلة.

وهذه القلة من الضباط الانجليز الشبان، بسلوكها الودي ولباس الكاكي البسيط، بدت على نقيض واضح من تعقيدات ذلك الجيش الجرار من الموظفين الاداريين الذين



بلغ عددهم خمسة عشر الفاً في العهد الايطالي. وكان أولئك الضباط يذرعون المناطق الريفية بشاحنات عسكرية بالية، حيث يقومون بتوزيع الأغذية والمؤن ومساعدة سكان البادية والحضر على السواء في اعادة بناء حياتهم من جديد وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم الخاصة. وفي تلك الفترة كان البريطانيون في أمس الحاجة الى صفائح البنزين الفارغة (التي خلفها الألمان بكميات كبيرة أثناء انسحابهم) وذلك لغرض استعمالها في نقل المياه التي كانت تشحن باستمرار من نهاية خط السكة الحديدية في طبرق الى مواقع الجيش الثامن وهو ما زال يقاتل في تونس آنذاك. فأخذوا يشجعون الأهالي على جمع تلك الأوعية باعطائهم حصة اضافية من السكر مقابل كل ست صفائح يأتون بها.

والى جانب صرف المواد الغذائية (التي كانت ترد من مخازن الجيش البريطاني في مصر) ظهرت ثمة مشكلة خطيرة وهي كثرة الاصابات من جراء وجود الألغام والمتفجرات التي خلفتها جيوش الأعداء قبل خروجها من البلاد. وللتغلب على هذه المشكلة وارتفاع نسبة المرض بين الليبيين عموماً، كان لا بد أولاً من اعادة فتح المستشفيات المدنية الأربعة التي كانت للايطاليين في بنغازي ودرنة والمرج ومسة. فأصبحت تعالج فيها حالات تفشي الأمراض المتكررة مثل الجدري والحمى الراجعة ونسبة عالية جدا من المصابين بالتدرن والتراخوما، وكذلك ارتفاع معدلات الاصابة بالأمراض التناسلية التي قدرت بنسبة ٢٥٪ من مرض السيلان و ١٧٪ من الزهري – واعتبرت سببا مباشرا في انتشار حالات العقم وزيادة نسبة الوفيات بين الأطفال. وكان هناك نقص كبير في عدد الأطباء، ولكن الممرضات الايطاليات كن يقدمن خدمات طبية ممتازة. ولم يكن قد بقى من الطليان غيرهن وبعض القساوسة. وقد تحملن العبء الأكبر في عمل المستشفيات طوال فترة الادارة العسكرية.

وكانت المرافق العامة من شبكات توزيع الكهرباء والمياه والمجاري قد دمرت عن آخرها، فلم يعد بالامكان اصلاحها الا على مراحل بطيئة مع استعمال بدائل مؤقتة. وقد انهارت معظم المباني فتحولت الى مجرد أكداس من الأنقاض تغص بالجرذان، بينما ظلت رائحة الموت والعفونة تخيم عليها شهوراً طويلة. وحتى لو توفرت المواد اللازمة والفنيون لما كان في المستطاع اعادة مواسير المياه والمجاري الرئيسية الى حالتها الأولى، لأنها خربت على نحو متعمد ولم يعثر على أية خرائط توضح تصميمها الأصلي.

أما أعمال حفظ الأمن فهي لحسن الحظ بقيت خالية من المتاعب. وقد تولت أمرها القوة العربية الليبية بسرعة وكفاءة بعدما تم تحويلها لهذا الغرض الى جهاز للأمن يعرف باسم قوة دفاع برقة. وامتاز جهاز الشرطة هذا بالاخلاص وجودة التدريب، فكان سنداً مهماً

للادارة. ومما يشهد بمدى كفاءته أن معدل وقوع الجريمة في البلاد ظل منخفضا جدا طيلة عهد الادارة البريطانية، وذلك على الرغم من وجود كمية هائلة من الأسلحة والذخيرة في حوزة المدنيين ممن عثروا عليها بين مخلفات الحرب في ميادين القتال. وكانت الادارة اتخذت موقفا حكيما، فهي لم تحاول تجريد المواطنين من السلاح، مراعاة منها لاعتزاز البدوي بامتلاك سلاحه.

ومن العوامل الرئيسية التي ساعدت على اعادة ظروف الحياة العادية الى المنطقة قلة عدد سكانها نسبياً. وهي لم تكن كثيرة السكان في أي وقت نظرا لشدة الجفاف في الدواخل وندرة سقوط الامطار، ثم ان عدد الأهالي انخفض الى حد بعيد جداً تحت حكم الايطاليين، كما سبق أن ذكرنا. فالمدن كانت مأهولة بالايطاليين غالباً، والقبائل جردت من أراضيها عنوة وشردت. وكان الضابط البريطاني المعروف ئي. ئي. ايفانس بريتشارد، الذي أصبح فيما بعد أستاذاً لعلم السلالات البشرية في جامعة أكسفورد، قد تجول بمختلف أنحاء المنطقة في بداية عهد الادارة فقدر عدد البدو وسكان الواحات بنحو مائة وخمسين الف نسمة. ويمكن أن يضاف الى هذا العدد حوالي ثلاثين ألفاً آخرين في أربع أو خمس مدن وقرى كانت وحدها آهلة بالسكان. وهكذا فان ضآلة عدد السكان سهلت كثيراً من مهمة توفير الأغذية الضرورية أثناء المراحل الأولى حين كانت الموارد المحلية شبه معدومة تماماً. ومن الحقائق الهامة الجديرة بالذكر في هذا المجال ان تعداد الجيش الايطالي في برقة عند بداية حرب ١٩٣٩ - ٤٥ كان حتماً يفوق عدد السكان العرب بنسبة مرتين ونصف تقريباً.

كانت زيارة السيد ادريس لبرقة في شهر يوليه ١٩٤٤ حدثا عظيم الأهمية بعد اثنين وعشرين عاما عاشها في المنفى. وقد استقبلته البلاد استقبالاً صاخباً ألقى بعض الأضواء المهمة على طبيعة الاتجاهات السياسية السائدة بين المواطنين آنذاك. فقبائل البادية عبرت عن مشاعر التبجيل والاكبار التي تحملها له كرئيس للطريقة السنوسية وقائد للجهاد ضد الايطاليين، بينما كان شباب المدن ممن ترعرعوا في أحضان الحكم الايطالي يتبعون ما علق بذاكرتهم من مراسم احتفالات الفاشست المعتادة بعد تحويرها بحسب المناسبة الجديدة. وكانت المدن والأرياف معاً تهتف بنفس شعارات القومية العربية، مما يدل على بداية تأثير الأعداد الكبيرة من اللاجئين العائدين لتوهم من مصر وغيرها من البلدان العربية الأخرى. أما السيد نفسه فكان يخطب في الحشود الضخمة التي جاءت للترحيب به، داعيا اياها الى التمسك بالوحدة ومراعاة السلوك القويم وسمو الخلق ومساعدة الادارة العسكرية في خدمة الأهالي. وقد أعرب عن اعجابه الشديد بالتقدم الملموس نحو تحقيق



قدر من الرخاء في البلاد وايجاد جو من التفاهم العفوي بين الضباط البريطانيين وبين أفراد الشعب، فالعميد كمنج وحفنة معاونيه من الضباط البريطانيين قاموا بعمل رائع حقاً، وهو كان ادارياً من الطراز الأول ورجلاً ذا بصيرة وهمة عالية وقد فعل الكثير لتمكين الأهالي من ادارة شؤونهم بأنفسهم فاكتسب سمعته الأسطورية في برقة عن جدارة.

١٣
برقة تحت الحكم البريطاني
المرحلة الثانية: ١٩٤٦-٤٨

بدأ هطول الأمطار مبكراً في شتاء سنة ١٩٤٦ - ٤٧، فكانت السماء فوق منحدرات الأبيار ملبدة بغيوم كثيفة تنذر بالمطر الغزير لدى نزولي بمهبط الطائرات في بنينة، قادماً لاستلام مهام عملي الجديد بالادارة البريطانية في أصيل أحد أيام ديسمبر. وكانت ريح باردة تهب عبر رتابة الطريق الممتد اثنى عشر ميلاً في السهل الفاصل بين المطار والمدينة. ولم يكن يبدو ثمة ما يدل على الحياة سوى بضعة قطعان من الأغنام التف حول بعضها احتماءاً من برد الرذاذ، فيما كان الرعاة المتلفعون بالشيلان يسوقونها بلا مبالاة نحو حظائرها المقامة في العراء عند مضارب الخيام بنجوع البدو المتفرقة في الأرياف هنا وهناك. ومن ضاحية الحدائق بالفويهات كانت الأضواء تبدو متألقة على طول السور المحيط بمعسكر اسرى الحرب، اما في داخل المدينة نفسها فكانت الشوارع مظلمة خالية من المارة.

وكانت السنوات الأربع التي مضت على قيام الادارة العسكرية البريطانية قد عادت بالمنطقة، رغم كل الصعاب، الى ما يشبه الحياة الطبيعية. غير أن حالة التقشف والارتجال ما برحت تشكل محور الحياة والحكم في البلاد حتى ذلك الحين. فمدينة بنغازي كانت لا تزال مشوهة مليئة بالخرائب، وقد تهدمت فيها أغلب المباني الايطالية السابقة. لكن جدران المباني المتبقية فيها خلت من شعارات الفاشست التي ظهرت في مكانها صور غامقة الخطوط تمثل معالم وجه السيد ادريس، بنظارته المألوفة، وقد تجلى في ملامحه وقار شخصية الزعيم السنوسي العظيم. أما المستوطنون الطليان السابقون فهم لم يحاولوا الرجوع الى برقة مرة أخرى، ولم يعد لهم مكان في هذا البلد حيث ظل مجرد ذكر ايطاليا مرادفا لاثارة البغض والكراهية. وبما أنه لم يكن قد تم عقد معاهدة للصلح حتى ذلك الوقت، فلا أحد كان يدري على وجه الضبط ما هو مصير ممتلكات الايطاليين السابقة بعدما تخلى عنها أصحابها بتلك الكيفية الحاسمة. فبقيت على حالها اكداساً من الأنقاض المهملة، في شهادة محزنة على ما تجره الحرب من أهوال الخراب والدمار. وحتى المباني القليلة التي نجت من السقوط



كان يهزها دوي انفجارات عنيفة من حين لآخر، كلما غامر بالدخول اليها فضولي غافل فتسبب بطريق الصدفة في تفجير احدى القنابل أو الألغام غير المعطلة من مخلفات الحرب. وكانت بنغازي تعاني أيضاً من أزمة حادة في السكن، اذ أن معظم المنازل المتبقية في الأحياء العربية أصبحت خالية من الكهرباء والمياه، كما أن حالة الأحياء الايطالية لم تكن أفضل بكثير. ورغم مرور عام ونصف تقريبا على انتهاء الحرب، الا أن الجيش كان لا يزال مسيطراً على كل شيء. فظلت البلاد تعيش تحت وطأة ظروف الحرب.

وكانت تلك فترة مشحونة بالقلق حول مستقبل ليبيا. فمسألة التصرف في المستعمرات الايطالية السابقة أثارت الجدل وحدة الانفعال أكثر من أية قضية أخرى من القضايا المطروحة على مجلس وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى آنذاك، وهي بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي وفرنسا. وفي سبتمبر ١٩٤٥ قدمت الولايات المتحدة مشروع قرار يقضي بوضع البلاد تحت وصاية جماعية من قبل الأمم المتحدة بحيث تسند ادارتها الى طرف محايد بمساعدة مجلس استشاري يضم مندوبين عن كل من بريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وفرنسا وايطاليا ويشترك في عضويته اثنان من الليبيين، على أن يتم استقلال كل من ليبيا واريتريا بعد عشر سنوات من ذلك. ولما كانت فرنسا حريصة على بقاء الوضع القائم في مستعمراتها المجاورة، فانها عارضت هذا الاقتراح برأي مخالف يدعو الى استمرار الادارة الايطالية. وكذلك عارضه الاتحاد السوفياتي بحجة أنه غير عملي، مستشهداً بالمثل الروسي القائل «ان الطفل لا يرضع أبدا من سبع مرضعات»، فاقترح بدلاً من ذلك أن تقوم كل من الدول الثلاث الكبرى (بعد استثناء فرنسا) بمهام الوصاية على احد المستعمرات بحيث يتولى هو نفسه مسؤولية الوصاية على طرابلس الغرب على أساس أن أسطوله التجاري كان بحاجة الى قاعدة على البحر الابيض.

ولم توافق بريطانيا على أي من تلك المقترحات. فهي، رغم تأييدها المشروط لفحوى الاقتراح الأميركي، رفضت المشروع السوفياتي رفضاً باتاً، كما رفضت الموافقة على وضع برقة تحت الحكم الايطالي مرة أخرى نظرا للتعهد الذي قطعته على نفسها للسنوسيين في أثناء الحرب. ولما عقد المجلس اجتماعه التالي في شهر أبريل ١٩٤٦ تقدمت بريطانيا لأول مرة باقتراح محدد من جانبها، فطالبت بمنح ليبيا استقلالها الفوري. غير أن تلك الدعوة التحررية لم تجد آذاناً صاغية، اذ اعتبرت مجرد محاولة لكسب النفوذ تحت ستار التظاهر بالانصاف. وأصر الاتحاد السوفياتي على سعيه الى تولي الوصايا على طرابلس الغرب، لكنه بعد بضعة أسابيع من وصول المحادثات الى طريق مسدود أبدى استعداده للتنازل

عن مطالبته بطرابلس لو وافقت بقية الأطراف على ضم تريستا الى يوغوسلافيا بالمقابل. ولعل هذا كان أكثر محاولات المساومة استخفافاً برغبات السكان في المناطق المعنية. ومن المؤسف أن الاقتراح البريطاني أخفق في ذلك الوقت، فقد كان كفيلا بقطع الطريق أمام سائر المناورات السياسية التي تواصلت طيلة السنوات الثلاث التالية حتى وضعت الليبيين على المحك ليجدوا سبيل خلاصهم بأنفسهم.

ولا غرابة في أن الشعب الليبي عيل صبره من انتظار المصير المجهول، وهو يرى أنه لا يقل جدارة بالاستقلال عن اخوانه العرب الآخرين في سوريا ولبنان والعراق والأردن، وفشل مجلس وزراء الخارجية في التوصل الى اتفاق بشأن مصير المستعمرات الايطالية كان يعني احالة القضية للتسوية في نطاق الجمعية العامة للأمم المتحدة. اما الليبيون أنفسهم فقد ظلوا يعلقون الآمال على موقف بريطانيا باعتبارها الطرف المنظور المعروف لديهم في تحرير البلاد، ويرتابون في أي مشروع قد ينطوي على فرض السيطرة الأجنبية مرة أخرى مهما كان حسن النوايا. وفي الوقت نفسه استمر مجلس وزراء الخارجية في محاولة التغلب على تلك المشكلة المعقدة دون التوصل الى أي اتفاق نهائي.

وقبيل نهاية سنة ١٩٤٦، بينما كان السيد ادريس لا يزال في مصر، بدأت الاستعدادات لزيارته المقبلة حيث كان من المقرر ان يتلقى وسام الفخرية الذي منح اياه تقديرا لمساهمته في المجهود الحربي البريطاني. وفي عصر يوم آخر ممطر قارس البرد في أواخر شهر ديسمبر ١٩٤٦ اصطفت جماعة صغيرة من الضباط البريطانيين للترحيب بقدوم السيد قرب قوس النصر الذي كان قد أقيم تكريما لموسوليني على مشارف بنغازي. وظهرت من بعيد احدى سيارات «الجيب» التابعة لقوة دفاع برقة وهي تنطلق بسرعة كبيرة، وخلفها مباشرة كانت سيارة «همبر» سوداء توقفت قليلا فيما ترجل منها السيد لمصافحة لجنة الاستقبال التي كانت بانتظاره. وجرت مراسيم تقليد الوسام في اليوم التالي بقصر غراتسياني القديم في وسط المدينة. وكانت تلك ثالث زيارة يقوم بها السيد الى بنغازي منذ أن حضر المأدبة التي أقامها عمر باشا الكيخيا احتفالاً بمعاهدة الرجمة قبل خمسة وعشرين عاماً، أي في سنة ١٩٢١. غير أن المناسبة كانت، بطبيعة الحال، أسعد كثيراً هذه المرة بعد أن زال شبح الاستعمار الايطالي الى الأبد. وعلى خلاف بهرجة البدل العسكرية الايطالية المعهودة، خرج الضباط البريطانيون بملابس الميدان العادية وهم ما زالوا يقومون بأعمالهم اليومية في الادارة المؤقتة.

وكان حرس الشرف الذي اصطف خارج القصر يتألف من جنود بريطانيين وبرقاويين قاتلوا جنبا الى جنب في حرب الصحراء. أما الضيوف السنوسيون، الذين شغلوا المقاعد



الرئيسية في قاعة القصر الكبرى فكان من ضمنهم بعض الرجال الذين حاربوا مع عمر المختار في معارك الجهاد قبل خمسة عشر او عشرين عاماً - وهم شيوخ قبائل مثل عبد الحميد العبار ومنصور بوشديق وبوبكر دهان وسليمان رقرق وعلى العبيدي وصالح باشا الأطيوش ونصر الكزة. وحضر الحفل أيضا عمر باشا الكيخيا الذي بدا متألقا بالطربوش والوشاح العثماني وسترة طويلة من طراز قديم. كما كان من بين الضيوف السيد محمد الرضا، أخ السيد ادريس، وكذلك السيد صفي الدين، وهو أخ غير شقيق للسيد أحمد الشريف كان يحمل رتبة جنرال (أي لواء) في الجيش التركي أثناء الحرب الايطالية الأولى. وقد جاء مع أربعة من أبنائه العائدين من منفاهم بمصر. وكان في جملة الحاضرين كذلك وفد من زعماء طرابلس قدم الى بنغازي لبحث موضوع الوحدة الليبية.

أما السيد محمد ادريس، قطب الاحتفال، فكان وقتئذ في منتصف الخمسينات من عمره بسيط الهندام، يرتدي قفطاناً أبيض اللون وعباءة سوداء ويلتف فوق كتفيه جرد أبيض. وهو لم يكن تغير كثيراً على مدى خمسة وعشرين عاما. . فبدا بنفس طلعته المهيبة ووجهه النحيل يشرف بابتسامته العطوفة حينا بعد حين. وساد الصمت أرجاء القاعة عندما قام ليمشي بخطى وئيدة، وهو يكاد يبدو بمعزل عن كل ما حوله ومن حوله، فيما سار الى جانبه الجنرال ديمبسي الذي حضر من القاهرة خصيصاً بهذه المناسبة. وبعد أن ألقى الجنرال كلمة ترحيب موجزة، تلي نص الاشادة الملكية باللغتين الانجليزية والعربية، ومؤداه أن جلالة الملك جورج السادس قد منح السيد لقب «فارس الامبراطورية البريطانية» اعترافا بفضله الكبير على بريطانيا. وعقب الاهداء جاء الرد بكلمة شكر قصيرة قرأها السيد بصوته الواطىء وترجمت الى الانجليزية كذلك. وكان جو الاحتفال كله يوحي بالبساطة وصدق المشاعر من غير أدنى تكلف أو ادعاء. فههنا كان زعيم بالفطرة، ووقار هيئته ميزّه عن جمع المحتفين به. وبعد قليل انتهت مراسم الاحتفال فخرج الضيوف معاً - مشايخ السنوسيين بملابسهم البدوية الى جانب أعيان المدينة والموظفين في البدل الرثة والضباط البريطانيين في ملابس الميدان - كلهم خرجوا الى شوارع المدينة المظلمة التي شوهتها ندوب الحرب. وكانت ثمة كوكبة من فرسان البدو بانتظار الاشارة لاطلاق وابل من رصاص البنادق في تحية للسيد.

وفي وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، وكنت احس بشيء من الخجل لا أدري كيف أطلب تحديد موعد للمقابلة، طرقت باب الفيلا المتواضعة التي خصصت لاقامة السيد خلال فترة زيارته القصيرة. واستقبلني سكرتيره ابراهيم الشلحي، فقادني في الحال الى حيث كان يجلس السيد في غرفة صغيرة قليلة الأثاث. وسرعان ما تبددت مخاوفي وزال

ارتباكي، اذ لقيت ترحيبا في غاية اللطف بزيارة من غير ميعاد على الاطلاق. واسترعى انتباهي على الفور سلوكه الودي وسيماء المكانة الرصينة. ولعله ايضا سر بوجود من يستطيع التحدث اليه دون حاجة الى مترجم، فهو كان وقتئذ، وعلى الدوام، لا يتكلم بغير اللغة العربية.

وفي سياق الحديث الطويل الذي دار بيننا في ذلك المساء، أذهلتني حدة فراسته وحسن اطلاعه على مختلف شؤون الساعة. كما تجلى ذكاؤه الوقاد وامانته بوضوح كامل في كل ما أخبرني به. وكان لا يهمه شيء سوى قضية الحرية، ان لم يكن لليبيا كلها، فلبرقة على الأقل. وفي عرض بارع تميز بالوضوح والموضوعية معا، رسم امام عيني صورة حية للكفاح الطويل ضد الايطاليين، معرباً عن ثقته بالنوايا الطيبة عند البريطانيين. ومن ثم تناول أبعاد القضية الليبية ودعم حق ليبيا في الاستقلال الفوري بعبارات بسيطة قوية الحجة في آن واحد. وكان في كل ذلك بعيداً كل البعد عن أي نزوع الى التباهي أو تمجيد الذات، بل ان من طبعه التواضع والود والتعاطف مع الغير. وهو كان يتحدث بيسر وأسلوب شيق وذهن ثاقب. كما أوضح مدى جسامة التضحيات التي قدمها الليبيون عبر ثلاثين سنة من الكفاح ضد الايطاليين، مؤكدا اصرارهم على الا يرضوا بديلا عن الاستقلال التام في ظل حكم اسلامي يختارونه بأنفسهم. وكان قد أخبر الوفد الطرابلسي بأنه اذا كان الشعب في طرابلس وفزان يريد الانضمام اليهم، فان أهل برقة سوف يرحبون بذلك في اطار دولة ليبية موحدة. وعبر عن خيبة الأمل الشديدة لعدم احراز أي تقدم نحو تحقيق الأماني الوطنية رغم مضي اكثر من عام كامل على انتهاء الحرب. وقال ان رؤساء القبائل ألحوا عليه بألا يعود الى القاهرة. لكنه يرى ضرورة البقاء في مصر الى حين صدور اعتراف رسمي بحقه في التفاوض باسم الليبيين. غير أنه وافق على طلب زعماء القبائل البرقاوية لانشاء جبهة وطنية خاصة بهم تتولى عرض قضية بلادهم على الجهات المختصة بالبت في مستقبل ليبيا.

وكانت آماله المبكرة التي احياها الاقتراح البريطاني المقدم الى الأمم المتحدة، داعيا الى منح الاستقلال الفوري، قد ثبطتها مناورات بعض الدول الأخرى الطامعة في بسط سيطرتها على أجزاء من الأراضي الليبية. وهو كان يرفض بوجه خاص فكرة العودة الى السيطرة الايطالية بأي شكل من الأشكال في أي جزء من ليبيا، لان معنى ذلك انكار كل ما جاهد الشعب في سبيله ردحا من الدهر، كما كان ايضاً ينفر من مشاريع الوصاية الدولية بكافة صورها اذ انها كانت تعني في نظره وجود السيطرة الأجنبية من حيث الجوهر وان لم تكن باسمها الصريح.



وخرجت من الفيلا في مساء ذلك اليوم مقتنعا بأن السيد ادريس رجل مؤهل لرئاسة دولة ليبية بحكم صفاته الشخصية وسعة اطلاعه ونزاهته وما يحظى به من المكانة الدينية والسياسية اللازمة لمثل هذا المنصب. وأعترف بأنني وقعت تحت تأثير شخصيته الآسرة لأول مرة، بل انني عبر الأحاديث العديدة التي جرت بيني وبينه طوال السنوات التالية لا اذكر انني خرجت من مجلسه قط دون ان يغمرني نوع من الشعور باليقظة وتنبه الحواس الذي يحدثه لقاء شخصية خارقة للعادة، ولما سألت عنه في اليوم التالي، قيل لي انه سافر بعد الفجر بقليل متوجها في طريق عودته الى مصر.

وكانت الشهور التالية مليئة بالمشاغل قضيتها في معالجة المشاكل العديدة التي تنطوي عليها ادارة اقليم واسع بميزانية هزيلة – وهي المهمة التي وقعت على عاتقي كسكرتير أول. وكان من حسن حظي أنني، خلال الأشهر القلائل الأولى، اشتغلت تحت اشراف رئيس يمتاز بالفطنة والتفهم، وهو البريجادير هاف الذي اتاح لي فرصاً كثيرة للتجول في أنحاء المنطقة والتعرف الى الناس. وكانت أول مهمة أسندت الي هي تسهيل أعمال لجنة من الخبراء أرسلتها وزارة الحربية لاعداد دراسة وتقديم تقرير عن سير الادارة في ليبيا. ويؤسفني أن أقول انني كنت أشبه بالأعمى يقود العميان. فبعد انقضاء أسبوع واحد فقط على مجيئي من السودان، كان من الصعب اعتباري مؤهلاً للقيام بدور الدليل والمرشد لهم في برقة. وكلما تعمقنا في البحث والتقصي كلما ازددنا غماً لضخامة المعضلات التي واجهت الادارة. فكيف يمكن اصلاح الخراب الذي خلفته الحرب على نحو كاف في حدود الامكانيات الضئيلة التي وضعت تحت تصرفنا؟ وكيف نستطيع اقناع قوم من الرعاة الرحل بالتحول الى مزارعين مستقرين في المستوطنات الايطالية المهجورة؟ ومن أين نأتي بالموظفين اللازمين لشغل الدوائر الحكومية التي أخذ الضباط البريطانيون يتركونها يومياً لدى تسريحهم من الخدمة، في حين لا يكاد يوجد بديل برقاوي واحد يملك أي خبرة أو مؤهلات مهنية أو فنية؟ . . . وكان العنصر الايجابي الوحيد في تلك الظروف هو تصميم زعماء القبائل الذي لم يدع مجالا للشك في اجماع أهل البلاد على نفس الطموحات السياسية الواحدة.

فخلال جولتنا الواسعة، سواء بين نجوع البدو داخل الصحراء أو سكان المناطق المجاورة للطرق أو موظفي المكاتب الادارية بالمباني المتداعية في المدن وفي القرى من تخوم طرابلس الغرب الى حدود مصر، ظل يطرق آذاننا سيل من الخطب الملتهبة التي كانت كلها تدور حول مطلب واحد لا يتغير: «اعطونا استقلالنا الآن تحت حكم السيد ادريس ونحن ندبر الباقي بأنفسنا». وازاء مثل ذلك الحماس المتدفق واجماع الآراء بدا من العبث

المطلق حثهم على الصبر والثقة في حكمة الدول الأجنبية. فما من أحد كان يبالي بنصيحة كهذه في غمرة العواطف الجياشة التي انطلقت من عقالها نتيجة التحرر المفاجىء بعد جيل من الكبت. ولكن، الم يكن الاستقلال في مثل تلك الظروف مجرد وهم؟ وهل ينبغي تحرير شعب يفتقر الى وسائل الدفاع عن حريته؟ . . . كانت مشاعري تشدني الى احترام الرغبة الدفينة في وجدان هذا الشعب الذي اضطهد وعانى كثيراً، ومع ذلك فهل كان يصح ان يترك تحت رحمة الجيران الجشعين؟ . . . تلك التساؤلات كان حسمها بأيدي الدول الكبرى. اما نحن فكل ما كان بوسعنا أن نفعله هو ابلاغ حكومتنا بمدى قوة النزعة الاستقلالية في البلاد، والشعور الودي نحو البريطانيين، والولاء الكلي للسيد ادريس.

ولأن أعضاء لجنة الخبراء التابعة لوزارة الحربية كانوا اشخاصا مجربين وعمليين فانهم أدركوا مدى الحاجة الملحة الى تدريب الشعب على الحكم الذاتي والتمهيد لانهاء الادارة العسكرية البريطانية ونقل السلطة من ايدي المسؤولين البريطانيين الى الزعماء البرقاويين. وقد تضمنت توصيات اللجنة المقدمة في يناير ١٩٤٧ برنامجا للتطور على ثلاث مراحل:

١ . استمرار الادارة العسكرية لفترة قصيرة.

٢ . تأسيس دولة عربية تحت الوصاية البريطانية مع تقديم معونات مالية لمدة لا تقل عن عشر سنوات، بما في ذلك التدريب الاداري ورفع مستوى التطور التعليمي والفني.

٣ . اقامة دولة مستقلة بالكامل. وفي خلال المرحلتين الثانية والثالثة يمكن الربط بين برقة وطرابلس الغرب في اطار دولة ليبية موحدة. وكذلك أوصت اللجنة بعقد معاهدة تحالف مع دولة كبرى.

ولم تلبث الحكومة البريطانية أن تبنت هذا البرنامج واستمرت عليه كسياسة رسمية تجاه ليبيا. وكانت نقاط ضعفه تكمن في اعتماده على عوامل غير محققة او مضمونة. فهو أولاً قام على افتراض مسبق بأن خطة الوصاية البريطانية سوف تحظى بقبول الدول الثلاث الأخرى المختصة بالتصرف في شؤون المستعمرات الايطالية السابقة. كما أنه افترض من جهة ثانية ان الشعب الليبي سوف يرضى بالوصاية لمدة عشر سنوات، تناسياً ان الليبيين قد لا يقبلون بمبدأ الوصاية على الاطلاق. ومع الوقت تحولت مسألة التصرف في مستعمرات ايطاليا الى سلعة للمساومات الدولية. وقد تأثرت جوهرياً بشروط معاهدة الصلح مع ايطاليا نظراً لاقحام الأمم المتحدة في الموضوع. فبموجب تلك المعاهدة حددت للدول الأربع المعنية مدة عام واحد لتبت معاً في كيفية التصرف في المستعمرات الايطالية نهائياً. واذا لم يتحقق ذلك في موعد اقصاه اليوم العاشر من فبراير ١٩٤٨، تحال القضية الى الجمعية العامة للأمم المتحدة وتلتزم الدول الأربع بقبول توصياتها في



الخصوص.

وكان رفع مستوى التعليم في البلاد أحد الأعمال الرئيسية التي أثارت اهتمامي بنوع خاص. وبعد أن بدأت من الصفر في عام ١٩٤٣ تمكنت الادارة من فتح حوالي خمسين مدرسة ابتدائية وأولية لتوفير التعليم الأساسي باللغة العربية في نفس مواقع المدارس الايطالية السابقة بالمدن ومراكز القرى. وقد اشتغل بها مدرسون محليون ممن تلقوا تعليمهم في مصر غالباً. واثناء الفترة من سنة ١٩٤٧ الى ٤٩ تم انشاء مدرسة ثانوية يتبعها قسم داخلي في بنغازي وأخرى في درنة، كما فتحت أربع مدارس داخلية في الأبيار والقبة وجردس العبيد وطبرق من أجل أولاد قبائل البدو الرحل المتفرقين هنا وهناك. وأنشئت مدارس للبنات في كل من بنغازي وسوسة ومعاهد للمعلمين من الجنسين في بنغازي ومدرسة للتدريب المهني ببنغازي ايضاً. وكانت تحد من قدرتنا على العمل في هذا المجال قلة المدرسين المؤهلين والكتب والأدوات المدرسية، لكن الوضع تحسن كثيراً عندما أعارتنا مصر عدداً من المعلمين الأكفاء مع تزويد المدارس بالكتب والمعدات اللازمة. ففي خلال عام ١٩٤٨ وصل من مصر ٤٢ مدرساً وعشر مدرسات جرى توزيعهم على المدارس المنتشرة في مختلف المناطق. ومن ثم أصبحت مصر مصدراً لا غنى عنه، وازداد وفرة على مر السنين، فمكن البلاد من اقامة نظام كفء للتعليم العام الذي تطور حتى وصل الى مستوى التعليم العالي. ولولاها لكان مستحيلاً.

ومنذ الأيام الأولى للاحتلال شكل البرقاويون أغلبية الموظفين في أجهزة الادارة العسكرية، فمنهم أكثر من ألف شخص شغلوا الوظائف الكتابية والادارية، بما في ذلك كافة المسؤولين بالمديريات وقضاة المحاكم الشرعية والمدنية والمدرسين وموظفي الزراعة والغابات والبريد والمواصلات السلكية واللاسلكية. وفي تلك الفترة تولى تسعة من البرقاويين عدة مناصب كبيرة، وهي وظائف وكلاء مراقبات الداخلية والتنمية والمالية ونائب مدير الشرطة ومساعدي مدير المعارف ورئيس مصلحة البريد والبرق وموظفي مناطق بنغازي والجبل ودرنة.

وكان من المشاغل الهامة تطوير الزراعة وتربية المواشي والتشجير. ورغم أن أراضي برقة كانت في المعتاد مرتعا لرعي الأغنام بالدرجة الأولى، الا أنها تكشفت عن امكانيات هائلة للزراعة والبستنة، ولا سيما زراعة الفواكه والخضراوات. والى جانب مشروع سهل المرج - حيث قامت الادارة نفسها بزراعة القمح في مساحة بلغ اتساعها حوالي ٧٧٠٠ هكتار، فوفرت للسكان مصدر الغذاء الرئيسي - جرى ايضاً تقدم ملحوظ في عملية استصلاح المزارع الايطالية السابقة بمنطقة الجبل الأخضر. وهذه المزارع استأجرها عدد من

الفلاحين المحليين تحت اشراف الادارة التي اخذت تمدهم بالبذور والشتائل من ثلاث محطات تجريبية اقيمت لذلك الغرض، مما ادى الى زيادة كبيرة في انتاج الحبوب والعنب والخضراوات وتصدير نحو عشرة آلاف طن من الشعير سنوياً بلغت قيمتها ١٤٠ الف جنيه. وكان أكثر تلك الكمية يصدر الى طرابلس الغرب.

كما تم تحقيق نتائج أفضل في مجال تحسين المواشي، وذلك باصلاح الآبار وتوفير أحواض للسقي وفتح عدة مراكز بيطرية لعلاج امراض الحيوانات. ونتيجة لتصدير فائض المواشي شهدت المناطق الريفية قدراً من الرخاء الاقتصادي. ففي سنة ١٩٤٨ مثلاً صدر من مينائي بنغازي ودرنة ما يقرب من سبعة آلاف رأس من المواشي ومائة ألف من الأغنام ذهب معظمها الى مالطا واليونان، فضلاً عن سوق عدد مماثل الى مصر بطريق البر كالمعتاد.

وفي صيف عام ١٩٤٧ سافرت الى مقر قيادة القوات البرية للشرق الأوسط للتشاور مع كبير ضباط الشؤون المدنية اللواء كمنج، وكان مركز القيادة قد نقل مؤخراً من القاهرة الى منطقة فايد على قنال السويس. وانتهزت فرصة مروري بالقاهرة فقمت بزيارة للسيد ادريس في شقته بشارع حشمت باشا في الزمالك، حيث تناولت معه طعام الغداء. وأخبرته بمجمل التطورات الأخيرة في أعمال الادارة، كما نقلت اليه رغبة الكثيرين من أبناء القبائل والمدن في برقة وهم يتوسلون اليه ان يعود الى ارض الوطن. ولكنه كان لا يريد تقديم اي وعد بالعودة ما لم يتم الاعتراف بمركزه رسمياً، بينما لم تكن الحكومة البريطانية مستعدة لذلك خشية ان تخالف احكام معاهدة لاهاي. واصر السيد على أن الليبيين لن يقبلوا بأية تسوية للقضية الليبية عدا الاستقلال الناجز الذي ينبغي أن يتم من دون انتظار لنتائج المساومات الدولية حول مستقبل المستعمرات الايطالية السابقة. ورأى أن ضمانة الاستقلال يمكن تحقيقها بعقد معاهدة مع بريطانيا، فأوضحت له أن الحكومة البريطانية ملتزمة بشروط معاهدة الصلح مع ايطاليا. وأخيراً ذكر لي أنه يعتزم زيارة بنغازي لمدة أطول في نوفمبر ١٩٤٧.

وتأهباً لتلك الزيارة المرتقبة، شرعنا في اصلاح وتأثيث قصر المنار الذي خربته القنابل اذ رأينا أنه أنسب من الفيلا الصغيرة الضيقة الكائنة بشارع دى مارتينو حيث أقام السيد ادريس أثناء زيارته السابقة الى برقة، وبذلنا كل ما بوسعنا لترميم البهو الفسيح وغرفتي النوم في الطابق العلوي، كما كان من الضروري اعداد مكان لسكن طباخه الخاص وخادم آخر في مبنى مجاور. وبعد فترة تلقينا رسالة مفادها أن السيد سوف يغادر القاهرة بطريق البر في اليوم الثالث من نوفمبر، فبعثنا سيارتينا الوحيدتين الفاخرتين من طراز «همبر»



الى القاهرة لاحضاره من هناك. واذ علم الجميع بموعد الزيارة أخذت أعداد كبيرة من رجال القبائل في التجمع على طول الطريق الممتد الى مسافة ٤٠٠ ميل من الحدود المصرية. وكانت الرحلة اشبه بزحف مظفر جرى بأقصى سرعة، ولم تتخلله سوى بضع وقفات عند الحشود الضخمة من فرسان البادية الذين جاءوا لتحية زعيمهم بطريقتهم التقليدية. وهي كانت تنطوي على شيء من الخطر لمن يتصادف وجودهم في الجوار، نظراً لاطلاق الأعيرة النارية في الهواء (واحياناً ليس في الهواء) باستعمال الذخيرة الحية. فكانت المستشفيات المحلية تنشغل على غير العادة عقب أي مهرجان من هذا القبيل. وقد أقيم أحد أقواس النصر على الطريق قرب مدخل بنغازي حيث كنا في الانتظار. ولما وصل الموكب نزل السيد أمام المنار فاستعرض حرس الشرف المكون من جنود البحرية الملكية البريطانية وسلاح الخيالة الملكي وقوة دفاع برقة. وفي داخل القصر تجمع مشايخ القبائل وأعيان بنغازي تكريماً له مرة أخرى، وكانت هذه المناسبة احتفالاً برقاوياً صرفاً، فلم يجد مكاناً في القاعة المزدحمة سوى قلة من الضباط البريطانيين. ولما كان البريجادير هوف قد غادر برقة بعد ترقيته الى منصب أعلى، فقد تعين عليّ أن القي خطاب الترحيب. وألقيت كلمة باللغة العربية، مما نال استحسان جمع الحاضرين، حيث رحبت بعودة السيد الى شعبه بعد فراق طويل ثم اشرت الى وعد المستر ايدن في سنة ١٩٤٢ بأن برقة لن تعود الى الحكم الايطالي تقديراً لما قدمه السنوسيون من مساندة للجيش البريطاني أثناء الحرب، وناشدت الجميع ان يتحلو بالصبر وأن يساعدوا في الخطوات الرامية الى تهيئة البلاد للحكم الذاتي. وفوجئت بأن كلمتي الموجزة قوبلت بعاصفة من التصفيق الحاد، فلما سألت أحد كبار الحاضرين عن سر هذا الحماس في وقت لاحق من ذلك اليوم أخبرني بأن ثمة شائعات قوية (لا علم لي بها) كانت تقول بأن ليبيا سوف تعاد الى الخضوع لحكم ايطاليا مرة أخرى.

وقبل أن أغادر بنغازي بعدها بحوالي ثلاثة شهور قابلت السيد ادريس مرات عديدة وساعدني كثيراً بصفة غير رسمية في التعامل مع الساسة المحليين والاشارة بأنسب البرقاويين لشغل الوظائف العليا في الادارة. وكان وجود السيد ادريس بينهم مبعث تشجيع عظيم للمطالبين بالاستقلال فوفر عليّ الكثير من الجدل. وأثناء زياراتهم المتكررة الى بنغازي صاروا يذهبون لمقابلة السيد ادريس بدلاً من أن يأتوا اليّ، فتمكنت من التفرغ لشؤون الادارة. أما بالنسبة لمركز السيد في البلاد، فان الادارة البريطانية عالجت الموقف بنوع من الكياسة اذ أضفت عليه لقب الامارة فخرياً مع تجنب أي اعلان رسمي عن ذلك.

وكنا قد تعرضنا في الماضي لشيء من المضايقة من جانب عدة منظمات سياسية أنشأها بعض الشباب تحت رعاية القنصلية المصرية التي افتتحت في بنغازي قبل بضعة أشهر. فكانت هنالك جميعة اسمها رابطة الشباب وناد مزعوم لكرة القدم يحمل اسم عمر المختار، وهما منظمتان كان المفروض أنهما قامتا لأغراض اجتماعية ورياضية بحتة. وكانت ثمة أيضاً لجنة محافظة نوعاً اسمها الجبهة الوطنية، تتبنى أفكاراً رجعية عفا عليها الزمن وتتألف كلها من كبار السن الذين كانت ذكريات مقاومة الايطاليين خلال العشرينات والثلاثينات ما تزال طرية في أذهانهم. والمنظمتان المذكورتان أولاً كانتا ضعيفتين تنحصران في مجموعة صغيرة من شباب بنغازي ودرنة، لكنهما ازدادتا صخباً في تأييد دعوة القومية العربية. غير أنهما لم تنجحا كثيراً في استقطاب الرأي العام بالبلاد أوتقوما بأي نشاط غير مشروع. وبدلاً من الأحزاب المنحلة أنشىء في يناير ١٩٤٨ مؤتمر وطني تكون من كبار زعماء القبائل وأعيان المدن (ومن بينهم ممثل عن الطائفة اليهودية) وممثلين لشباب الحضر.

وانتخبت لجنة تنفيذية برئاسة محمد الرضا، أخ السيد، لرسم برنامج لمستقبل البلاد على أساس الاستقلال والامارة السنوسية. وكان هدف البرنامج أن يلفت انتباه العالم الخارجي الى تصميم الشعب على أن تكون له الكلمة العليا في تقرير مصيره بنفسه. فلما زارت برقة في أبريل ١٩٤٨ لجنة تقصي الحقائق التابعة للدول الأربع الكبرى (والتي تألفت من جون ئي. أوثر، مندوباً عن الولايات المتحدة الأميركية، و ف. ئي. ستافورد، عن المملكة المتحدة، وبوران دي روزييه، عن فرنسا، وآرتيمي فيدوروف، عن الاتحاد السوفياتي) تقدم اليها المؤتمر الوطني بالمطالب التالية نيابة عن الشعب البرقاوي:

١. الاستقلال الفوري الكامل لبرقة.
٢. الاعتراف بالأمير ادريس ملكاً لدولة برقاوية دستورية.
٣. فيما يخص علاقات برقة بطرابلس الغرب ذكر أنه «اذا كان اخواننا الطرابلسيون فيما بعد يرغبون في الانضواء تحت تاج السنوسية، فان ذلك سوف يجعل بالامكان توحيد الأراضي الليبية في دولتنا. والا فان برقة سوف تحتفظ باستقلالها الخاص».

وعندما سألت اللجنة أبناء القبائل أعربوا عن رغبتهم الأكيدة في «الاستقلال تحت راية الأمير ادريس». أما بالنسبة لامكانية الوصاية فان بريطانيا كانت الدولة الوحيدة المقبولة لديهم. وجاء طلب الاستقلال الفوري باجماع الآراء، في حين أن فكرة المرحلة الانتقالية لم تلق أي تأييد، وخصوصاً عند أهل المدن من ذوي النزعة الوطنية الذين اعتبروا الوصاية «مجرد استعمار آخر وان كان الانجليز أرحم من الطليان».



وصدرت نتائج تحقيق اللجنةالرباعية في يوليه ١٩٤٨ ، معلنة أن برقة مثل غيرها من المستعمرات الايطالية السابقة ليست مؤهلة للاستقلال بل ينبغي وضعها تحت الوصاية. وكـان هذا الاعلان صدمة عنيفة لليبيين أثارت السخط والاستياء الشديد، كما أزالت غشاوة الوهم في نفس الوقت، فرأوا فيه دليلاً قاطعاً على أن الدول الأربع الكبرى عازمة على رعاية مصالحها الخاصة في ليبيا، ولو أدى الأمر الى تجزئة البلاد، بدلاً من النزول عند رغبة الأهالي الجماعية في نيل الاستقلال التام. وأحس الأمير ادريس بخيبة أمل مريرة. وكنت قد غادرت برقة في أوائل سنة ١٩٤٨ ، فلم أحضر زيارة اللجنة، لكنه أخبرني فيما بعد أنه يفكر في اعتزال العمل السياسي نهائياً والعودة الى مصر. فرجوته ألا يقطع الأمل لأن رغبات الأمة لا بد أن تتحقق في النهاية.

١٤
النشـاط السـياسـي في برقة

بعد غيبة استغرقت تسعة شهور رجعت الى بنغازي في نوفمبر ١٩٤٨ لتولي منصب رئيس الادارة، فلاحظت تغيراً واضحاً طرأ على الجو العام في البلاد. فعدم التوصل الى قرار بشأن مستقبلها السياسي أدى الى تنامي الشكوك في صدق الوعد البريطاني، كما أن ذلك الشعور بالخيبة والاحباط زاد حدة بسبب الحرب بين العرب واليهود في فلسطين. وهي قد أحدثت أصداءها في ليبيا أيضا. فعلى الرغم من أن ليبيا لم تكن طرفا مباشرا في حرب فلسطين، الا أن تلك الحرب أعطت حافزاً هائلاً لنزعة القومية العربية الكامنة في البلاد حتى ذلك الحين، والتي تولت مصر زعامتها والتعبير عنها فكان لدعايتها أثر قوي في برقة. وموجة المشاعر المعادية لبريطانيا، والتي رافقت مولد الدولة الاسرائيلية الجديدة، كان لا بد أن تمس الأمير ادريس باعتباره صديقا حليفاً لبريطانيا استمر على موقفه نحوها، وان كان قد ضاق صدره بطول الانتـظار فأخـذ يزداد الحاحاً في ضغطه على السلطات البريطانية من أجل اتخاذ اجراءات جدية للعمل على انهاء الادارة العسكرية القائمة من أيام الحرب توطئة لاستقلال البلاد.

وأثناء فترة خدمتي الماضية في برقة كان النشاط السياسي الوحيد الملحوظ هناك يتمثل في اصرار زعماء البادية والحضر معا على مطالبتهم بالاستقلال الفوري تحت رعاية السيد ادريس. وكان المسؤولون عن ادارة الاقليم متعاطفين تجاه تلك الرغبة، خصوصا وأن المنادين بها كانوا قد تعاونوا مع الجيش البريطاني أوثق التعاون في معارك حرب الصحراء، ثم ان تأخـر القـرار كان من شأنـه أن يتيح الفرصة لاثارة الفتن فتعكر جو الاستقرار الضروري جداً لاعادة بناء البلاد.

ولم يكن من سياسة الادارة البريطانية أن تحاول التأثير في اتجاهات الرأي العالم المحلي فيما يتعلق بوضع البلاد مستقبلاً، بل انها ظلت تراعي هذا المبدأ بمنتهى الدقة حتى أن بعض العناصر الهدامة استطاعت أن تنظم نفسها ولم تكد تفطن بها الادارة العسكرية.



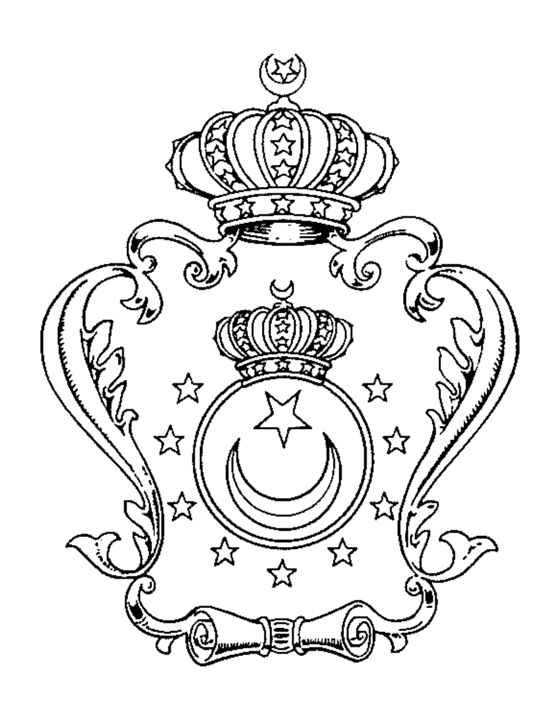
وبدت في طليعة المؤثرات الخارجية مصالح مصر في التصرف بليبيا عموما وفي برقة بصفة خاصة. وكانت الأعداد الضخمة من المغتربين الليبيين الذين رجعوا بعد تحرير البلاد من الحكم الايطالي تضم بين صفوفها كثيرين ممن شاركوا في النشاط السياسي بالأقطار العربية المجاورة وهي ما زالت تناضل في سبيل استقلالها، فتمرسوا بالأساليب المتبعة في اثارة النعرات الوطنية والقومية. ولدى عودتهم الى ليبيا كان من الطبيعي أن أولئك الشباب الليبيين الذين تعلموا في الخارج وتأثروا بالدعوات القومية سوف يمارسون العمل السياسي داخل بلادهم أيضاً، ولا سيما أن السياسة البريطانية أفسحت مجالاً أوسع بكثير مما كان بالمستطاع في ظل الاحتلال الايطالي. ولكن الأمر الذي لم يكن متوقعا هو أن بعض الشباب يمكن أن ينخدعوا بالدعايات المضللة الى درجة التآمر ضد الأمير والموالين للسنوسية ممن ذاقوا الأمرين في ملحمة الكفاح من أجل الحرية.

ولم يكن خافياً أن التدخل الأجنبي تستر خلف قدر كبير من العمل الوطني الذي جرى في ليبيا خلال الفترة ما بين سنة ١٩٤٨ و ١٩٥١، ولا كان مصدر التأثير بعيداً. فاهتمام مصر بمستقبل المستعمرات الايطالية أخذ يتنامى منذ انتهاء الحرب. ولما عقد مجلس وزراء الخارجية أول اجتماع له في لندن عام ١٩٤٣ تقدمت اليه الحكومة المصرية بمذكرة طالبت فيها بأخذ رأيها قبل البت النهائي في مصير كل من ليبيا واريتريا مراعاة للروابط الوثيقة التي شدّتهما اليها في الماضي. واقترحت اجراء استفتاء عام في ليبيا لمعرفة ما اذا كان الشعب يفضل نيل الاستقلال أو الوحدة مع مصر. وفي حالة فرض الوصاية الدولية، ألحت مصر على أن يعهد بمهام الوصاية اما اليها أو الى الجامعة العربية. وربما كان لتلك المطالب ما يبررها لو أنها صدرت بالتشاور مع السيد ادريس والزعماء الليبيين الآخرين، غير أنها لم تكن كذلك، وانما صاغها عبد الرحمن عزّام (الأمين العام المصري للجامعة العربية حينذاك) بقصد وضع ليبيا تحت السيطرة المصرية بالذات. وفي شتى القرارات الصادرة عن الجامعة العربية خلال فترة ١٩٤٨ - ١٩٥١ برزت آراء عزام الشخصية بشكل واضح فيما يتعلق بالمسألة الليبية. وهو كان، في سائر الأوساط الدولية، يدعو على نحو متواصل الى وضع ليبيا تحت وصاية الجامعة العربية بحيث تتولى مصر المسؤولية الرئيسية عنها. وكان يحبذ قيام وحدة بين برقة وطرابلس الغرب، ولكن كان من رأيه أيضاً أنه لو تعذر تحقيق الوحدة والاستقلال للاقليمين معا، فان برقة يمكن دمجها في مصر. وعندما أبرمت معاهدة الصلح في سنة ١٩٤٦ طلبت مصر أن تعطى لها سلطة الادارة تحت وصاية الأمم المتحدة، كما تقدمت بمطالب اقليمية معينة في المناطق المجاورة للحدود المصرية الليبية بما فيها هضبة السلوم وميناء البردى وواحات الجغبوب وآركنو والعوينات وسارة. ولم ترق

للزعماء الليبيين فكرة الوصاية المصرية أو وصاية الجامعة العربية ولا أعجبتهم المطالبة بتعديل الحدود، فهي كلها مقترحات قدمت من دون الرجوع الى الشعب الليبي، فيما كان عزّام معروفاً عندهم بعداوته الشخصية للأمير ادريس.

ولدى نهاية عام ١٩٤٨ بات من الواضح أن أجهزة الدعاية المصرية قد أحرزت بعض النجاح سواء في برقة وفي طرابلس الغرب. فنادي عمر المختار في برقة، الذي نشأ اصلا كهيئة رياضية محضة، سرعان ما تحول الى جمعية سياسية منظمة على غرار نفس النموذج التخريبي المألوف بايعاز من مصر. وعقب عودتي الى برقة في سنة ١٩٤٨ تعرضت لتجربة مؤلمة تدل على مدى خطورة هذه المؤثرات على الأمن العام. وكنت أقضي بعض الوقت متجولاً في أنحاء المنطقة لمقابلة الموظفين البريطانيين الجدد وتوثيق معرفتي السابقة بزعماء القبائل والأرياف وموظفي الدوائر المحلية، وفي كل مركز من المراكز القبلية والقروية كنت أتحدث الى الناس موضحاً آخر تطورات الموقف بالنسبة لمشكلة المستعمرات الايطالية داعيا اياهم الى مزيد من الصبر واستمرار الثقة في قيادة أميرهم وحسن النوايا البريطانية تجاه قضية بلادهم. وفي نفس الوقت كانت زوجتي قد بقيت في بيتنا ببنغازي لأن الرحلة كانت شاقة الى حد ما.

وعندما رجعت في ختام جولتي اكتشفت أن منزلنا تعرض في غيابي لهجوم جماعة من الغوغاء طفقت تقذف النوافذ بالحجارة، ولم يردها الا ضابط بلجيكي شاب من موظفي الادارة العسكرية كان يتكلم العربية، فتدخل مخاطرا بنفسه لمنع المشاغبين من اقتحام البيت. ولم يكن في البيت أحد غير زوجتي وسيدة أخرى، بعدما لاذ الخدم بالفرار لدى ظهور أولى بوادر الشغب، كما أنه لم يعثر للشرطة على أثر. وكان هذا عملاً خبيثاً متعمداً يشذ تماماً عن تقاليد الشهامة ومراعاة الحرمات التي اشتهر بها الليبيون مثل كل العرب. ثم أسفرت التحقيقات عن أن هذا الاعتداء حدث بمعرفة بعض أفراد نادي عمر المختار، الذي كان اكتسب قدرا من النفوذ بين أهل الحضر بتشجيع خارجي عن طريق ترهيب المواطنين المسالمين في كل من بنغازي ودرنة. ويبدو أنه تأثر بنفس أساليب جماعة الاخوان المسلمين التي كانت نشطة في مصر آنذاك. وكان أول ما تبادر الى ذهني اثر تلك الحادثة أن أفرض حظراً على نشاط النادي، الا أنني غيرت رأيي بعد التروي في الأمر اذ فكرت أن اللجوء الى استعمال الشدة على هذا النحو سوف يدفعه الى العمل السري، بل ربما يكسبه مزيدا من الشعبية طالما أنه يرتدي مسوح القومية العربية. وفي الوقت نفسه أعرف رئيس الجمعية شخصياً ولا أنكر أن لها بعض الحق في بواعث تذمرها، مثل الاستياء من نتيجة الحرب بين العرب واليهود وشعورها بالسخط لعدم التقدم نحو تسوية أوضاع ليبيا.



١٥
الامارة الثانية

مع اقتراب الموعد المحدد لتسوية موضوع المستعمرات الايطالية السابقة، قرر الأمير ادريس أن يقيم في برقة بصفة دائمة. ولأنه لم يكن ميالاً الى سكني المدن، أعدّت له دارة ريفية منعزلة في موقع يسمى «الغدير» على مسافة حوالي سبعة أميال خارج بنغازي. وكان هذا المنـزل بجـوار بركة «ليثي» الغائرة التي اشتهرت في الأساطير الأغريقية بأنها مورد تقصده أرواح الموتى كي تطفىء غليلها بماء السلوان. ويمكن الوصول الى المغارة بالهبوط عبر ممر شديد الانحدار داخل صدع عميق في طبقة من الحجر الجيري حيث يوجد غدير الماء تحت الأرض، ومن ثم تستطيع أن تشق طريقك بقارب مسطح حتى تدخل الى مغارة ثانية، وكنا نميل الى التصديق بأن مجرى الماء السفلي يمتد من هنا لغاية البحر عند مرتفع البحيرة الزرقاء، وهي بحيرة قرب الشاطىء على بعد بضعة أميال من بنغازي. وكان تيار من الماء العذب يصب في البحر عند تلك البقعة بالذات، مما جعلها مكاناً مثالياً للنزهة والسباحـة. وأيام سكن الأمير في ناحية ليثي كان أحياناً يبعث الينا بمياه الشرب من المغارة، وهي أحلى كثيراً من مياه خزانات المدينة الممزوجة بالكلور.

واستعمل الأمير قصر المنار في وسط المدينة كمكتب ومكان لاستقبال الزوار حيث جمع حوله عدداً صغيرا من المساعدين، كان من بينهم رئيس التشريفات عمر باشا الكيخيا وسكرتير الأمير الخاص الدكتور وهبي البوري (الذي أصبح فيما بعد مندوب ليبيا لدى الأمم المتحـدة). وكـان أول اجـراء اتخذه الأمير هو رفع نسبة تمثيل الجاليتين اليهودية واليونانية في المؤتمر الوطني الذي تضمنت عضويته بعض الزعماء السابقين من نادي عمر المختار، وهم خليل القلال ويوسف بن كاطو ومصطفى بن عامر ومحمد المطردي. وهذه الهيئة المعاد تشكيلها أوكلت اليها مهمة طرح قضية الاستقلال البرقاوي أمام الأمم المتحدة.



وبالنظر الى قصر مدة زياراته الماضية لبرقة، فان وجود الأمير خلال الأشهر القلائل التالية أتاح لي فرصة استشارته بانتظام حول استعداداتنا لاقامة الحكم الذي في البلاد. وقد وزعنا العمل فيما بيننا بحيث ركزت اهتمامي على الشؤون الادارية وحدها وتركت له ا لنواحي السياسية بالكامل. وهذه التدابير أرضت أكثر الناس، أما غير المقتنعين بسياسته فانهم كانوا في بعض الأحيان يشفون غيظهم بانتقادي أنا عبر الصحافة المحلية عادة. وكان الأمير سريع التأثر بالنقد، فطلبت من محرري الصحف مراعاة ذلك بقدر الامكان. فالمهم أن يظهر الجميع بوجه واحد لأن هذا كان أمراً ضرورياً جداً لاقناع العالم بأن الليبيين جديرون تماماً بنيل الاستقلال المبكر الذي يطمحون اليه.

وقضية المستعمرات الايطالية لم تطرح للنقاش أثناء اجتماعات الأمم المتحدة بباريس في سبتمبر ١٩٤٨، اذ كانت قد تأجلت لغاية شهر أبريل ١٩٤٩. وتلك الدورة التي انعقدت بمدينة «ليك سكسيس» حضرها وفدان ليبيان، أحدهما من طرابلس الغرب والثاني من برقة، وكل منهما يحمل وجهة نظر مختلفة قليلاً عن الآخر. فالطرابلسيون قدموا مطلب الاستقلال أولاً والوحدة ثانياً، بينما وضع البرقاويون الاستقلال أولاً والامارة السنوسية ثانياً والوحدة ثالثاً. أما في الأوساط العالمية الخارجية فان تباين الآراء كان أكبر من ذلك كثيراً. فمن جهة كانت هنالك كتلة قوية من دول أميركا اللاتينية يبدو أنها تأثرت بروابط المذهب الكاثوليكي بينها وبين ايطاليا، فدعت الى الوصاية الايطالية على ليبيا. ومن جهة أخرى طالبت مجموعة الدول العربية والآسيوية بمنح البلاد استقلالها الفوري دون قيد أو شرط، فيما سعت كل من بريطانيا وفرنسا الى ايجاد تسوية تفي باحتياجاتهما الاستراتيجية في برقة وفزان. وكان من الواضح أن أي اقتراح من جانب الدول الغربية لن يكتب له النجاح ما لم يحظى بتأييد احدى الكتلتين السالفتي الذكر. ولما كانت الكتلة العربية ـ الآسيوية تعارض أي شكل من أشكال التدخل الغربي في ليبيا، فان مصالح بريطانيا وفرنسا أصبحت تعتمد الى حد بعيد على موقف دول أميركا اللاتينية. ولهذا جدّت الدبلوماسية البريطانية والفرنسية في البحث عن حل وسط يرضي اللاتين كما يحفظ مصالحهما الخاصة. وتجسد ذلك الحل في شكل مشروع قرار تم التوصل اليه بالاتفاق بين كل من ارنست بيفن وكارلو سفورزا، وزيري خارجية بريطانيا وايطاليا.

تميز مشروع بيفن ـ سفورزا بالدهاء والغرابة في آن واحد اذ جاء باقتراح حل يجمع بين امكانية الوفاء بالوعد البريطاني الصادر أثناء الحرب بعدم اخضاع السنوسيين للحكم الايطالي مرة أخرى وبين تحقيق رغبة دول أميركا اللاتينية في أن تستعيد ايطاليا بعض نفوذها الاستعماري القديم. فهو أرضى ايطاليا حيث وعدها بالوصاية على طرابلس

الغرب كما أقنع بريطانيا بمنحها حق الوصاية على برقة، بينما ضمن لفرنسا الوصاية على فزان. واشترط أن تصبح ليبيا دولة مستقلة بعد عشر سنوات فيها لو وافقت الأمم المتحدة على ذلك. وكان اعلان هذا المشروع حدثاً مفاجئاً تماماً لليبيا، وخصوصا بالنسبة للطرابلسيين، فخرجت مظاهرات الاحتجاج الغاضبة في شوارع طرابلس، ولم تهدأ الا بعدما سقط المشروع بتاريخ ١٧ مايو. وهو أثار امتعاض البرقاويين أيضاً لأنهم لم يريدوا رؤية الايطاليين يعودون للسلطة عند عتبة دارهم، ولا كانوا مستعدين للقبول بتأجيل الاستقلال الكامل عشر سنوات أخرى بعد أن علقوا عليه آمالهم طويلاً. وفي نظر مجموعة الدول العربية والآسيوية بدا المشروع بمثابة محاولة خبيثة قامت بها الدول الأوروبية لخدمة أطماعها الاستعمارية عن طريق تمزيق ليبيا. وموقف هذه المجموعة وجد تعبيراً قوياً في كلمة السير ظفر الله خان، المندوب الباكستاني، الذي علق على ذلك بقوله:

«ان ليبيا واجهت امكانية التجزئة الى ثلاثة أقسام تقوم فيها ثلاثة أنظمة ادارية تستعمل ثلاث لغات مختلفة، مما يكفل حدوث المزيد من التمزق في اقتصادها وتأخير استقلالها الى أجل غير مسمى».

وكذلك فان الأمير ادريس قابل المشروع باستنكار بالغ، فهو الى جانب اثارة السخط الشعبي الواسع النطاق في ليبيا وضع بأيدي العناصر المتطرفة سلاحاً يمكن أن تشهره في وجه الأمير الذي تعتبره مجرد أداة للسياسة البريطانية. وانزعج جدياً من حملة صحفية مصرية استهدفت تشويه سمعته والاساءة اليه أمام بقية العرب. وكان الملك فاروق، بما عرف عنه من لؤم وسوقية، قد أشار الى الأمير ادريس بازدراء فوصفه بأنه «درويش جاهل». ولما بلغت الأمير أنباء ما حدث في ليك سكسيس، اعترته احدى نوبات الغضب النادرة أثناء أحد لقاءاتي اليومية معه، فقال انه يجد نفسه ضحية للتضليل المتعمد من ناحيتنا، وذلك أن سلفي في الادارة العسكرية كان قد أكد له أنه سوف يتمكن من تشكيل حكومة وطنية لبرقة بحيث تستطيع طرابلس الغرب وفزان الانضمام اليها فيما بعد. وهو قدم لشعبه وعوداً بهذا المعنى، وبالتالي فانه يطالب بريطانيا بالموافقة الفورية على تشكيل حكومة برقاوية وتوقيع معاهدة للتعاون والدفاع المشترك.

«اذا توانت بريطانيا أكثر من هذا، فسوف أضطر الى اخبار الشعب بأنه لا بد لي من التخلي عن الكفاح وعدم المشاركة في الشؤون الليبية بعد ذلك. واما أن أعود الى مصر أو أعيش في برقة كمواطن عادي. ولسوف أتهم بأنني نكثت عهدي بعد كل هذه السنين وخنت شعبي بعد أن كنت أوصيه بالصبر زمنا طويلا. وقد تلقيت تأكيداً بأنه اذا لم تنجح الأمم المتحدة في الاتفاق على مستقبل ليبيا بالكامل، فان بريطانيا نفسها سوف تنظر في



منح الاستقلال لبرقة والتفاوض معها على عقد معاهدة للتعاون والدفاع. وان احترام البرقاويين لبريطانيا آخذ في الضعف بينما ينتشر انتقادهم لها ولشخصي بدعوى أنني أداة لها. والحرية التي كافحنا من أجلها طويلاً غدت مهددة بالخطر».

ولما كانت أحداث ليك سكسيس قد كشفت له عن حقيقة الموقف الدولي، فان المؤتمر الوطني البرقاوي بعث تعليمات الى مندوبيه بالعودة فوراً، كما عبر عن استيائه بارسال برقيتين صريحتين، احداهما موجهة الى الأمين العام للأمم المتحدة، وقد جاء فيها:

«لن نقبل أي قرار عدا الاستقلال، ونرفض الوصاية جملة وتفصيلاً. ونحن نعتبر أنفسنا مستقلين وأحراراً في الارتباط والتعاهد مع أية جهة نشاء».

والى وزير الخارجية البريطانية وجهوا البرقية التالية:

«نرفض أي وصاية، ونحن مستعدون لاعلان استقلالنا الكامل وعقد معاهدة تحالف مع بريطانيا».

وعند أخذ الأصوات على مشروع قرار بيفن ـ سفورزا في الأمم المتحدة، صوتت ٣٣ دولة لصالح الوصاية الايطالية على طرابلس الغرب بينما صوتت ضدها ١٧ دولة وامتنعت ٨ دول عن التصويت، أي أن أغلبية الثلثين اللازمة لاقرار المشروع كان ينقصها صوت واحد فقط. وذلك أن مندوب هايتي★ صوت ضد المشروع على غير المتوقع. وبما أن كتلة دول أمريكا اللاتينية لم تكن قبلت بمشروع القرار الا على أساس أن تنال ايطاليا حق الوصاية على طرابلس الغرب، فانها سحبت تأييدها للمشروع برمته، ومن ثم رفضته الجمعية العامة بأغلبية ساحقة بلغت ٣٧ صوتاً مقابل ١٤ صوتا مع امتناع ٧ دول عن التصويت.

وهكذا انهارت محاولة تقرير مصير ليبيا من خلال المساومات الدولية، وأصبح واضحاً أن مشاريع الوصاية لم تعد واردة، فلا بد من الاستقلال الليبي في وقت قريب. وتأجل النظر في القضية الى حين انعقاد الدورة التالية في شهر اكتوبر من العام نفسه. الا ان الليبيين، بعدما فقدوا الثقة في الأمم المتحدة، لم يكونوا مستعدين للانتظار حتى ذلك

★ لاحظ عضو الوفد الليبي الدكتور علي نور الدين العنيزي الضمير الحي الذي يتمتع به ممثل هايتي السيد اميل سان لو، فكثف اتصالاته به بمبادرة شخصية منه وبدأ معه صداقة شرح له من خلالها معاناة الشعب الليبي من وحشية الاستعمار الايطالي وآمال الليبيين في الاستقلال.

تبع اميل سان لو نداء ضميره الحي وتجاوب مع رجاء الدكتور العنيزي ومع ما املته عليه مشاعره الانسانية المرهفة، فأدلى بصوت هايتي ضد المشروع مخالفاً بذلك تعليمات حكومته. أقيل السيد سان لو من منصبه وعاش لاجئاً في اميركا، واعترافاً من ليبيا لفضله دعي لزيارة البلاد في سنة ١٩٥٤ م حيث استقبل استقبالاً شعبياً ورسمياً حافلاً كما عين مستشاراً لسفارة ليبيا بالولايات المتحدة.

الـوقت. وكان اخفاق مشروع الوصاية عاملاً مشجعاً للأمير وللمؤتمر الوطني، فأخذوا يلحون على نقل السلطة الى أيديهم فوراً. كما أنهم، بالنظر الى حالة العزلة والحاجة الى حليف قوي، ربطوا ذلك المطلب برغبتهم في عقد معاهدة مع بريطانيا. وللخروج من المأزق الذي ترتب على تلك التطورات أصبح همي الأول هو العمل على تفادي أي اندفاع الى اعلان الاستقلال من جانب واحد، لأن ذلك كان من شأنه أن يفسد علاقاتنا بزعماء البلاد ويعرض للخطر سياسة التقدم المدروس التي كنا نتبعها باتجاه اقامة الحكم الذاتي.

فبريطانيا لم تكن مستعدة لمسايرة رغبة الأمير الى حد الاعتراف باستقلال برقة وعقد معاهدة معها في تلك المرحلة بالذات، وان كانت على استعداد لمنح برقة الحكم الذاتي برئـاسـة الأمير كخطوة أولى تمهد للاستقلال النهائي وامكانية الارتباط بالأقاليم الليبية الأخـرى. وأصرت الحكـومـة البريطانية على أن انتقال السلطة يجب أن يحدث بشكل تدريجي منظم وأن بريطانيا لا بد أن تستمر في القيام بمسؤولياتها في البلاد الى أن تتقرر مسألة السيادة نهائياً من قبل الأمم المتحدة. ولم تكن نوايا بريطانيا في هذا الصدد خافية على أحد، فهي كانت قد أعلمت بها الولايات المتحدة ولقيت موافقتها، كما أن سائر أهل برقة كانوا على علم بقرب اقامة الحكم الذاتي في ظل سلطة الأمير. والواقع أن صوت المعارضة الوحيد لم يصدر الا عن مصر التي أصرت على اعتبار الموضوع مؤامرة بريطانية لتجزئة ليبيا، وبالتالي فانها اتخذت موقفاً مضاداً وتلقى أنصارها في بنغازي تعليمات على ذلك الأساس.

وفي الوقت نفسه كان الأمير يحث على الاسراع بالاعلان لارضاء الرأي العام، فأبدت بريطانيا موافقتها على أن يقوم رئيس الادارة البريطانية باصدار بيان كتابي يعلن فيه للمؤتمر الوطني منح الحكم الذاتي المحدود. وفي اليوم الأول من يونيه ١٩٤٩ حضرت الى قصر المنار فوجدت جمهوراً من حوالي ثلاثة آلاف شخص محتشدين خارج القصر وهم يهتفون معاً بشعار «ليبيا واحدة». وفي القاعة العليا بالقصر كان الأمير وأعضاء المؤتمر الـ ١٦٥ قد تجمعوا كلهم قبل حضوري. وافتتح الأمير الجلسة بكلمة قصيرة قال فيها انه طلب من بريطانيا العـظمى والـدول الأخـرى، بما فيها البلدان العربية والاسلامية، أن تعترف باستقـلال برقـة وتوليه مهام الحكم. فقوطع بعاصفة من التصفيق الحاد داخل القصر وخارجه. ولكن عندما أضاف قائلاً انه يتمنى لاخوانه الطرابلسيين أن يحصلوا على مثل ما حصلت عليه برقة ويتحدوا معها تحت راية واحدة، تعالت أصوات اعضاء جمعية عمر المختار بين الجمهور المحتشد أمام القصر حيث أخذت تردد هتاف: «لا استقلال قبل تحقيق الـوحدة. ونحن لا نفرح وطرابلس تبكي. فليسقط الاستقلال المزيف». ورغم



مقاطعة كلامه بتلك الضجة المفتعلة التي كانت تسمع من خارج القصر، مضى الأمير في خطابه معلناً عزمه على تشكيل حكومة وطنية ودعوة برلمان منتخب من الشعب.

وبصفتي رئيس الادارة البريطانية في برقة، قمت للرد على كلمته بالقاء البيان التالي باللغة العربية:

«ان الحكومة البريطانية تعترف بالأمير رئيساً للحكومة البرقاوية باعتباره الزعيم الذي اختاره شعبه اختيارا حرا، كما تعترف رسميا برغبة البرقاويين في الحكم الذاتي وسوف تتخذ كافة الخطوات الرامية الى تحقيق هذا الهدف بما يتفق مع التزاماتها الدولية. وهي توافق على انشاء حكومة برقاوية لتولي مسؤولية الشؤون الداخلية، وتدعو الأمير الى زيارة لندن لبحث الموضوع. وأخيرا فانها، اذ أقدمت على هذه الخطوات، تود التأكيد بأنه لن يتخذ أي اجراء يمكن أن يضر بمستقبل أوضاع ليبيا ككل».

وأنهيت البيان بالتعبير عن مشاعر الصداقة وحسن النية التي تكنها بريطانيا للأمير وللشعب البرقاوي. ولدى خروج الأمير من القصر اعترضه بعض زعماء جمعية عمر المختار بطريقة خالية من اللياقة، فرد على احتجاجهم المتشنج بقوله ان الوحدة سوف تتحقق بالصبر والحكمة. وذكر لي فيما بعد أن السلوك المنافي للنظام كان يرجع بكليته الى قيام نحو مائة شخص من جمعية عمر المختار بتحريض الجمهور على الصراخ واهانة أعضاء المؤتمر عند خروجهم من الاجتماع، مما أثار استياءهم الشديد. كما انتقد رجال الشرطة لعدم ضبط النظام بشكل أكثر فعالية، غير أنني التمست للشرطة بعض العذر، اذ لا أحد كان يتوقع حدوث أي شغب في مناسبة اعتبرت على العموم بمثابة انتصار عظيم للعرب. وكان واضحاً أن جهات خارجية مارست نفوذها على الشبان المتهورين.

وباستثناء هذه المجموعة الصاخبة القليلة العدد لقى اعلان الأول من يونيه قبولاً واسع النطاق فاختفت كل التوترات الناجمة عن التأخير الطويل في تقرير مصير البلاد. وبعث المؤتمر الوطني برقية الى زعماء طرابلس مؤكداً لهم أن الأمير سوف يواصل العمل على تحقيق الوحدة بين طرابلس وبرقة، فقامت الجبهة الوطنية الطرابلسية من تلقاء نفسها بارسال وفد لتهنئة الأمير وطلب مساعدته من أجل توحيد الاقليمين الشقيقين. ودعاه الوفد الى زيارة طرابلس في طريق زيارته الرسمية المرتقبة الى انجلترا. وأبرق عمر باشا الكيخيا الى تركيا وحكومات الدول الأجنبية الأخرى طالباً منها الاعتراف باستقلال برقة. ومرت الأسابيع القلائل التالية في مناقشات حول كيفية تشكيل الحكومة الجديدة واعداد الترتيبات الضرورية لزيارة الأمير الى لندن. ورأى الأمير أن يعين رئيس وزرائه مقدماً ليرافقه الى لندن حيث كان من المقرر بحث الاجراءات اللازمة لانجاز نقل السلطات واصدار دستور

للبلاد، على أن يبقى المؤتمر الوطني قائماً الى حين تعيين مجلس وزاري.

وأصر الأمير على منع أفراد الأسرة السنوسية من تولي المناصب الحكومية، فيما عدا الوظائف الدبلوماسية، مستشهداً على صواب هذا الرأي بسابقة بريطانية مماثلة. ولا شك أنه كان على حق في اتخاذ ذلك القرار. فرغم أن الفرع الرئيسي من الأسرة كان قليل العدد لا يضم سوى الأمير نفسه وأخيه الوحيد وأربعة من بني أخيه، الا أنه كان هنالك نحو خمسة وعشرين من أبناء وأحفاد الفرع الأصغر المنحدر من السيد محمد الشريف، فلو شجعوا على حياة الترف كامتياز تلقائي لهم لأصبحوا مع الوقت عبئاً ثقيلاً. بل قرر الأمير أن يبعد من الحكومة الجديدة حتى السنوسيين الذين قاموا بخدمة متميزة في عهد الادارة البريطانية، فمنح كبار الأسرة وبعض السيدات مكافآت من مخصصات الأمير، بينما كان على صغار أفراد العائلة أن يعتمدوا على مجهوداتهم الخاصة لكسب العيش. وهذه السياسة كان من المحتم أن تعرض الأمير لقدر من الكراهية، ومن أجل مساعدته على تنفيذها قدمت لأفراد الأسرة بعض المعونة لاعالة أنفسهم فوزعت عليهم مجموعة من المزارع والمساكن بايجارات اسمية وتلقى البعض منهم شيئا من الدعم في اقامة مشروعات تجارية خاصة. وكان من ضمن هؤلاء السيد بلقاسم، وهو ضابط سابق في الجيش السنوسي شغل احدى الوظائف الهامة في الادارة البريطانية، وقد منح عطاء تجارة الخردة من مخلفات الحرب في الصحراء. وكذلك السيد الصدّيق الرضا، الابن الأكبر للسيد محمد الرضا، أخ الأمير، وخصص له استئجار مزرعة «تشيريسولا»، والسيد عبد الله العابد حصل على تسهيلات لانشاء شركة لأعمال المقاولات. وأعطيت منح دراسية لبعض شباب العائلة، مثل أبناء السيد العربي الذين أوفدوا الى مدرسة وادي سيدنا القريبة من الخرطوم وأولاد كل من السيد علي الخطاب والسيد صفي الدين، وهم أيضاً أرسلوا لتلقي التعليم العالي في الخارج. ونتيجة لهذه السياسة الحكيمة لم تصبح الأسرة السنوسية في أي وقت من الأوقات عبئا على خزينة الدولة.

وتأجل تسليم السلطة للأمير الى ما بعد زيارته للندن. وفي غضون ذلك اختار لرئاسة الوزارة فتحي الكيخيا، ابن الوجيه البرقاوي المخضرم عمر باشا، وكان تعيينه مفاجأة كاملة أثارت دهشة الجميع. وتحدد يوم ٩ يوليه موعدا لسفر الأمير، ولكن سبقت ذلك التاريخ حادثة تجاوزت أبعادها نطاق السياسة المحلية.

ففي ذات يوم من أوائل يوليه، بينما كنت في احدى زياراتي المعتادة للأمير، أخبرني بأنه في مساء اليوم السابق سمع طرقاً على النافذة، فلما استوضح جلية الأمر وجد ثلاثة شبان

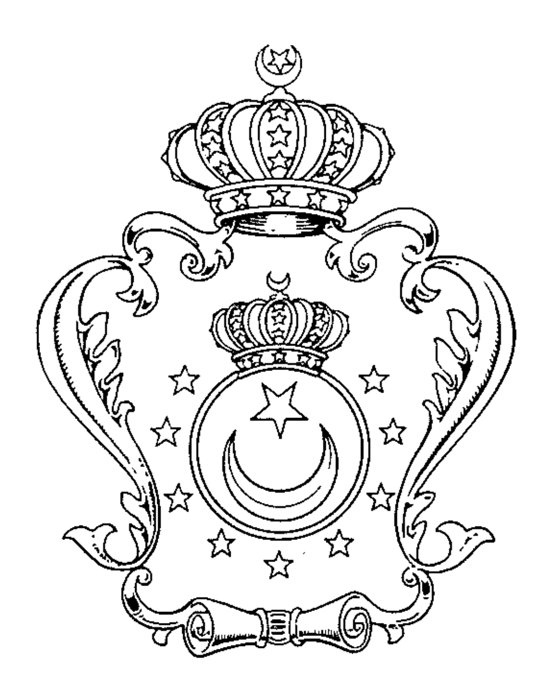
غرباء يطلبون مقابلته بصورة ملحة. وحين دخلوا عليه قالوا انهم لاجئون من مصر بعدما اتهموا زوراً بالاشتراك في جريمة اغتيال النقراشي باشا★. وقد استجاروا بالأمير متوسلين اليه باسم الواجب الاسلامي، فلم يجد بداً من اجابة طلبهم، وأمر باسكانهم في قصر المنار. وقلت له صراحة ان هذا التصرف يضعني في موقف حرج اذ أنني ما زلت مسؤولاً عن الأمن العام والعلاقات الخارجية، فأصر على أنه لا يملك الا أن يجير من يلجأ الى حماه. وحين رجعت الى بنغازي علمت أن اثنين من كبار ضباط الشرطة المصرية قد وصلا من القاهرة جواً في مطاردة الرجال الثلاثة بعدما تم اقتفاء آثارهم الى حدود برقة، وأنهما توجها الى ادارة الشرطة رأساً للبحث عن المطلوبين. وكان من الغريب اننا لم نتلق أية معلومات عن الموضوع من القنصلية المصرية، وبالتالي لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً أكثر من رفع تقرير الى الحكومة البريطانية. وبطبيعة الحال، أخفقت عملية البحث عن الأشخاص الثلاثة، فعاد الشرطيان المصريان الى القاهرة بخفي حنين.

وسرعان ما جاء الرد المصري على تصرف الأمير. ففي اليوم التالي مباشرة أغلقت الحدود المصرية مع برقة، كما ألقي القبض على اثنين من الشخصيات البرقاوية البارزة كانا يزوران مصر. وبعد ذلك طلبت الحكومة المصرية من حكومة بريطانيا تسليم الفارين رسمياً، فلم أجد رداً مناسباً غير الاشارة الى فروض الاسلام، تاركاً للسفارة البريطانية بالقاهرة أن تجادل السلطات المصرية كما تشاء. وهكذا فان أول اجراء اتخذه الأمير بعد الاعتراف الرسمي به أقحمه في صدام مع الحكومة المصرية. وكان رأيي الشخصي أن نسلم الرجال المطلوبين حرصاً على مصلحة الأمن العام وحسن العلاقات مع مصر، ولكن الأمير ظل متشبثاً بموقفه، وما كان باستطاعتي أن آمر بانتهاك حرمة مقره الخاص. وحدث في نفس الوقت أن سكرتير القنصلية المصرية العامة، الذي اتهم بالتواطؤ مع الفارين، هرب من القنصلية هو الآخر. ولكن قبضت عليه شرطة بنغازي، ومن ثم وجهت اليه تهمة اختلاس أموال القنصلية فسلم الى الشرطة المصرية عند نقطة الحدود.

ولما ذهبت الى لندن في وقت لاحق طلبت مقابلة السفير المصري هناك لاطلاعه على حقيقة ما حدث. واستطعت اقناعه بأن عدم تسليم أولئك اللاجئين لم يكن وراءه أي دافع سوى تمسك الأمير باتباع العادات العربية المتعارف عليها، كما انتهزت الفرصة للمطالبة بكف موظفي القنصلية المصرية عن تصرفاتهم الاستفزازية، مشيراً الى اشتراك

★ كان الثلاثة من جماعة الاخوان المسلمين.

بعض أعضاء هيئة القنصلية في نشاطات محلية هدّامة. وكان السفير، وهو من خريجي جامعة أكسفورد، رجلاً متفهماً جداً.



١٦
لندن وبداية الحكم الذاتي ببرقة

بتاريخ ٩ يوليه ١٩٤٩ غادر الأمير بنغازي بطريق البر متوجهاً الى طرابلس ومنها الى أوروبا. وهو لم يكن قد ركب الطائرة قط في أي وقت مضى، ورفض ذلك حتى هذه المرة. وبعد توقف ليلة بمدينة مصراتة، قضى مدة يومين في طرابلس حيث اجتمع بالزعماء الطرابلسيين ووافق على أن يحمل باسمهم ثلاثة مطالب الى الحكومة البريطانية، وهي:

١ . المسارعة بانشاء حكومة طرابلسية على غرار حكومة برقة.
٢ . اقامة اتحاد فدرالي يضم طرابلس الغرب وبرقة في ظل التاج السنوسي بتوحيد الشؤون الاقتصادية والدفاعية.
٣ . تشكيل وفد مشترك لتمثيل ليبيا في دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة المزمع عقدها في سبتمبر ١٩٤٩.

ولما كان الأمير لا يزال يذكر رحلته البحرية المتعبة الى ايطاليا في عام ١٩٢٠ فقد طلب السفر على متن باخرة كبيرة تسلك احدى الطرق البحرية القصيرة. وقامت الحكومة البريطانية بالواجب فأرسلت أحدث بوارج أسطولها، وهي السفينة «فانجارد» الضخمة التي تبلغ سرعتها ٢٠ عقدة. وركبت جماعتنا الباخرة يوم ١٢ يوليه وهي تتألف من الأمير وابراهيم الشلحي وفتحي الكيخيا (رئيس الوزراء المرشح) وأنا. وقضينا رحلة ممتعة بفضل ما لقيناه من لطف القبطان بارهام ومساعديه، كما أن البحر كان في منتهى الهدوء. ولدى نزولنا في مارسيليا بتاريخ ١٤ يوليه استقبلنا القنصل البريطاني هناك فأخذنا في جولة حول المدينة ثم تناولنا طعام الغداء بمطعم «نوايي». وسافرنا بقطار المساء الى باريس فوصلناها في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، وقمنا فيها بجولة قصيرة قبل أن نلحق بالقطار المتجه من محطة شمال باريس الى ميناء السفر الى لندن. وكانت هذه هي المرة الثانية التي يقوم فيها الأمير برحلة الى أوروبا (بعد زيارته الأولى لايطاليا في سنة ١٩٢٠). وقد سرته الرحلة كثيراً، فكان طول الوقت رائق المزاج مفعما بالظرف وروح الدعابة.



وفي نفس الوقت كانت حرمه الأميرة فاطمة الشفا قد سبقتنا الى لندن اذ جاءت بطريق الجو ومعها زوجتي وسكرتير الأميرة السيد أحمد محيي الدين ووصيفتها عزّة ابنة ابراهيم الشلحي، ونزلت الجماعة كلها بفندق «كلاريدجز» طوال مدة الزيارة التي استغرقت أسبوعين. واجتمع الأمير بالمستر بيفن وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية فأثار معه موضوع المطالب الطرابلسية، وألح على ضرورة الاسراع بنقل كامل السلطات الى الحكومة البرقاوية، كما طلب التعجيل بتسليم الممتلكات الايطالية في برقة الى الحكومة، وأعرب عن الرغبة العامة في ابرام معاهدة مع بريطانيا. وعقب هذا الاجتماع أقيمت له مأدبة غداء في «تشارلتون هاوس تيراس» حضرها أيضاً رئيس مجلس اللوردات، اللورد جاويت، ووزير الدفاع البريطاني، وقمت بدور المترجم في كلتا المناسبتين. وكان لصراحة بيفن وصدقه وقع حسن عند الأمير، ثم انه في سياق زيارته لمقر البرلمان قابل رئيس الوزراء المستر آتلي وبعدها زار السير ونستون تشيرشل زعيم المعارضة في ذلك الوقت.

وتضمن برنامج الزيارة اقامة حفل ملكي بحديقة قصر بكنجهام حيث تبادل الأمير والأميرة حديثا مقتضبا مع الملك والملكة. ونظمت أيضا زيارات الى كل من مدن أكسفورد وكيمبردج وايستبورن، حيث كان الجو مشرقا في جميع تلك المناسبات. وفي أكسفورد دعي الى الغداء على مائدة الأستاذ هاملتون جيب بكلية سينت جون، كما عزمه في كمبردج كل من عميد كلية ترينيتي والأستاذ نورمان آندرسون. وكان الأمير قد طلب اجتناب حفلات الاستقبال الضخمة بقدر الامكان، الا أن البرنامج اشتمل على حفل عشاء كبير أقامه السير ادوارد سبيرز بفندق ريتز على شرف الأمير حيث قابل كلاً من اللورد ويفل والسير هارولد ماكمايكل، ومأدبة أخرى مع السير هيوبرت هدلستون والتقى فيها بالسيد عبد الرحمن المهدي الزعيم السوداني الذي كان يزور لندن في نفس الفترة. وعقدت عدة اجتماعات في وزارة الخارجية لمناقشة مراحل انشاء الحكومة البرقاوية الجديدة وشكل الدستور البرقاوي، وهذه حضرتها مرافقا لرئيس الوزراء المرشح، وتقرر خلالها أن يتم نقل السلطات بواسطة اعلان يذيعه رئيس الادارة البريطانية عقب عودة الأمير، ثم تتولى الحكومة الجديدة مهام عملها رسميا بينما يتخذ رئيس الادارة صفة المقيم البريطاني في البلاد. ولم تصادف المحادثات أية عقبات تذكر.

وكان الأمير والأميرة معاً مسرورين بالزيارة وما لقياه من ترحيب حار، وقد أعجبا على الأخص بجمال الريف الانجليزي الذي تجلى في أبهى صوره أثناء ذلك الصيف الصحو على غير العادة. ومن لندن سافرت الجماعة الى باريس فأقامت فيها يومين بفندق فيندوم، ثم انتقلت الى بلدة شاتلجويون حيث قضت مدة شهر كامل بهذا المنتجع الصحي الذي

اشتهر بأن مياهه المعدنية تنفع في علاج الكبد والأمراض الباطنية. وبتاريخ ٣ سبتمبر عاد الأمير من رحلته منتقلا من مرسيليا الى الجزائر على ظهر الباخرة الفرنسية المسمّاة «مدينة الجزائر» ثم بطريق البر عبر تونس وطرابلس. ولم يكن برفقته رئيس الوزارة المرشح فتحي الكيخيا، الذي انقطعت أخباره منذ زيارة لندن في شهر يوليه الماضي، وبعد ذلك اتضح أنه عقب قضاء اجازة في فرنسا على نفقة الحكومة البرقاوية رجع الى الاسكندرية لاستئناف مهمة المحاماة هناك دون أن يكلف نفسه عناء تقديم أية أسباب.

وفي يوم ٧ سبتمبر أقيم في قصر المنار حفل استقبال رسمي بمناسبة عودة الأمير، فأطلقت المدافع تسعة عشرة طلقة تحية له، وجرى استعراض عسكري شاركت فيه كتائب الجيش البريطاني الى جانب قوة دفاع برقة، ولقى الأمير استقبالاً حماسياً من جمهور كبير. وبتاريخ ١٦ سبتمبر أعلن رئيس الادارة البريطانية قرار نقل السلطات الذي خول للأمير اصدار دستور وحدد الصلاحيات الدستورية، كما أوضح الاختصاصات التي يحتفظ بها رئيس الادارة على أن يتخذ صفة المقيم البريطاني من ذلك الحين فصاعدا. وقد منحت الحكومة البرقاوية صلاحيات التصرف في كافة الشؤون الداخلية، بحيث يكون للمقيم البريطاني حق تقديم المشورة الملزمة من بعض النواحي القانونية والمالية. أما المجالات الخاضعة لسلطة المقيم البريطاني فقد شملت الشؤون الخارجية والدفاع وكذلك المسائل المتعلقة بممتلكات الايطاليين ريثما تبت الأمم المتحدة في أمر المستعمرات الايطالية السابقة. كما نص القرار على أن يقوم الأمير بتعيين مستشارين بريطانيين للشؤون القانونية والمالية بناء على توصيات المقيم البريطاني، وأنه لا يجوز تعطيل الدستور أو تعديله الا بموافقة المقيم البريطاني الذي يحتفظ بكامل الحق في الغاء هذا القرار أو تبديله أو تعديله خلال الفترة السابقة لاعلان الاستقلال التام.

وكانت الخطوة التالية هي أن يصدر الأمير مرسوما باقرار الدستور، وهذا ما فعله بتاريخ ١٨ سبتمر ١٩٤٩. ونص الدستور على أن يكون الأمير رئيساً للدولة وقائداً أعلى للقوات المسلحة، ويعين مجلساً للوزراء يكون مسؤولا أمامه مباشرة. أما البرلمان فقد تقرر أن يكون من مجلس واحد فقط يضم عدداً من الأعضاء المنتخبين والأعضاء المعينين وفقاً للنسب التي يحددها مرسوم خاص، على أن يمارس حق التصويت كل البرقاويين الذكور ممن تجاوزوا سن الواحدة والعشرين. ويكون القضاء مستقلاً عن السلطة التنفيذية ويشمل المحاكم المدنية والشرعية ومحكمة الاستئناف.

وبعد حلف اليمين أصدر الأمير مرسوماً بتشكيل هيئة وزارية مؤقتة تألفت من عمر منصور الكيخيا الذي عين بمنصب رئيس الوزراء المؤقت (بدلا من ابنه فتحي الكيخيا



الذي تخلف عن العودة) بالاضافة الى تولي وزارتي الداخلية والمعارف، ومحمد بو دجاجة، وزيرا للمالية، وعلي الجربي وزيراً للأشغال، وحسين مازق وزيراً للزراعة، وخليل القلال وزيرا للصحة، ومحمد الساقزلي وزيراً للعدل. وكان علي الجربي وحسين مازق يملكان خبرة واسعة وقد شغلا من قبل وظائف هامة في الادارة البريطانية، كما كان الآخرون كلهم أشخاصا متعلمين مؤهلين تماماً لشغل المناصب العليا بالحكومة. وباشروا مهام عملهم اعتباراً من ١٨ سبتمبر، وفي نفس اليوم انتقل رئيس الوزراء الجديد الى مكتب رئيس الادارة بمقر عمل الادارة العسكرية البريطانية سابقاً. أما رئيس الادارة نفسه فان جهاز موظفيه أصبح قليل العدد جداً بحكم منصبه الجديد كمقيم بريطاني، فانتقل الى فيلا صغيرة خلف منزله بعد أن تم اصلاحها سريعا لذلك الغرض.

وقبل تسليم مقاليد السلطة للأمير كنت قد اجتمعت بسائر الموظفين البريطانيين في بنغازي وغيرها من المناطق فشرحت لهم الآثار المترتبة على انتقال السلطة من حيث أنهم سوف يصبحون تابعين للحكومة البرقاوية مسؤولين أمام وزرائها المختصين. وتقبل الجميع تغيير الوضع عن طيب خاطر، فلم تلبث أن توطدت علاقات العمل الجيدة بين مختلف الأطراف. وكان الأمير يعين المتصرفين الليبيين في سائر المناطق، ويتبعهم مساعدون بالمديريات، فأصبح ضباط الشؤون المدنية البريطانيون مستشارين لهم. وحصل انتقال السلطات بسهولة ويسر في كل مكان بفضل كياسة الموظفين البريطانيين وتفهمهم وحسن نية البرقاويين نحوهم.

وبعدها بفترة قصيرة استأنفت الأمم المتحدة بحث موضوع المستعمرات الايطالية أثناء الدورة الرابعة للجمعية العامة، فاتضح من المناقشات فورا أن فكرة الوصاية المؤقتة على ليبيا قد طرحت جانباً وحل محلها النظر في اقامة دولة مستقلة موحدة عما قريب. وكان منح برقة استقلالها الذاتي وما تردد حوله من دعاية واسعة على النطاق العالمي قد عجّل كثيرا بحدوث هذا التحول الذي طرأ على الموقف الدولي ازاء القضية الليبية عموما. وجرت مناقشات مطولة على مستوى اللجان المتخصصة في الأمم المتحدة عرضت خلالها وجهة نظر الوفد البرقاوي - الطرابلسي المشترك، وانتهت أخيراً الى وضع مشروع قرار في شهر نوفمبر نال ٤١ صوتا مقابل صوت واحد وامتناع ثمان دول عن التصويت. وفي يوم ٢١ نوفمبر تبنت الجمعية العامة ذلك القرار بأغلبية ٤٨ صوتا مقابل صوت واحد، بينما امتنعت عن التصويت تسع دول.

ونص القرار على أن تصبح ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة في موعد لا يتجاوز أول يناير ١٩٥٢، على أن يوضع للدولة الجديدة في أثناء ذلك دستور تقرره جمعية وطنية تضم ممثلين

عن الأقاليم الثلاثة المكونة للبلاد بالتشاور فيما بينهم كهيئة واحدة. كما نص القرار أيضاً على تعيين مفوض خاص من الأمم المتحدة للمساعدة في صياغة الدستور وانشاء حكومة مستقلة، بحيث يسدى اليه العون والمشورة في أداء تلك المهمة مجلس يتألف من عشرة أعضاء موزعين على النحو التالي:

(أ) مندوب واحد عن كل من مصر وفرنسا وايطاليا وباكستان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة.

(ب) مندوب عن كل من الأقاليم الليبية الثلاثة، بالاضافة الى واحد يمثل الأقليات في ليبيا.

وعينت الجمعية العامة آدريان بيلت كمفوض للأمم المتحدة، وهو دبلوماسي هولندي من أفراد الجهاز الدائم بالمنظمة الدولية، وقبلها اشتغل في خدمة عصبة الأمم. وكانت بيلت رجلاً صريح الطبع متحرراً من النزعات الاقليمية، يتقن اللغات الهولندية والانجليزية والفرنسية بنفس الطلاقة، لكنه لا يتحدث العربية وليس على دراية تامة بخلفيات المسألة الليبية. وهو كان يملك سائر الخصائص اللازمة للقيام بمهمته العسيرة، كالعزيمة والمثابرة والنشاط والقدرة على الاقناع، ويعي جيدا ضرورة ارضاء الرأي العام العربي والتوفيق بين وجهات النظر المختلفة داخل ليبيا نفسها، فضلا عن أهمية المحافظة على علاقات طيبة مع حكومات كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا، والا تعذرت مهمته بدون تعاونها. وكان لدى قدومه يتصور أن الليبيين متى اتيحت لهم حرية التعبير سوف يبدون نفس الآراء التي اعتاد على سماعها من المندوبين العرب الآخرين في الأمم المتحدة، ولذا كان من الطبيعي أن يميل الى التأثر بالعضو المصري في المجلس على اعتبار أنه يمثل الرأي العربي عامة. الا أن المستر بيلت لم يلبث أن اكتشف مع الوقت أن تلك الآراء لا تتفق مع وجهات نظر الليبيين في جميع الأحوال. وأن رأي العرب ليس واحداً على الاطلاق سواء فيما يخص القضية الليبية أو غيرها.

وحين جاء المستر بيلت الى ليبيا في شهر يناير من العام التالي كانت مهمته الأولى هي الحصول على موافقة الزعماء المحليين فيما يتعلق باختيار الأعضاء الليبيين وممثل الأقليات في مجلس العشرة. ولهذا الغرض قام بزيارة الأقاليم الثلاثة للتشاور مع زعماء كل منها. وفي بنغازي قصد أولاً الى استشارة الأمير، فأجابه بطريقة دبلوماسية ممتنعا عن ابداء أي رأي شخصي في الموضوع، بينما أحاله الى أعضاء المؤتمر الوطني باعتبارهم يمثلون الشعب. ومن ثم قدمت لبيلت قائمة بأسماء المرشحين فاختار منهم علي الجربي، وزير الأشغال، كمندوب عن برقة. ولعل بيلت فوجىء بأن المؤتمر الوطني لم يكن متحمساً جداً لقرار الأمم



المتحدة، فالبرقاويون في غمرة الفوز باستقلالهم الحديث العهد شعروا بأن في استطاعتهم أن يفرضوا شروطهم الخاصة للمشاركة في دولة ليبية موحدة. وقد أعرب أعضاء المؤتمر للمستر بيلت عن موقف حازم مؤداه أنهم يقبلون بانشاء دولة اتحادية ليبية في ظل الامارة أو التاج السنوسي بحيث تشترك فيها برقة مع طرابلس على قدم المساواة. وهم رأوا من الضروري تحقيق قدر كبير من الاستقلال الاقليمي باقامة أجهزة تنفيذية ومجالس منتخبة في كل اقليم على حدة، بينما ينحصر الاتحاد الفدرالي في وجود التاج والعلم الواحد والعملة المشتركة. وكان هذا الرأي من الصلابة لدرجة أن مفوض الأمم المتحدة لم يفلح في اقناعهم بأن القرار الدولي يعني قيام دولة ليبية موحدة بالكامل.

١٧
الحكومة البرقاوية
والاستعدادات للاستقلال

نظراً لانقطاع أخبار رئيس الوزراء فتحي الكيخيا، فان الحكومة البرقاوية بدأت ظهورها على المسرح السياسي بلا رئيس. ولكنه بتاريخ ٩ نوفمبر بعث رسالة استقالته من الاسكندرية، فقام الأمير بتعيين عمر باشا منصور الكيخيا بدلاً منه. وظلت الادارة تعمل بموظفين بريطانيين في معظم المناصب الكبرى أصبحوا يخضعون لسلطة رئيس الوزارة البرقاوية بدلاً من رئيس الادارة البريطانية السابق.

وظهرت بوادر الشقاق داخل الحكومة البرقاوية أوائل عالم ١٩٥٠، اذ بدأت معارضة الكيفية التي يتبعها رئيس الوزراء في ادارة دفة الأمور. فقد كان عمر باشا عجوزاً عنيداً سريع الغضب تعود على الأساليب العثمانية التي كانت سائدة قبل أربعين سنة، فلم يكن قادرا على التكيف مع المعايير البريطانية العصرية أو التطلعات العربية الحديثة. وأخذ يعيد تنظيم الادارة وفقاً لمفاهيمه البالية، في حين أن وسائله التي كانت خليطاً من الاجراءات التركية الموروثة عن القرون الوسطى واعتماد الحكم الايطالي على البوليس السري والمخبرين أدت به الى الصدام مع الموظفين البريطانيين والشخصيات الليبية على السواء. فهو كان يقضي معظم وقته في الانصات الى شائعات مبالغ فيها يصبها في أذنيه جواسيسه العديدون مما شغله عن الاهتمام بشؤون الادارة العادية الرتيبة. وكان أيضاً يتميز بعادة مزعجة وهي أنه بمجرد أن تبدأ الحديث معه يغلبه النعاس فينام. ولم يلبث أن تخاصم مع كبير مستشاريه، وكان ادارياً قديراً يدعى جون جتش تعذر عليه التعامل مع الباشا نهائيا فسعى للانتقال الى جهة اخرى، وقد ضايق الباشا زملاءه البرقاويين أيضاً باجراءاته التعسفية وأفكاره الرجعية. ومن ذلك أنه، عندما خرجت مسيرة منظمة للاحتفال بصدور قرار الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٤٩، عمد الى حل حركة الكشافة التي اشتركت فيها، كما وضع جمعية عمر المختار تحت رقابة البوليس، وفرض قيودا صارمة على الصحافة ثم بلغت الأزمة ذروتها حين قام السيد بلقاسم السنوسي، نائب رئيس المؤتمر الوطني، بالقاء خطاب



أمام المؤتمر هاجم فيه سياسة رئيس الوزراء. وكان السيد بلقاسم، وهو من أبناء عمومة الأمير★، يشغل منصب مدير الداخلية في ذلك الوقت. وصوت المؤتمر بعدم الثقة في عمر باشا، فما كان منه الا أن أشار على الأمير بحل المؤتمر. ولكن الأمير أدرك أنه لم يعد يجاري العصر بعدما فقد حتى ثقة زملائه أنفسهم، فمارس صلاحياته الدستورية طالباً استقالة رئيس الوزارة. وفي مارس ١٩٥٠ استبدله بوزير العدل محمد الساقزلي، وهو محرر عقود محترم من بنغازي عرف بالاستقامة والتعقل وكان أرشد من سابقه بكثير.

وما أن مرت تلك الأزمة حتى ثارت مشكلة أخرى حول تعيين المستشارين البريطانيين. فالأمير والبرقاويون عموماً امتعضوا من وجود أولئك المستشارين الذين اعتبروا، كما هو الحال في العراق ومصر، مجرد ستار للسيطرة البريطانية. ولذا طلب الأمير عدم تعيين أي مستشارين آخرين بتلك الصفة، وان لم يمانع في الاحتفاظ بالمستشار القانوني الذي كان على علاقة جيدة برئيس الوزراء الساقزلي. فأبلغت وزارة الخارجية، لكنها لم تكترث للأمر، بل أصرت على أن الحكومة البريطانية ترى من الضروري جداً أن يكون لرئيس الوزراء مستشار خبير وأن يوجد كذلك مستشار مالي، فعمدت الى اختيار اثنين من كبار خبرائها في شؤون البلاد العربية، رغم اعتراضات الأمير على ذلك الاجراء. ويبدو أن المسؤولين في لندن كانوا غافلين عن موجة المد القومي الصاعد آنذاك. فلما أعلن الخبر أبرزته الصحافة المحلية في صدر صفحاتها الأولى تحت عنوان: «عار العراق يتكرر في برقة».

وكانت النتيجة سيئة في الواقع. فالمستشار المالي، الذي كان موظفاً قديراً للغاية سبق أن قضى مدة طويلة في خدمة الحكومة السودانية، استحال عليه أن يوفق بين التعليمات الصادرة اليه من لندن مباشرة وبين تصميم البرقاويين على ادارة شؤونهم المالية بطريقتهم الخاصة، فغادر البلاد بعد بضعة أشهر فقط. أما ستيوارت بيراون، المستشار الأول لرئيس الوزراء، فكان هو الآخر رجلا نشيطا متعدد المواهب له خبرة سابقة في العمل بفلسطين وعدن والعراق، ولكن قلما استشاره رئيس الوزراء الذي اعتمد على مستشاره القانوني في الغالب. وكان بيراون وزوجته الظريفة فريا ستارك، الرحالة والكاتبة المشهورة، قد طاب لهما المقام في برقة فرغبا في البقاء فترة اطول لولا أنه لم يكن ثمة أي ضمان اطلاقاً لاستمرار عمله في المستقبل وقد بات على الأبواب اعلان الوحدة والاستقلال الليبي.

ومع ذلك فان تقدير البلاد لاحتياجها الى المعونات البريطانية وغيرها من المساعدات الفنية الأجنبية كان مشجعاً رغم كل العقبات، كما أن رئيس الوزراء أبدى تفهماً واستعداداً

★ احد الابناء الستة لسيدي أحمد الشريف.



ابناء سيدي أحمد الشريف الستة: الجلوس السيد محي الدين (بالنظارات) ويليه السيد ابراهيم ثم السيد العربي فالسيد عبد الله الوقوف السيد ابو القاسم (بالعمامة) وبجانبه السيد الزبير.



للتعـاون بهذا الصـدد. فقد شكل لجنة لوضع كادر (أو ملاك) للخدمة المدنية تضمن ١٥٠٠ وظيفة حكومية منها ٤٠٠ كان يشغلها موظفون أجانب بينهم ٢٦٠ شخصا من الـبريطانيين، وهي شملت أعـمال الأطبـاء والممرضات والمهندسين والمحاسبين والخبراء الـزراعيين والمـدرسـين. وكانت المصالح الحكومية المختصة بالأشغال العامة، والمالية، والـبريد والمواصلات السلكية واللاسلكية، والتعليم، والتجارة، والجمارك، والخدمات البيطرية تعمل تحت اشراف مراقبين بريطانيين وظلت كذلك حتى سنة ١٩٥٢، وبعدها حل محلهم بالتدريج موظفون ليبيون لدى توفر العناصر المدربة. وكان قد تم ايفاد نخبة من الشباب الى المملكة المتحدة في عام ١٩٥٠ عادوا بعد تأهيلهم لتولي الوظائف الهامة بالحكومة. وفي الوقت نفسه حرصت الحكومة على جودة مستويات العمل في المصالح التي وضعت تحت اشراف الليبيين بالكـامـل، مثـل ادارة المتصرفيات وأجهزة الشرطة ودور القضاء (التي بقي فيها عدد من القضاة الانجليز).

وأكبر مشكلة واجهت الحكومة البرقاوية الناشئة هي قلة الموارد المالية. ففي عهد الادارة الـبريطانية كان عجـز الميزانية (البالغ نحو ٧٣٨ الف جنيه استرليني في سنة ١٩٤٨ - ١٩٤٩) يسدد بمنحة من الخزينة البريطانية. وفي عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ارتفع العجز الى مليون جنيه، فأصبح واضحا أنه لا بد من زيادة المنحة زيادة كبيرة. ولذا تم الاتفاق على تقسيم الميزانية الى جزئـين: فنفقات الحكم المحلي، بما فيها مخصصات الأمير والوزراء والـبرلمـان والشرطـة والمصروفـات الادارية الجـارية وتكـاليف الخـدمات العامة تغطيها الايرادات المحلية، بينما تتكفل المنحة البريطانية بالانفاق على تشغيل الموظفين الأجانب وتنفيذ مشـاريع التنمية، مثـل اقـامة المدارس الجديدة والمستشفيات ومحطات الكهرباء والمـوانيء والـطرق والمـراكـز الزراعية والبيطرية. وحددت مخصصات الميزانيتين بمبلغ مليونين ونصف المليون من الجنيهات الاسترلينية بالنسبة للأولى ومبلغ مليون ومائتي جنيه للثانية. واستدعى هذا التوزيع زيادة الدخل المحلي بما يقرب من نصف مليون جنيه، وذلك عن طريق رفع الرسوم الجمركية ورسوم الانتاج، وكانت تقريبا هي النوع الوحيد المقبول من أنواع الضرائب. وزيادة الرسوم أدت بالضرورة الى ارتفاع تكاليف المعيشة، مما سبب بعض التذمر، الا أن الحكومة لم تشعر بامكانية فرض أية ضرائب مباشرة في تلك المرحلة. وكان الأمير والحكومة معا غير راضين عن ضآلة حجم المساهمة البريطانية، ولكن لم يكن بالامكـان تقـديم المزيد من المساعدة نظراً لأن الحكومة البريطانية كانت ملزمة بالانفاق على طرابلس أيضاً ومستقبل البلاد يكتنفه الغموض.



وتجسدت المشكلة التالية في عملية اجراء انتخابات المجلس التشريعي البرقاوي التي تمت خلال شهر يونيه. وقد انتخب المجلس بمعدل نائب واحد عن كل عشرين ألف نسمة من السكان، فتألف من خمسين عضواً منتخباً بالاضافة الى عشرة أعضاء آخرين عينهم الأمير. وأسفرت الانتخابات عن فوز الموالين للسنوسية بأربعة وأربعين مقعداً للعناصر المؤيدة للحكومة، بينما حصلت رابطة الشباب (أي نادي عمر المختار سابقاً) على ستة مقاعد فأصبحت تمثل المعارضة. وانتهى دور المؤتمر الوطني البرقاوي بانتخاب هذا المجلس الجديد الذي كان أكثر أعضائه هم نفس نواب البدو والحضر السابقين (مع استثناء ممثلي الطائفتين اليهودية واليونانية بطبيعة الحال). وبعد الافتتاح الرسمي للمجلس بتاريخ ١٢ يونيه تأجل حتى يوم ٢١ أكتوبر، وعندها عاد الى الانعقاد وتواصلت جلساته لغاية ١٥ ديسمبر. وجرت داخل المجلس مجادلات قوية، خصوصا من جانب الفئة القليلة التي تمثل رابطة الشباب، الا ان مداولاته بدت غير واقعية في ضوء حتمية التحول الجذري الذي كان على وشك الحدوث في البنية البرقاوية الداخلية (مع اقتراب تنفيذ قرار الأمم المتحدة). وقد ثار نقاش حاد حول موضوع مقاطعة اسرائيل أدى برئيس الوزراء الى تأجيل الدورة الثانية في أبريل ١٩٥١ ثم ارجائها الى أجل غير مسمى.

وكانت ثمة مسألة أخرى ذات أهمية ملحة في نظر الحكومة وهي قضية التصرف في الممتلكات الايطالية السابقة التي بقيت تحت الحراسة البريطانية. وهذه المسألة لم تحسم نهائياً الا بعد توقيع معاهدة بين ليبيا وايطاليا في سنة ١٩٥٦، وحتى ذلك الوقت أتيح للحكومة البرقاوية استعمال المباني الحكومية الايطالية السابقة، أما الممتلكات الخاصة فأجرتها الحراسة البريطانية لبعض الأفراد ريثما يتم التوصل الى تسوية نهائية بشأنها.

وشهد عام ١٩٥٠ حدوث تقدم ملموس على طريق الاسراع بتطبيق قرار الأمم المتحدة، وذلك بفضل همة المفوض الدولي المستر بيلت ونشاطه الدائب. وكانت الخطوة الأولى هي تشكيل لجنة تحضيرية تقوم باتخاذ الترتيبات الضرورية لانتخاب جمعية وطنية ليبية ووضع دستور للبلاد. وقد تكونت اللجنة التحضيرية من واحد وعشرين عضواً يمثلون الأقاليم الثلاثة بالتساوي. فاختار الأمير سبعة ممثلين لبرقة، واختار ممثلي فزان زعيمها أحمد سيف النصر. ونظراً لوجود أحزاب سياسية متضاربة الآراء في طرابلس الغرب، قام باختيار ممثليها مفوض الأمم المتحدة شخصياً بعد التشاور مع الزعماء المحليين، وكان أبرزهم بشير السعداوي. وقد أثارت عملية الاختيار هذه كثيرا من الجدل، فلم تنعقد اللجنة حتى شهر يوليه ١٩٥٠ حيث ترأسها محمد أبو الأسعاد العالم مفتي طرابلس.

وكانت أولى مهام اللجنة هي تأسيس جمعية وطنية ليبية، وترتبت على ذلك مناقشات عديدة حول ما اذا كان ينبغي تشكيل الجمعية الوطنية عن طريق الانتخاب أو التعيين، وهل يكون تأليفها على أساس التمثيل المتكافىء للأقاليم الثلاثة أم بحسب عدد السكان في كل منها. ولما كان عدد سكان طرابلس الغرب أكبر بكثير من تعداد السكان في الاقليمين الآخرين، فان التمثيل النسبي كان من شأنه أن يعطي الطرابلسيين أغلبية كبيرة. وقد أصر المندوبان المصري والباكستاني في مجلس العشرة التابع للأمم المتحدة على اجراء انتخابات وفقاً لعدد السكان، وحاولا جهدهما اقرار هذا الرأي، غير أن اللجنة التحضيرية آثرت أن تعتمد التمثيل المتساوي للأقاليم الثلاثة. وقررت تشكيل الجمعية الوطنية من ستين عضوا بواقع عشرين عن كل اقليم يجري اختيارهم بطريق الشورى. فممثلوا برقة يختارهم الأمير وممثلوا فزان يختارهم زعيم المنطقة، بينما يترك لرئيس اللجنة أن يختار ممثلي طرابلس. وتحدد موعد افتتاح أول جلسة لها بتاريخ **٢٥** نوفمبر **١٩٥٠**.

والمستر بيلت، بعدما بدأ مهمته على اعتبار أن قرار الأمم المتحدة يعني اقامة دولة ليبية موحدة بالكامل وأن شكل الحكم فيها تقرره جمعية تأسيسية منتخبة للتمثيل النسبي، لم يلبث أن اكتشف أن أهالي برقة وفزان يحملون أفكاراً مغايرة تماماً. ومن خلال حواره المستمر مع قادة الرأي في هذين الاقليمين، تبين له أن السبيل الوحيد لانجاز مهمته في نطاق الفترة الزمنية المحددة بقرار الأمم المتحدة انما يكمن في القبول بمبدأ التمثيل المتساوي في الجمعية الوطنية التي أسست من أجل اتخاذ الخطوات المؤدية الى الاستقلال. كما اتضح له أيضاً أن الرأي العام المحلي في برقة وفزان يفضل الدخول في اتحاد فدرالي فضفاض نوعا وليس مستعدا للعمل على اقامة وحدة اندماجية تامة. فوجد أن المبدأ الوحيد الذي التقى حوله اجماع الرأي في الأقاليم الثلاثة هو أختيار الأمير ادريس رئيساً للدولة الجديدة.

وحين اجتمعت اللجنة السياسية المنبثقة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة للنظر في أول تقرير سنوي يقدمه مفوض الأمم المتحدة في أكتوبر **١٩٥٠**، ركزت وفود الدول العربية هجوما على ما أسمته بالصفة غير الديمقراطية للجمعية الوطنية والميول الانفصالية للأقاليم الثلاثة التي تكون ليبيا. واتهمت بريطانيا وفرنسا بمحاولة تجزئة البلاد، متناسية أن كافة الاجراءات التي اخذها مفوض الأمم المتحدة انما تمت بالتشاور مع الليبيين أنفسهم حيث أن المسؤولين عن الادارتين البريطانية والفرنسية لم يكن لهم أي دخل في الاعداد لها. وفي خطابه أمام الجمعية العامة ذكر المستر بيلت أن قرار تشكيل الجمعية الوطنية عن طريق التعيين لا الانتخاب اتخذ خلافاً لمشورته الخاصة، كما أن مبدأ التمثيل



المتساوي بين الأقاليم الثلاثة كان لا بد من اعتماده بمثابة وسيلة سياسية لا مفر منها. فكل من برقة وفزان جعلتا ذلك المبدأ شرطا ضروريا لاشتراكهما سواء في اللجنة التحضيرية وفي الجمعية الوطنية. وقال ان أيا من هاتين الهيئتين لم يكن بالامكان تشكيلها على أي أساس آخر، ولولا القبول به لما أمكن تحقيق أول خطوة ضرورية باتجاه الوحدة الليبية. وأوضح المستر بيلت أن الاستعدادات اللازمة لاجراء الانتخابات لن يمكن الانتهاء منها الا بعد فترة من بداية عام ١٩٥١، مما يتعذر معه اعلان الاستقلال في موعده المحدد بقرار الأمم المتحدة، وهو يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١. ومع ذلك ألح المندوب المصري على المطالبة بادخال تعديل يقضي باجراء انتخابات غير أنه فشل في الحصول على أغلبية الثلثين اللازمة فرفض اقتراحه. وأشار المستر بيلت الى أن التقدم الذي أمكن تحقيقه نحو تنفيذ قرار الأمم المتحدة انما جاء نتيجة للتوصل الى تسوية دقيقة بين الليبيين في الأقاليم الثلاثة، فأي اخلال بها ربما يؤدي الى انهيار فكرة الوحدة الليبية من أساسها. وقد بدأ انعقاد الجمعية الوطنية في مدينة طرابلس بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٩٥٠، وفي يوم ٢ ديسمبر قررت أن تكون ليبيا دولة اتحادية.

وتلا ذلك اتخاذ قرار بأن يكون شكل الحكم ملكياً وأن يعرض على الأمير ادريس اعتلاء عرش المملكة، فقوبل القرار بالهتاف والتصفيق من أعضاء الجمعية. ورد الأمير شاكراً لها ثقتها فيه، لكنه طلب منها تأجيل الاعلان عن تنصيبه ملكا الى أن يتم اصدار الدستور الجديد وتنتهي الخطوات التمهيدية المنصوص عليها في قرار الأمم المتحدة. وقرر أعضاء الجمعية تقديم البيعة★ التقليدية أو يمين الولاء للملك شخصيا، ثم قاموا بذلك فعلا في يوم ١٧ ديسمبر ١٩٥٠ اذ حضر الأعضاء الستون كلهم الى بنغازي فأعلنوا مبايعتهم له في قصر المنار. وكان لهذا العمل مغزاه المتميز من حيث أن التقاليد الاسلامية تقضي بأن البيعة متى قدمت لشخص لا يجوز سحبها بعد ذلك. وهكذا فان المواطنين الليبيين في أجزاء ليبيا الثلاثة تعهدوا بالولاء التام للأمير ادريس عن طريق ممثليهم الشرعيين المختارين وفقا لقرار الأمم المتحدة.

★ نص البيعة (ملحق الناشر رقم ١).

١٨
الاستقلال في آخر المطاف

طوال عام ١٩٥١ ظلت الاستعدادات للاستقلال جارية على قدم وساق بتوجيه نشط لا يعرف الكلل من جانب آدريان بيلت الذي استمر في تبادل الآراء مع الأوساط المحلية وتنظيم البرنامج اللازم لتطبيق قرار الأمم المتحدة. وقد ساهم بدرجة كبيرة في رسم صورة الدولة الليبية المقبلة، حيث عمل بمبدأين مقبولين عموماً، وهما الملكية السنوسية والحكومة الاتحادية، فأقنع المتشككين بأن هاتين الدعامتين هما وحدهما اللتان يمكن أن يقام عليهما صرح الاستقلال والوحدة في حدود المهلة الزمنية الضيقة المسموح بها في قرار الأمم المتحدة. وهو توصل الى ادراك مدى ترسخ الخلافات السياسية والحزازات العاطفية التي ظلت تفرق بين برقة وطرابلس عبر فترات طويلة من تاريخهما، ولا سيما أثناء عهد الاحتلال الايطالي، فأخذ يسعى بلا انقطاع الى التوفيق بينهما.

وقامت بصياغة الدستور الليبي لجنة منبثقة عن الجمعية الوطنية تكونت من ١٨ عضوا ووضع بيلت تحت تصرفها كل ما استطاع توفيره من المساعدة القانونية والفنية. وقد عينت اللجنة مجموعة عمل من ستة أشخاص ضمن عضوين عن كل اقليم وعقدت ٩٦ جلسة خلال الفترة ما بين شهر ديسمبر ١٩٥٠ ونوفمبر ١٩٥١. وفي تلك الأثناء تم اتخاذ خطوات معينة بالاتفاق مع الدولتين المكلفتين بالادارة المؤقتة توطئة للاستقلال.

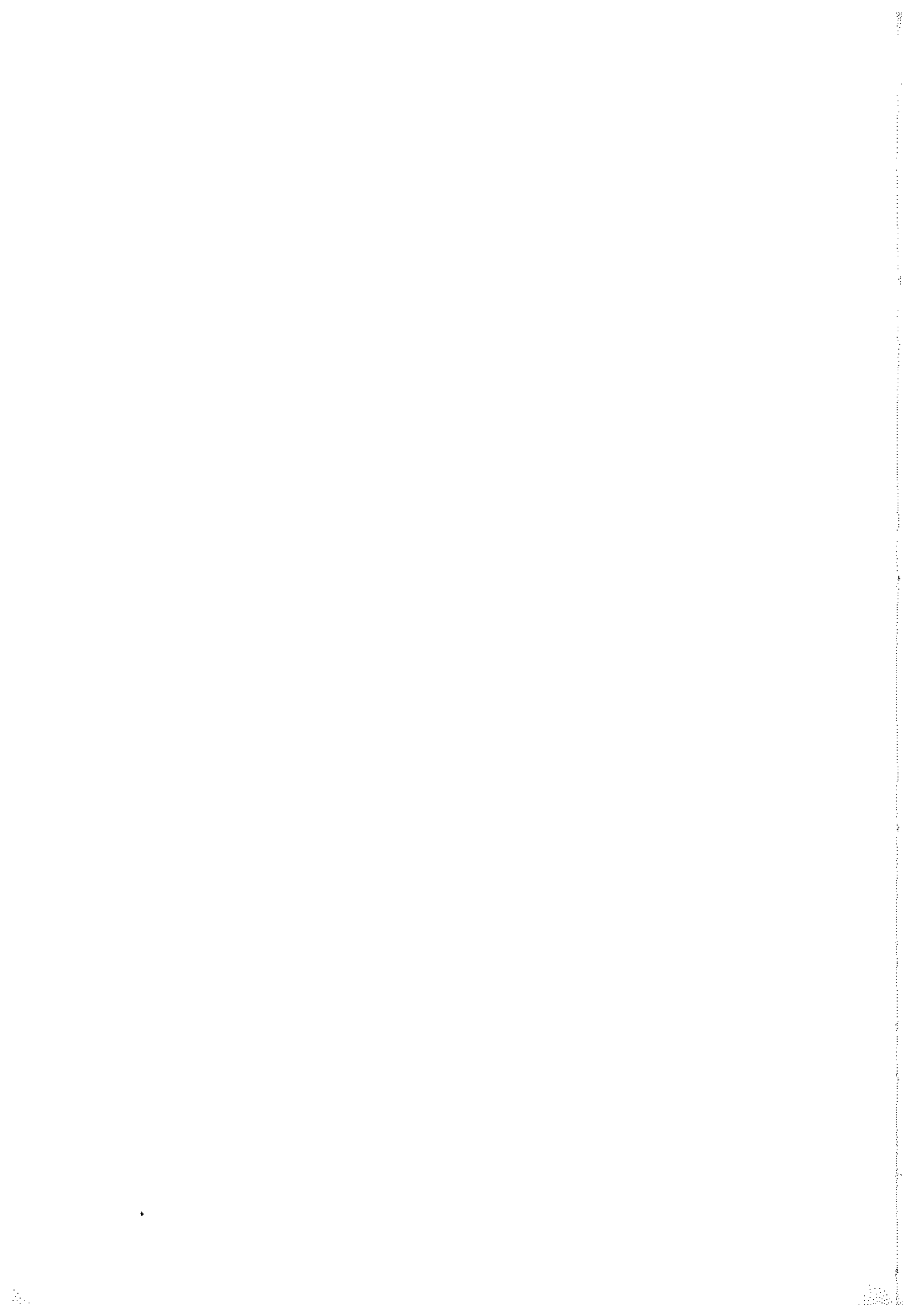
ففي مارس ١٩٥١ أنشئت حكومات محلية مؤقتة لطرابلس وفزان على غرار الحكومة البرقاوية القائمة بالفعل. وكانت الخطوة التالية اقامة حكومة اتحادية مؤقتة، حيث تولى محمود المنتصر رئاسة كل من الحكومة الطرابلسية المؤقتة والحكومة الاتحادية الانتقالية، وأصبح أحمد سيف النصر رئيسا لاقليم فزان. وكانت مهمة تلك الحكومات هي استلام السلطات المنقولة أولاً بأول من الدولتين القائمتين بالادارة في ليبيا حتى تمت العملية عند مطلع يناير ١٩٥٢.



أما المجموعة المكلفة بصياغة الدستور فانها، بعد الاطلاع على دساتير عدد من الدول التي تعمل بالنظام الاتحادي، انتقلت بمساعدة مستشار بيلت القانوني الى وضع المواد المتعلقة بتوزيع السلطات بين الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات. فتقرر أن تختص الحكومة الاتحادية بالشؤون الخارجية والدفاع الوطني والمالية والمواصلات والعدل والتعليم العام والصحة، ويترك ما عدا ذلك لاختصاص الولايات. وبعدئذ مضت في اعداد البنود الخاصة بالحقوق الأساسية استناداً الى دساتير كل من مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن واعلان حقوق الانسان. ثم ان المسائل الهامة المتعلقة بصلاحيات الملك ومجلس الوزراء ومجلسي النواب والشيوخ وموقع العاصمة نوقشت بدورها وتم الاتفاق عليها. وقد تضمنت مسودة الدستور في مجملها اثنى عشر فصلاً، وكانت هيئة الصياغة كلما فرغت من اعداد أحد الفصول أحالته الى اللجنة الدستورية لاعتماده. وهذه اللجنة التي عقدت خمسة وعشرين اجتماعا لم تقم بادخال أية تغييرات جوهرية على الصيغة المقدمة اليها.

وبتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٥١ بدأت مناقشة مشروع الدستور في الجمعية الوطنية. ونظرا للضغوط المتواصلة التي طفقت تمارسها المعارضة في طرابلس وأدت الى عرقلة العمل، انتقلت الجمعية الى بنغازي في شهر اكتوبر حتى يتمكن أعضاؤها من دراسة نصوص الدستور في جو أهدأ. وبفضل مساعدة آدريان بيلت وتوجيهات الملك زالت نقاط الخلاف شيئاً فشيئا. وكان قد طرح اقتراحان بشأن اختيار العاصمة، قال أحدهما بأن تكون مدينتا طرابلس وبنغازي عاصمتين للبلاد ولكل منهما نفس مكانة الأخرى، بينما اتجه الرأي الآخر الى القول بأن مقر الحكومة الاتحادية المعتاد ينبغي أن يكون في طرابلس. وبعد اجراء مشاورات غير رسمية مع الملك ومفوض الأمم المتحدة، وافقت الجمعية على الاقتراح الأول. وأخيراً تم اعتماد الدستور بقرار من الجمعية الوطنية فصدر بتاريخ ٧ أكتوبر ١٩٥١.

وخصصت بقية دورة الجمعية الوطنية للنظر في قانون الانتخابات فأقرته بالاجماع في ٦ نوفمبر ١٩٥١. وبذلك انتهت أعمال الجمعية، لكنها بقيت في حالة انعقاد دائم الى حين اعلان الاستقلال. وقد أشاد آدريان بيلت بجهودها في تقريره الى الأمم المتحدة. فعلى الرغم من تضارب وجهات النظر أبدى أعضاء الجمعية قدراً كبيراً من الاعتدال والتعقل، فيما ظلوا يعملون معاً بأقصى جهد ممكن لانجاز المهمة المنوطة بهم خلال المدة المقررة. ومن ثم أصبح كل شيء جاهزاً لاعلان الاستقلال الرسمي الذي تحدد له يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٥١. وبتاريخ ٢٣ ديسمبر وقعت في كل من طرابلس وبنغازي آخر البيانات الرسمية



سيدي ادريس يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م يعلن استقلال ليبيا ويرى خلفه محمود المنتصر رئيس الحكومة الاتحادية .

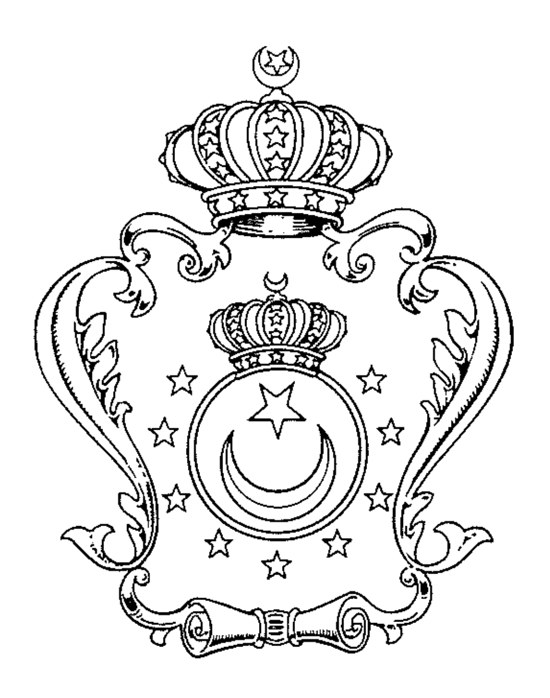
الصادرة عن الادارة البريطانية في البلاد بحيث انتقلت الى الملك سائر السلطات التي احتفظ بها المقيم البريطاني من قبل.

ومنذ الصباح الباكر يوم ٢٤ ديسمبر بدأت الجماهير في التجمع أمام قصر المنار في بنغازي. ولم يرتفع هذه المرة أي صوت نشاز وسط التهليل الجماعي للمناسبة التاريخية. وفي القاعة العليا بالقصر تجمع الضيوف المدعوون. وكان مع الملك وزراء الحكومة الاتحادية المؤقتة برئاسة محمود المنتصر. كما كان من أبرز الحاضرين آدريان بيلت، مفوض الأمم المتحدة، الذي كان لنشاطه وهمته أكبر الفضل في اتمام العمل بقرار الأمم المتحدة قبل موعده المحدد. وقد حضرت مجموعة صغيرة من الدبلوماسيين البريطانيين كان على رأسها السير أليك كيركبرايد الذي نقل من عمان مؤخراً كمرشح لمنصب الوزير المفوض، وكذلك المقيم البريطاني السابق. وكان بين الحضور أيضاً لفيف من كبار أعيان ليبيا، وفي مقدمتهم مفتي طرابلس أبو الأسعاد العالم وعمر باشا الكيخيا بمعطفه الرسمي ووشاحه العثماني، الى جانب عدد من زعماء القبائل الذين أدوا دورهم المعروف في مقاومة الاستعمار الايطالي وفي العمل على تحقيق الاستقلال عقب الحرب العالمية الثانية. فقد كان هذا اليوم تتويجا لجهود بذلت وتضحيات قدمت على مدى أربعين عاما، ويمكن القول بحق أن الاستقلال الليبي تشكل في أتون الحرب وارتوى بدم الشهيد عمر المختار وكل من سقطوا مثله مقاتلين من أجل الحرية في تلك الحرب الطويلة الأمد ضد الفاشست.

ولدى دخول الملك وقف الحاضرون جميعا فيما ضجت القاعة بالتصفيق، وهو يسير متمهلا نحو شرفة القصر ليعلن استقلال بلاده رسميا أمام الجماهير التي احتشدت بانتظار تلك اللحظة العظيمة:

«يسرنا أن نعلن للأمة الليبية الكريمة أنه نتيجة لجهادها وتنفيذا لقرار هيئة الأمم المتحدة الصادر في ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ قد تحقق بعون الله استقلال بلادنا العزيزة. ونعلن رسميا أن ليبيا منذ اليوم أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة. وبناء على قرار الجمعية الوطنية الليبية الصادر بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٥٠ نتخذ لنفسنا لقب ملك المملكة الليبية المتحدة، وسنمارس سلطاتنا وفقاً لأحكام الدستور. وعلينا جميعاً أن نحتفظ بما قد اكتسبناه بثمن غال وأن ننقله بكل حرص وأمانة الى أجيالنا القادمة.

واننا في هذه الساعة المباركة نذكر أبطالنا ونستمطر شآبيب الرحمة والرضوان على أرواح شهدائنا الأبرار ونحيي العلم المقدس رمز الجهاد والاتحاد وتراث الأجداد، راجين أن يكون العهد الجديد الذي يبدأ اليوم عهد خير وسلام للبلاد».



١٩

ليبيا في ظل الملك ادريس

ادراكاً منه لمدى ضعف الدولة الجديدة والأخطار المحدقة بها، شرع الملك منذ البداية في البحث عن أفضل الوسائل الممكنة لصون الاستقلال الذي عانت بلاده وشعبه الأهوال في سبيل نيله. ومع أن الكثيرين من المراقبين وقت الاستقلال نظروا الى هذه الدولة الناشئة، بعاهلها المسن وشعبها الممزق ودخلها الهزيل، فلم يروا في طريق مستقبلها غير المحن والكوارث، الا أن الملك ادريس استطاع بالحكمة وبعد النظر والنزاهة ومضاء العزيمة أن يقود بلاده أكثر من سبعة عشر عاما عبر بحار شديدة التلاطم.

وهو رأى قبل كل شيء أن ليبيا بحاجة الى حليف قوي محل ثقة من أجل المحافظة على بقائها كدولة حديثة العهد. وكان قد شهد في حياته دولا ضعيفة تجتاحها دول أقوى بينما يقف العالم موقف المتفرج. فالحق ما زال للقوة، ولا يمكن الاطمئنان كثيراً الى قدرة الأمم المتحدة حتى على حماية آخر مولود لها في ذلك الوقت. وكانت الحاجة الضرورية الثانية هي الحصول على مساعدة مالية لتمكين البلاد من بناء اقتصاد متين. ولسد هاتين الحاجتين معا اتجه الملك أولا الى بريطانيا التي كان يوليها ثقة كبيرة من حيث أصالة الرأي السياسي وعزة الجانب وحس العدالة والانصاف. بل ان رغبته في عقد معاهدة مع بريطانيا كانت جذورها ترجع الى سنة ١٩٤٠ منذ ان جازف بكل شيء مراهنا على حتمية انتصارها النهائي الذي لم يخالجه فيه أدنى شك. وجرى التفاوض على معاهدة الصداقة والتحالف بين بريطانيا وليبيا على يد كل من السياسي القدير محمود المنتصر، رئيس أول وزارة ليبية، والسفير البريطاني المحنك أليك كيركبرايد الذي قضى جل حياته بين العرب. وكان الملك أدريس يتابع سير المحادثات ويوجهها عن كثب حتى تم توقيع المعاهدة بتاريخ ٢٩ يوليه ١٩٥٣. ووضعت موقع التنفيذ بطريقة سادها التعقل والتفاهم الكاملين، وهي لا شك كانت مفيدة لليبيا سواء كضمانة ضد التدخل الخارجي وكمصدر لدعم مواردها المالية الضئيلة. وكانت أحكام المعاهدة بسيطة واضحة، فهي قامت على مبادىء السلام



والصداقة والتحالف الوثيق بين الجانبين. وقد تعهد كل من الطرفين بألا يتخذ تجاه دولة أخرى أي موقف يتنافى مع الحلف أو قد يسبب المتاعب للطرف الثاني. وفي حالة اضطرار أحد الطرفين الى الدخول في حرب أو صراع مسلح يتحتم على الطرف الآخر أن يهب لنجدته من باب الدفاع المشترك.

وتناولت النواحي المالية والعسكرية اتفاقيتان منفصلتان. فقدمت بريطانيا اعانة قدرها ٢٧٥٠٠٠٠ جنيه استرليني كانت في البداية هي الدعم الخارجي الوحيد لسد العجز في الميزانية الليبية، مما ساعد الدولة على توفير مقومات حياتها خلال السنوات الصعبة الأولى. وفي مقابل ذلك أتيحت لبريطانيا تسهيلات معينة لايواء وتدريب قوات عسكرية واستعمال مطار العدم. وبعد خمس سنوات رفعت قيمة المنحة البريطانية الى ٣٢٥٠٠٠٠ جنيه، ثم أضيفت اليها زيادات أخرى في سنوات الضائقة المالية الشديدة. واستمرت تلك المدفوعات لغاية عام ١٩٦٦، وبعدها استغنت البلاد عنها بتدفق ايرادات النفط الليبي. وكانت مدة المعاهدة عشرين سنة رهن اعادة النظر فيها بعد عشر سنوات على أن تصبح قابلة للتجديد باتفاق الطرفين لدى انقضاء مدتها. والحاميات البريطانية، التي قلما زاد قوام أي منها عن لواء عسكري واحد، سحبت من طرابلس في عام ١٩٦٦ كما انسحبت من بنغازي أيضا سنة ١٩٦٧، فلم تبق من القوات البريطانية المرابطة في ليبيا سوى فرقة صغيرة في طبرق وفي مطار العدم. ولم توجد بليبيا قط أية قاعدة بريطانية هامة، كما أن القوات البريطانية لم يطلب منها مساعدة قوات الأمن الليبية في أي وقت من الأوقات، ولا استخدمت ليبيا بمثابة قاعدة لعملياتها في أي مكان آخر. فلم يحدث أن انطلق من ليبيا أي عمل عسكري، لا في حرب السويس ولا أثناء الحرب العربية – الاسرائيلية سنة ١٩٦٧، كما تردد باطلا في مزاعم اذاعة القاهرة★.

ورحيل البريطانيين انما عز على الملك ادريس الى حد ما لمجرد أنه كان كعهده دائما رائع الثبات على وده للأصدقاء القدامى. ولكنه أدرك أن استمرار الوجود البريطاني أصبح

★ جاء في كتاب (مذكرات من ثلاث عوالم) لوليام كلارك السكرتير الصحفي لمكتب رئيس الوزراء البريطاني في الفترة من اكتوبر ١٩٥٥ م الى نوفمبر ١٩٥٦ م، نشر دار سيد جويك وجاكسون ـ لندن ـ يوليو ١٩٨٦ م، وقد نشرت فقرات منه في جريدة الاويزرفر في عددها يوم الاحد ٢٩ يونيو ١٩٨٦ م:

(كان الرفض الليبي عنيفاً لنيتنا في استعمال قواعدنا في ليبيا في الامداد «وبعبارة اخرى كل قواعدنا في ليبيا والتي كانت تكلفنا الكثير لا قيمة لها في المناسبة الوحيدة التي احتجنا لاستعمالها فيها» وقد اكد وزير الدفاع لرئيس الوزراء بأن هذا الامر لن يتسرب، ولذلك انفجر رئيس الوزراء في غضب هستيري عندما جائت صحف المساء تحمل هذا العنوان «تعثر الامداد الجوي فوق البحر المتوسط»).

موضع خلاف يثير حفيظة البعض من غلاة القوميين العرب خارج البلاد وداخلها على السواء. ومع ذلك فهو ظل على قناعته بأن ليبيا محتاجة الى تعزيز هيبتها بمعاهدات دولية الى أن تملك من أسباب المنعة ما يكفي لصد أي تدخل من جانب الجيران الأقوياء. وبعدما كانت سياسته تقوم على توفير الدعم الخارجي بالاعتماد على بريطانيا في أولى مراحل الاستقلال، بدأ الملك ادريس بمرور الوقت يفكر في امكانية التحالف مع دولة قوية أخرى، وهي الولايات المتحدة الأمريكية بالذات. وحانت الفرصة لذلك في أوائل الخمسينات لما اتجهت الولايات المتحدة الى تكثيف وجودها العسكري في البحر الأبيض بسبب تدهور العلاقات مع روسيا السوفياتية. وكان السلاح الجوي الأمريكي قد استخدم مطار الملاّحة القريب من طرابلس بالاتفاق مع البريطانيين أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعدئذ لم تظهر الحكومة الأمريكية أية رغبة في توسيعه أو حتى الاستمرار في استعماله، فأهمل المطار الصغير. ولكن بداية الحرب الباردة أدت بالولايات المتحدة الى اقامة سلسلة من القواعد الجوية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط كاجراء وقائي ضد الاتحاد السوفياتي، فاتضحت أهمية مطار الملاّحة كموقع استراتيجي في قلب المنطقة.

وهكذا، فبعد أن تم التوصل الى ابرام المعاهدة البريطانية على نحو مرض كما رأينا، التفت مصطفى بن حليم، الذي خلف محمود المنتصر كرئيس للحكومة سنة ١٩٥٤، الى النظر في طلب الولايات المتحدة، لعقد اتفاقية رسمية بشأن استخدام مطار الملاّحة. وقد شجعه الملك على الاستجابة للطلب الأمريكي لأنه كان يخشى احتمالات انتشار النفوذ السوفياتي المخرب في البلدان العربية وينتهج سياسة موالية للغرب من دون مواربة. وجرت المفاوضات بين كل من بن حليم وهنري فيلارد، سفير الولايات المتحدة، فانتهت بتوقيع اتفاقية في بنغازي في سبتمبر ١٩٥٤، أقرها البرلمان الليبي كما صادق عليها الملك بتاريخ ٣٠ اكتوبر. وتضمنت الاتفاقية اعطاء الولايات المتحدة تسهيلات كبيرة لتوسيع مطار الملاّحة (الذي أسماه الأمريكيون «مطار هويلس») فضلا عن استعمال مناطق أخرى محددة والتحكم في حق الدخول اليها والتمتع بمطلق الحرية في استعمالها كمواقع لتواجد القوات الأمريكية لمدة عشرين عاما. أما مقابل منح تلك التسهيلات العسكرية السخية فقد اتخذ شكل اتفاقية للتعاون الفني تفاوض عليها بن حليم في واشنطن، وتحصلت ليبيا بموجبها على ما قيمته سبعة ملايين دولار من مساعدات التنمية ومقدار ٢٤ ألف طن من الحبوب، وبعد ذلك ٤ ملايين دولار سنوياً لمدة ست سنوات، ثم مليون دولار سنوياً طيلة الاحدى عشر عاماً التالية.



ومع أن المعاهدة الأمريكية كانت مفيدة لليبيا من حيث كسب صداقة دولة قوية، الا أن مزاياها الرئيسية كانت لصالح الأمريكيين أنفسهم. فهم لم يحصلوا فقط على قاعدة أكبر وأرخص بكثير مما تحصل عليه البريطانيون قبلهم، بل فازوا أيضاً بموطىء قدم اقتصادي هام أتاح للشركات النفطية الامريكية شبه احتكار لانتاج النفط الليبي منذ بداية اكتشافه في سنة ١٩٥٨. وقد واجهت المعاهدة في حينها بعض المعارضة داخل البرلمان الليبي حيث تعرضت لانتقادات صريحة نظراً لضآلة المساعدة المالية الأمريكية. وتمكن بن حليم من التغلب على تلك الصعوبات بذكاء، غير أن الملك اضطر الى عزل السياسي القديم عمر باشا الكيخيا من منصبه كرئيس لمجلس الشيوخ بسبب تنديده العلني بالاتفاقية. الا أنها على العموم كانت مبعث قوة لليبيا، كما ترتب عليها قيام علاقات طيبة بين الجانبين كانت لها قيمتها باستفادة ليبيا من الدعم الدبلوماسي الأمريكي في مجالات أخرى واستثمار الأموال الأمريكية في عمليات التنقيب عن النفط.

وفي أيام حكومة بن حليم المفعمة بالتحرك الدبلوماسي تم أيضا حل المشكلات المعلقة مع كل من ايطاليا وفرنسا والدخول في عضوية الأمم المتحدة. ففي أكتوبر ١٩٥٥ أبرمت اتفاقية نصت على أن تحل ليبيا محل الحكومة الايطالية في امتلاك الأموال التابعة للدولة بينما يحتفظ الملاك الايطاليون بممتلكاتهم الخاصة في البلاد. والواقع أن جميع الأملاك الايطالية الخاصة في برقة، ومعظم الممتلكات المماثلة في طرابلس، اشتراها الليبيون بمرور الوقت. واشترطت الاتفاقية كذلك دفع مبلغ قدره مليون ليرة ايطالية لاعادة البناء الاقتصادي ومبلغ ١٧٥٠٠٠٠ ليرة كاعتماد مصرفي لشراء السلع الايطالية بدلاً من التعويض عن أضرار الحرب.

وتلت ذلك قضية العلاقات مع فرنسا، وهي ربما كانت أعقد المشاكل التي عالجتها حكومة بن حليم. فالوجود الفرنسي في فزان كانت له أهمية نفسية الى جانب أهميته الاستراتيجية بالنسبة لفرنسا، وذلك أن احتلال فزان كان أول انتصار عسكري فردي تحققه قوات فرنسا الحرة في أثناء الحرب، كما أن الاقليم شكل حلقة وصل هامة بين تونس والجزائر ومستعمرة تشاد. وكانت تراود فرنسا أحلام الوصاية على فزان، فلما خابت آمالها سنة ١٩٤٩ امتنعت عن التصويت على قرار الأمم المتحدة باستقلال ليبيا. ثم صعب عليها التخلي عن سيطرتها على فزان حين استقلت ليبيا، فجرت بين الجانبين مفاوضات طويلة وصعبة، اذ رأى الليبيون أن المقترحات الفرنسية تستهدف الاحتفاظ بقدر من النفوذ في فزان أكبر مما سعى اليه البريطانيون في برقة.

ومنذ أواخر عام ١٩٥٤ بدأت تسود فرنسا تيارات سياسية اكثر ليبرالية، ومن ثم أمكن التوصل الى اتفاق بين كل من بن حليم ورئيس الوزراء الفرنسي من خلال المحادثات التي دارت في سنة ١٩٥٥. فوافقت فرنسا على سحب قواتها في بحر اثني عشر شهراً وتسليم المطار الذي كان بحوزتها شريطة أن تستخدم ليبيا في ادارته طاقما من الفنيين المدنيين الفرنسيين. كما ساهمت فرنسا بمبلغ ١٣٠ مليون فرنك فرنسي في عام ١٩٥٥ ثم ٣٥٠ مليون فرنك في العام التالي. وقد شملت المعاهدة أيضا تعديل الحدود الليبية - الجزائرية بناء على رغبة فرنسا، وكانت تلك صفقة بارعة من جانب الفرنسيين أدت الى حصول الجزائر على شريحة من الأراضي الغنية بالنفط. وأثار ذلك التنازل الاقليمي موجة من السخط في ليبيا، فتعرض بن حليم من جرائه لانتقادات شديدة، اذ لم يكن له مبرر على الاطلاق. وقد جرى التوقيع على المعاهدة الفرنسية في أغسطس ١٩٥٥ وتم ابرامها رسمياً في أبريل ١٩٥٦.

ومن الانجازات الهامة التي تحققت في عهد بن حليم دخول ليبيا الى عضوية الأمم المتحدة، بعدما ظل الاتحاد السوفياتي يستعمل حق النقض رافضا طلب عضويتها طوال الفترة من ١٩٥٢ الى ١٩٥٥. ففي أوائل عام ١٩٥٥ أنشأت ليبيا علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي، وبذلك مهدت الطريق لقبولها في ديسمبر من نفس العام ضمن مجموعة من ست عشرة دولة جديدة دخلت عضوية الأمم المتحدة دفعة واحدة. وكان ذلك نجاحاً باهراً أحرزته حكومة بن حليم، وان لم ترق لليبيين المحافظين فكرة قيام سفارة سوفياتية في بلادهم. ولكن الحقيقة أن الوجود السوفياتي في ليبيا لم ينتج عنه تغلغل النفوذ الشيوعي اطلاقا، حيث أن الملك أوضح بجلاء أن بلاده لن تسمح بذلك، كما أن السفير السوفياتي وعد باحترام رغبة الليبيين فوفى بوعده.

ان الحديث عن ليبيا في عهد الملك ادريس لا يكتمل بدون التطرق الى ذكر المشاكل الشخصية والسياسية الناجمة عن عدم استقرار الملكية الليبية وضعف فرص بقائها في المدى البعيد. وذلك أن اختيار الشعب الليبي للنظام الملكي انما جاء نتيجة للخلافات بين سكان طرابلس وبرقة وفزان على شكل الحكم في الدولة الليبية الجديدة. فالبرقاويون اختاروا السيد ادريس حاكماً وراثياً بأغلبية ساحقة، لكن هذا الاجماع بالتأكيد لم يتوفر بنفس الدرجة بين الطرابلسيين الذين كانوا يشكلون أكثرية عددية أوضح ميلاً الى تضارب الأفكار والآراء السياسية. فهم قبلوا بالملكية كحل وسط لولاه لتعذر الوصول الى اتفاق في حدود الفترة الزمنية التي تقررت لتأسيس الدولة الجديدة. وكانوا أكثر ارتياباً في أنظمة الحكم الملكي عموماً ويعتبرونها مجرد وسائل استعمارية لدعم النفوذ الأجنبي الخفي. وفي



نفس الوقت فان اسقاط الملكية في مصر وحملة الدعاية للقومية العربية التي تواصلت من اذاعة القاهرة بعد ذلك كانت تنطوي على عداء سافر تجاه الوضع القائم في ليبيا.

وكان الملك ادريس نفسه يعي جيدا سائر الأخطار التي تتهدد وجود الملكية، فيما كانت احدى المشاكل الأساسية هي مسألة الوراثة. فرغم أن ادريس شخصيا كان يتمتع باحترام الجميع، الا أن الأسرة السنوسية بصفة عامة لم تكن لها نفس مكانته الخاصة عند الليبيين. ووريثه الشرعي، أخوه محمد الرضا، لم يكن رجلا مسناً معتل الصحة فحسب، بل كان أيضا يفتقر الى الصفات والهيبة الشخصية اللازمة لتولي عرش البلاد بعده. ولأنه أدرك تنامي النفور من الأنظمة الملكية بين الشعوب العربية، وهو لم يكن يطيق أعباء الملك أصلا، فقد حاول ادريس أن يتخلص من تاج المملكة بالسعي الى تغيير الدستور للتحول عن النظام الملكي الى نظام جمهوري. وأمر رئيس وزرائه بن حليم باعداد مشروع لاحداث التغيير المطلوب، فقدم رئيس الحكومة مقترحات ترمي الى استبدال الملكية بنظام جمهوري حسب النموذج الأمريكي مع تحويل الدولة الاتحادية الى شكل وحدوي نظراً للتكاليف الباهظة. ومن ثم استعان الملك بصديقه القديم مفوض الأمم المتحدة آدريان بيلت، وفي يناير ١٩٥٥ عقدت بطرابلس عدة اجتماعات ترأسها الملك شخصياً بحضور كل من بيلت والبوصيري الشلحي (الذي خلف والده كناظر للخاصة الملكية) وحسين مازق والي برقة، وعبد السلام البوصيري رئيس الديوان الملكي. ولأن المستر بيلت كان لا شك يذكر الدور الحاسم الذي قام به السيد ادريس في التوصل الى تطبيق قرار الأمم المتحدة باستقلال ليبيا، فانه أبدى ميلا قويا الى الابقاء على النظام الملكي في البلاد، ونجح في مسعاه بكل ما يحمله من ثقل دولي. وكانت تلك أولى محاولات عديدة بذلها ادريس للتخلي عن عرشه، مع العلم بأنه كان عازفاً عن الملك دائماً★. غير أنه كان في كل مرة يواجه بتعنت مستشاريه، ولا سيما البرقاويين الذين كانوا يخشون أن اختفاء الملكية سوف يؤدي الى تفوق طرابلس بحكم الكثرة العددية. وقد تجلى اختلاف الآراء بالأقاليم الثلاثة في موقف كل منها تجاه الملكية والنظام الاتحادي. فعلى حين كان البرقاويون شديدي التعلق بشخص الملك، لم يكن الطرابلسيون والفزانيون يحسون بأي ولاء خاص للسنوسية، وانما كانوا يفضلون نظام الوحدة. وكان من الواضح أن الملك لا يستطيع الاعتماد على غير البرقاويين عند الأزمات.

★ قبل سيدي أدريس الملك رغم عزوفه عنه عندما كان ذلك ضرورة لتحقيق الاستقلال، وحاول التنازل عنه عندما شعر ان ذلك قد يخدم استقرار البلاد.





سيدي ادريس يوم عقد قرانه على السيدة عالية بنت عبد القادر باشا لملوم وبجانبه شاهد العقد
سيادة الرئيس جمال عبد الناصر ثم رئيس الحكومة الليبية مصطفى بن حليم بمبنى السفارة الليبية بالقاهرة.

وبقيت مشكلة ولاية العهد معلقة بانتظار الحل. فاقترح المستر بيلت أن يتبنى الملك ولدا يصبح بعدها ولي عهده، لكن الملك لم يسترح لذلك الرأي خشية أن يثير الغيرة في نفوس أبناء الأسرة. وأخيراً اقتنع على مضض بفكرة الزواج مرة ثانية عسى أن ينجب ولدا من صلبه يرث عرش المملكة، وهذا بالطبع امر جائز تماماً في الشريعة الاسلامية. وقد وقع الاختيار على السيدة عالية ابنة نصير السنوسية المخلص عبد القادر باشا الملوم، أحد ملاك الأراضي المصريين. وفعلا تم الزواج في القاهرة بتاريخ ٣٠ يونيه ١٩٥٥، وطلعت الصحف القاهرية يومها تحمل صور الحفل التي بدا فيها السيد ادريس أشيب اللحية عليه مسحة من الحزن والكآبة وهو يصافح الرئيس عبد الناصر الشاهد الرئيسي على عقد القران، وذكرت أن عمر الملك آنذاك ٦٥ عاما بينما كانت العروس في سن الثامنة والثلاثين سيدة مليئة الوجه وقورة المظهر. ولم يكد يمر شهر واحد حتى توفى محمد الرضا، وريث الملك الشرعي، فغدت مشكلة ولاية العهد أكثر الحاحاً من ذي قبل. وعاد الملك الى ليبيا بزوجته الجديدة حيث أقام معها في البيضاء، أما زوجته الأخرى فاطمة الشفا فقد طلب منها البوصيري★ الشلحي اخلاء بيت الملك في طبرق، لكنها أبت أن تترك بيتها طالما أنها لم تكن طلقت من الملك. وهذا الزواج الجديد لم يكتب له التوفيق، على كل حال، فبعد مضي تسعة أشهر فقط اقترح الملك على زوجته الثانية أن تسافر لقضاء اجازة بين أهلها في مصر، وعاد هو سعيدا الى السيدة فاطمة التي ما برح يحمل لها أعمق الود والوفاء. وفي وقت لاحق من ذلك العام سويت مسألة وراثة العرش بتعيين الحسن الرضا، ابن أخ الملك، وهو ثالث أولاد المرحوم محمد الرضا. وكان ولي العهد الجديد هذا شابا في الثامنة والعشرين من عمره، تلقى تعليمه في جامعة الأزهر الاسلامية بالقاهرة، وقد عرف بالتقوى وان لم يكن من الشخصيات المرموقة أو المؤثرة. ولم يفعل الملك سوى القليل في سبيل اعداده للمنصب الملكي، كما أن تعيينه لم ينل أي تأييد شعبي اطلاقا.

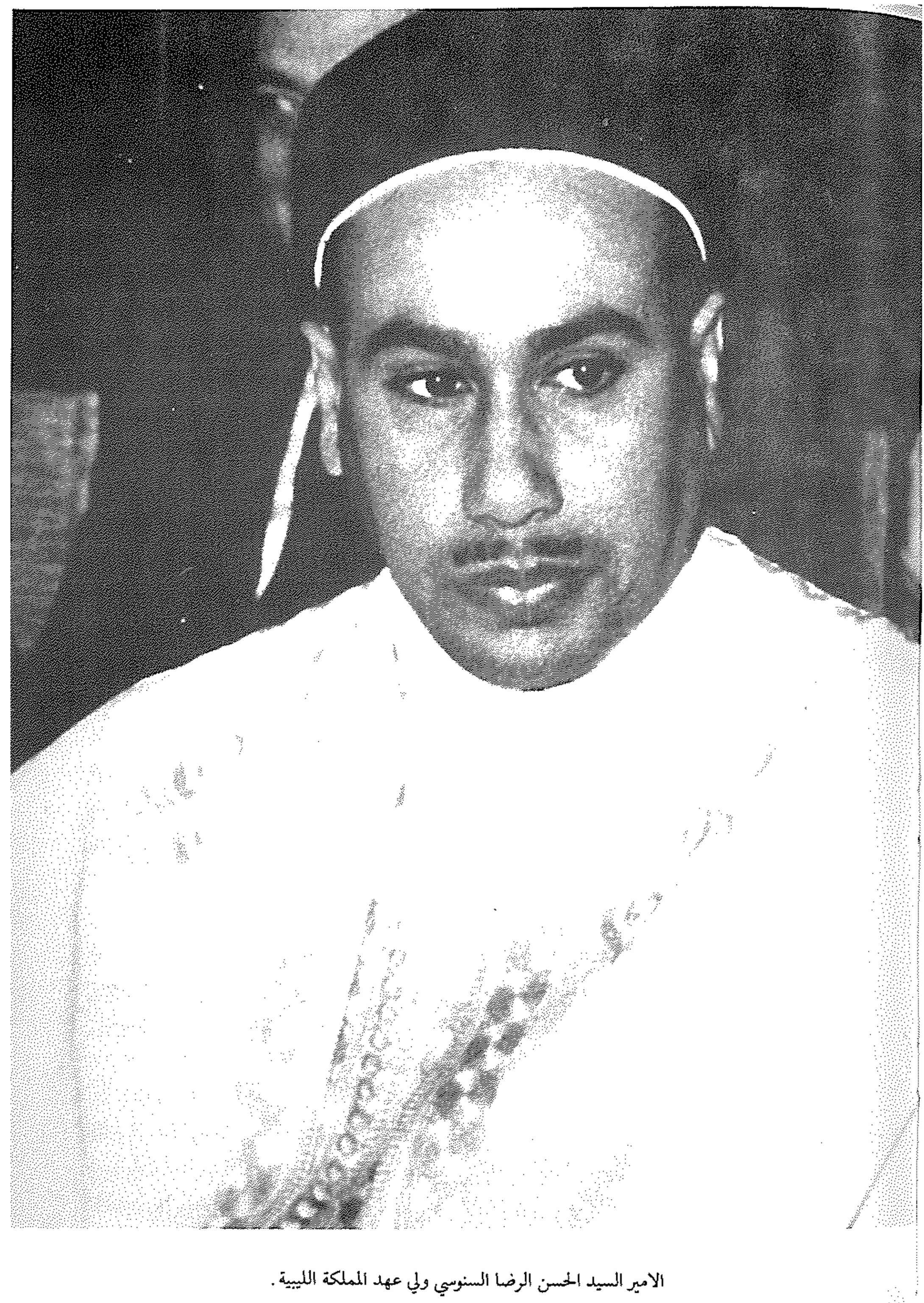
وشهر العسل السياسي الذي عمل بن حليم جاهداً على استمراره مع مصر لم يدم طويلاً بعد اخفاق زواج الملك. فالعلاقات الودية الملحوظة في عام ١٩٥٥ عصفت بها في العام التالي احداث خارجة عن ارادة ليبيا تماما. ففي يوليه ١٩٥٦ أعلن الرئيس عبد الناصر تأميم قناة السويس على نحو مفاجىء أذهل الدول الغربية، وهي المستفيد الرئيسي من استعمال القنال، وخاصة بريطانيا التي كان ذا أهمية استراتيجية كبرى بالنسبة لها،

★ تشابهت الاسماء على الكاتب فأن الملكة فاطمة اخبرتني ان عبد السلام البصيري هو الذي اقترح عليها مغادرة منزل طبرق وذلك بدافع الودّ والحرص على مشاعرها حيث عرض ان يرتب لها جولة في بعض المدن الليبية بعيداً عن طبرق والبيضاء حتى تتم ايام العرس، ولكنها رفضت الاقتراح، فانها لم تكن معارضة لفكرة الزواج الثاني لسيدي أدريس وكانت تتمنى ان يكون له ذرية.

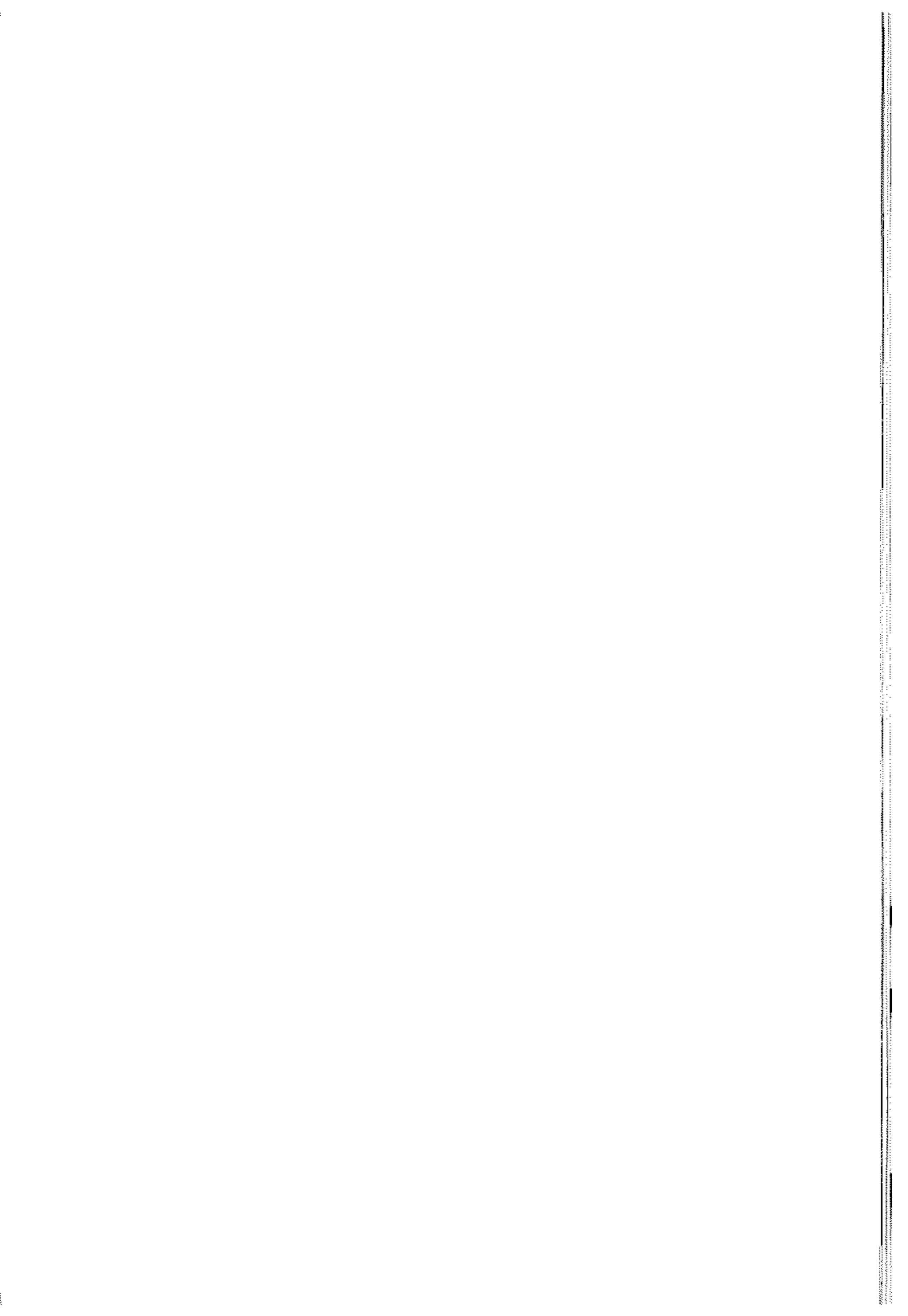


وكـذلك فرنسا التي دأبت على توفير طاقم الادارة المختصة بتشغيل القنال منذ انشائه. وتحدي عبد الناصر الجرىء لسادة مصر السابقين قوبل في العالم العربي بحماس منقطع النـظير، ولا سيما بين جيل الشبـاب العـرب. فما بين ليلة وضحاها غطت صوره كل واجهـات المتـاجـر والسيارات، فيما خرج الطلاب يهتفون باسم بطلهم في سائر المدن العربية. أما بالنسبة للحكومة والجمهور البريطاني عموما فان هذا العمل التعسفي جاء بمثابة صدمة هائلة أثارت موجة من السخط الشعبي لم يسبق لها مثيل منذ الحرب العالمية الثانية. فوقوع القنال في قبضة جهة معادية كان أمرا غير وارد في نظر بريطانيا، ولا شك أن رد الفعل العنيف كان معبرا عن رفض الرأي العام البريطاني للاجراء المصري آنذاك.
غير أن بريطانيا ارتكبت حماقة أضرت بموقفها السليم من قضية تأميم القنال. ولو أن بريطانيا أو فرنسا وحدها اتخذت اي اجراء من باب الانتقام الفوري، فربما كان يلقي نوعا من التفهم لدوافعه وشيئا من التأييد أيضا. ولكن الهجمة على مصر حين وقوعها أدت الى عواقب وخيمـة. فالتواطؤ مع كل من فرنسا واسرائيل كان أسوأ ما يمكن ان تفكر فيه بريطانيا لالهـاب مشـاعر العرب ضدها، كما أن شن حملة تأديبية من هذا القبيل رغم المعـارضـة العـالمية كان عملا طائشا بشكل يستغلق على الفهم. وهو عرض مصالحها السياسية والاقتصادية للضياع دون أي تقدير واضح الرؤية لما ينطوي عليه من مخاطر جسيمة وما يستهدفه من غايات. وبدلاً من أن يؤدي الى سقوط عبد الناصر واستعادة القنال، كانت نتيجته الفاضحة هي تعزيز مكانة عبد الناصر الى أقصى حد، بينما تكبدت الدول المشاركة فيه خسارة مالية فادحة علاوة على فشلها الذريع. وسرعان ما ترتب عليه كذلك تصفية معظم النفوذ المتبقي لبريطانيا في العالم العربي.

وليس ثمة أي بلد عربي تضرر من آثار أزمة السويس بقدر ما تأذت ليبيا حيث أضحت حكـومتها هدفا مباشرا للسخط المصري بسبب تحالفها مع بريطانيا. وانهال من اذاعة القاهرة سيل جارف من الشتائم والدعايات المغرضة التي زعمت أن القوات البريطانية هاجمت السويس انطلاقاً من قواعد ليبية، مما أدى الى اثارة قلاقل في طرابلس وبنغازي لم يكن من السهل تهدئتها. والحقيقة أن الحكومة الليبية كانت قد بادرت الى اتخاذ خطوات فورية لضمـان عدم اشتراك القوات البريطانية بليبيا في حرب السويس، كما أن السفير المصري أحيط علما بتلك الاجـراءات في حينهـا، ولكن على غير جدوى لوقف الحملة الاعـلامية المصرية. وكـانت التصرفات الرعناء التي قام بها بعض الرسميين المصريين العاملين في ليبيا آنذاك تمثل خرقاً سافراً لكل القواعد المتعارف عليها في السلوك الدولي، فهم فعلوا كل شيء عدا الغزو المسلح لحمل السلطات الليبية على قطع العلاقات مع



الامير السيد الحسن الرضا السنوسي ولي عهد المملكة الليبية.



بريطانيا ومهاجمة القواعد البريطانية. وكان الملحق العسكري المصري (من مكتبه بسفارة مصر في طرابلس) يقوم بتوزيع الأسلحة والذخائر على بعض العناصر المخربة لاستعمالها ضد الجنود والمنشآت البريطانية. غير أن رئيس الوزراء بن حليم عالج تلك الأزمة بجرأة ومهارة. فهو، حين علم بالموضوع، طلب من السفير سحب الملحق العسكري واعادته الى مصر فوراً. وتعلل السفير بأن الملحق العسكري يتلقى أوامره من وزارة الدفاع المصرية رأساً، فطلب تقديم مذكرة احتجاج رسمية بالخصوص. وبعد فترة قصيرة من تسليم المذكرة تم استدعاء الملحق العسكري المصري الى بلاده، كما تقدم الرئيس عبد الناصر باعتذار رسمي الى الملك ادريس. ولكن سبق السيف العذل، فقد ضلل الشباب الى حد الاعتقاد بأن قادة بلادهم خانوا القضية العربية.

وكان من عواقب حرب السويس أنها قضت على جهود بن حليم لتوثيق العلاقة مع مصر، اذ تعذر استمرار مثل تلك المساعي في مواجهة العداء الذي أثاره اشتراك بريطانيا في العدوان الثلاثي. ولكن سبب استقالته كان يرجع الى قيام مشاكل مع الديوان الملكي، وهي من قبيل الصراعات الداخلية المعتادة التي زعزعت استقرار هذه الدولة الفتية. وبن حليم يستحق الكثير من التقدير لتمكنه من التوفيق بين اعتماد ليبيا الكامل على الغرب وبين انتمائها العربي القومي.

ورابع رئيس للحكومة الليبية كان عبد المجيد كعبار، وهو طرابلسي عرف بكفاءته كوسيط في تسوية الخلافات، وكان رئيسا لمجلس النواب على نحو متواصل منذ سنة ١٩٥٢ (فيما عدا فترتين قصيرتين قضاهما ضمن أعضاء وزارة بن حليم). وعندما تولى رئاسة الوزارة جعل همه الأول أن يكفل استمرار المعونة الأجنبية الحيوية بعقد اتفاقيات جديدة مع الحكومتين البريطانية والأمريكية للحصول على منحة سنوية قدرها ٣,٢٥ مليون جنيه استرليني من الأولى و ٥,٥ مليون دولار من الثانية لمدة خمس سنوات، كما عقد اتفاقية للتعاون الاقتصادي مع ألمانيا الغربية تلاها قرض طويل الأجل بمبلغ خمسة ملايين جنيه استرليني لأغراض التنمية الزراعية والصناعية. وفي نفس الوقت رفض السماح بأن تكون بلاده مدينة للسوفيات الذين حاولوا توطيد اقدامهم في ليبيا بعرض مساعدات مالية وطبية.

ووقع كعبار في مشكلة عويصة من جراء الثورة العراقية في يوليه ١٩٥٨. وذلك أن الأسلوب الوحشي الذي قتل به الملك الشاب وأفراد الأسرة المالكة هز العالم كله، كما أنه أصاب الملك ادريس بالأسى العميق فأمر باعلان الحداد وامتنع عن الاعتراف بالحكومة العراقية الجديدة في بادىء الأمر، بينما كان الرأي العام الليبي مؤيدا لموقف مصر في رضاها



عن قيام الثورة باعتبارها انتصارا لدعوة الوحدة العربية. وأقنع كعبار الملك بأن يعترف بالنظام الجديد في بغداد شريطة الاحتفاظ بالسفير السابق. ولكن التقارب المصري العراقي لم يعمر طويلا على كل حال، فسرعان ما اختلف عبد الناصر مع عبد الكريم قاسم بسبب موقفه العدواني تجاه جيرانه العرب وسياسته الانتقامية في الداخل.

أما سبب سقوط حكومة كعبار في سنة ١٩٦٠ فهو العاصفة الداخلية التي أثيرت حول قضية عطاء طريق فزان★١، وكانت الحكومة قد منحته في عام ١٩٥٨ لشركة يرأسها السيد عبد الله عابد، أحد أفراد الأسرة السنوسية، مما أدى الى انتقاد الحكومة بدعوى أن الشركة المعنية تحصلت على العطاء باستغلال النفوذ الشخصي، وبالتالي فان تكاليف المشروع زيدت كثيرا لمصلحتها. ولما تناهى الأمر الى علم الملك، أصدر بياناً★٢ أدان فيه فساد الذمم والمحاباة، ومن ثم وجد خصوم رئيس الوزراء ما يشجعهم على مهاجمته في البرلمان بالاقتراع على عدم الثقة في حكومته، فاضطر كعبار الى الاستقالة. والواقع ان اسقاط حكومة كعبار على هذا النحو لم يكن له ما يبرره، لأن شركة عبد الله عابد كانت هي الشركة الليبية الوحيدة القادرة على تنفيذ مشروع بمثل تلك الضخامة، ثم ان قيمة العطاء كانت في حدود المعقول كما ثبت من التحقيق البرلماني اللاحق.

★١ الموضوع بدقة في كتاب مجيد خدوري باللغة الانجليزية المسمى (مودرن ليبيا) مطابع جونز هوبكنز سنة ١٩٦٣ م.

★٢ توجد ترجمة لذلك البيان باللغة الانجليزية في كتاب مجيد خدوري (مودرن ليبيا) وقد صدر البيان بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٦٠ م ونشر في جميع الجرائد الرسمية. وقد اعدناه هنا الى العربية.

(بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا بلاغ للناس ولينذروا به.

الى رئيس الحكومة الاتحادية والوزراء ووكلاء الوزارات وكل المسؤولين في الحكومة الاتحادية، وكذلك الى والي طرابلس ووالي برقة ووالي فزان والى النظار والى المدراء والمتصرفين وكل من هو مسؤول في المتصرفيات.

لقد بلغ السيل الزبى، فقد وصلتنا كثير من التقارير التي تشير الى سؤ استعمال السلطة من قبل بعض مسؤولي الدولة في قبولهم الرشاوى في السر والعلن، والمحاباة.

وهذان الشران سوف يؤديان الى هدم اساس الدولة واركانها وسمعتها الطيبة، وبالاضافة الى ذلك فان هذه الشرور تؤدي الى ضياع ثروة البلاد.

قال الله سبحانه وتعالى «ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم».

وقال صلى الله عليه وسلم «من رأى منكم منكراً فلغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الايمان».

وانني بعون الله ومشيئته سأحاول ان اغير هذا الامر بيدي وسوف لن اتزحزح أو أتراجع عن تنفيذ امر الله حتى استعيد لبلادي سمعتها الطيبة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.)

وخلف كعبار في رئاسة الحكومة محمد بن عثمان، وهو رجل عصامي برز منذ الاستقلال كواحد من أهم الممثلين السياسيين لولاية فزان. وكان دوره الرئيسي أنه ألقى الضوء على انجازات الدولة بشكل أوفى وأكثر فعالية من ذي قبل. فأخذ يطوف في أرجاء البلاد، مخاطباً جماهير الشعب بقصد التوعية واطلاع الناس على الجهود المبذولة لتحقيق الرفاه الاجتماعي العام. كما حاول ازالة الاعتقاد الشائع بأن المؤسسات التجارية الأجنبية التي اجتذبتها الى ليبيا اكتشافات النفط (منذ أن بدأت في عام ١٩٥٥) لم يكن يعنيها سوى نهب خيرات البلاد لمصلحتها الخاصة. فالواقع أنه كان من المستحيل تطوير الامكانيات النفطية دون الاستعانة برؤوس الأموال والخبرة الاجنبية. ثم ان قانون البترول الليبي الصادر في سنة ١٩٥٥ يعتبر أفضل بكثير من القوانين المماثلة التي كانت سائدة في بقية بلدان الشرق الأوسط وقتذاك. فهو كفل القيام بأعمال التنقيب عن منابع النفط في شتى أنحاء البلاد مع حمايتها في نفس الوقت من مغبة الاستغلال الاحتكاري. وعلى خلاف البلدان الأخرى لم تقم ليبيا بتسليم الامتيازات البترولية لشركة واحدة أو لاتحاد مجموعة من الشركات، بل قسمت البلاد كلها الى مناطق امتيازات صغيرة ونظمت كيفية منح الامتيازات وشروط الحصول عليها ومقابل تأجيرها واجراءات التنازل عنها. وقضت بأن تكون حصة الحكومة خمسين بالمئة من دخل الشركات العاملة بعد خصم تكاليف التشغيل. وكانت النتيجة أنه ما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٨ تم توزيع ٥٥٪ من مساحة الأراضي الليبية على أربع عشرة شركة من الشركات البترولية العالمية التي شرعت في عمليات التنقيب اللازمة بسرعة فائقة وكفاءة عالية. وتطلب ذلك أيضا انفاق مبالغ طائلة، نظراً لعدم توفر المهمات والمهارات الفنية محلياً، فكان لا بد من استيراد سائر اللوازم عن طريق بضع موانىء ناقصة المرافق ثم نقلها الى أماكن نائية خالية من الطرق والمياه والأغذية.

وطوال السنوات الأربع الأولى تواصلت عمليات التنقيب دون تحقيق أي نجاح يستحق الذكر، وان كانت شركة اسو في عام ١٩٥٨ حفرت عدة آبار أسفرت عن نتائج مشجعة في امتيازها بزلطن. وأصبح حقل زلطن اول اكتشاف هام، كما عثر على ستة حقول نفطية كبرى في منطقة سرت قبل نهاية عام ١٩٥٩. وفي سنة ١٩٦٠ أقيمت ميناء بترولية في مرسى البريقة على خليج سرت، ثم بدأ تصدير أولى شحنات البترول الليبي في أغسطس ١٩٦١. وفي شهر أكتوبر من ذلك العام قام الملك ادريس بافتتاح ميناء البريقة رسمياً. وفيما بين أكتوبر ١٩٦١ وربيع سنة ١٩٦٨ تم فتح سائر الموانىء البترولية الليبية الكبرى، كما ارتفع معدل الانتاج من ٦,٧ مليون برميل في عام ١٩٦١ الى



٩١٦,٦ مليون برميل في عام ١٩٦٨. وترجع الزيادة المطردة في انتاج النفط الليبي الى قرب البلاد من الأسواق البترولية الواسعة السريعة النمو في أوروبا الغربية آنذاك، غير أن سياسة الحكومة أيضاً كان لها دور هام في تحقيق زيادة الانتاج بمضاعفة الامتيازات الصغيرة، وبالتالي اجتذاب عدد كبير من الشركات البترولية. وكان من حسن حظ ليبيا أنها لم تتأثر بالتقلبات المتكررة في منطقة الشرق الأوسط والتي أدت الى اغلاق قنال السويس وتحويل خط سير الناقلات البترولية من الخليج العربي الى الطريق الطويل حول رأس الرجاء الصالح. فالبترول الليبي كله تقريباً يصدر الى بلدان أوروبا، وعلى رأسها المانيا الغربية التي تستورد منه حوالي ٣٠٪.

وفي مجال الشؤون الخارجية كانت سياسة بن عثمان تستهدف المحافظة على علاقات طيبة مع الدول الغربية من جهة ومع مصر وبلدان المغرب العربي من جهة أخرى. وقد أبدت حكومته تأييداً فاتراً لمشروع الوحدة مع المغرب والجزائر وتونس في سنة ١٩٦١، وهو مشروع لم يلبث أن تبخر. وعملا بتوجيهات الملك، بقيت ليبيا بمنأى عن المهاترات والخصومات العربية، وقلما شاركت في المداولات العربية المختلفة، وان كان الليبيون عموما معجبين بشخصية الرئيس عبد الناصر وينصتون بشغف الى اذاعة «صوت العرب» من القاهرة.

وفي سنة ١٩٦٣ حل محل بن عثمان في رئاسة الوزارة محي الدين فكيني، وهو محام شاب حاذق من عائلة طرابلسية ومتزوج من ابنة منصور قدارة، وزير المالية السابق. وكان ينتمي الى جيل الليبيين الشباب من خريجي الجامعات، وقد عمل سفيراً بواشنطن حيث أثبت كفاءة ديبلوماسية عالية. كما أنه كان رجلاً تقدمياً قديراً ركز اهتمامه على عملية استبدال النظام الفدرالي بنظام الوحدة الكاملة. ولا ريب أنه أصاب في ذلك، لأن الدولة الموحدة تكون طبعا أقوى من الدولة الاتحادية التي هي عرضة لتأثير التنافس الاقليمي وامكانيات التفكك. ثم ان النظام الاتحادي كان باهظ التكاليف قليل الفعالية يستلزم الانفاق على أربع حكومات بدلاً من واحدة. وفعلاً صدر قانون دستوري بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩٦٣ ألغى المجالس التنفيذية في الولايات ونقل سلطاتها الى مجلس الوزراء، وأصبحت ليبيا دولة وحدوية تنقسم الى عشر مناطق ادارية. وكذلك نالت المرأة حق التصويت لأول مرة، فكانت تلك خطوة مستنيرة سبقت بها ليبيا بعض أجزاء العالم العربي الأخرى. وكان من دلائل قوة التيار الوحدوي في البلاد أن التعديلات الدستورية اللازمة لم تجد في برقة معارضة تذكر، وان سرى بعض التذمر بين المتصلبين ممن ظلوا يتذكرون اصرار البرقاويين على استقلالهم الذاتي المحلي في سنة ١٩٥٠ - ٥١. وقد بقيت قائمة مشكلة اختيار

العاصمة الليبية، فيما كانت طرابلس وبنغازي عاصمتين مشتركتين للبلاد. ثم زاد من تعقيد الأمور تأسيس عاصمة صيفية بمدينة البيضاء في الجبل الأخضر، مما استدعى انفاق مبالغ طائلة لانشاء المكاتب الحكومية ومساكن الموظفين ومرافق الخدمات العامة وبناء دار مهيبة لمجلس الأمة صفت مقاعدها تحت قبة هائلة. وكانت المواصلات صعبة بين البيضاء وغيرها من المدن الرئيسية، فهي بطريق البر تبعد عن طرابلس بمسافة ٧٠٠ ميل، كما تفصلها عن بنغازي مسافة ١٥٠ ميلا، ولم يكن بها مطار. وكثيرون من الناس اعتبروا اقامة العاصمة الصيفية اسرافاً لا داعي له، فرأوا تحويلها لغرض أنسب لها، كأن تصبح مدينة جامعية مثلا. وتضايق منها موظفو الحكومة بنوع خاص نظرا لبعدها عن العمران.

وكان فكيني في سياسته الخارجية، مثل بن حليم من قبله، يميل الى التقارب مع الجمهورية العربية المتحدة والجزائر. وهذه الأخيرة أقام معها حلفا في أغسطس ١٩٦٣. كما أنه أثار موضوع الاتفاقية الفرنسية الليبية المبرمة في عام ١٩٥٥ والتي بموجبها ظلت فرنسا تحتفظ بمرافق عسكرية معينة، تشمل مطارات ومحطات لاسلكية في جنوب غربي ليبيا، كان يديرها أشخاص فرنسيون وان كانوا لا يرتدون الزي العسكري. وكانت حجة فكيني أن تلك التسهيلات الخاصة بالاتصالات لم يعد لها لزوم بعدما تم استقلال كل من النيجر وتشاد في الآونة الأخيرة، وهما الجارتان الجنوبيتان لليبيا. الا أنه لم يفلح في اقناع الفرنسيين بالانسحاب الكامل طالما بقيت قوات بريطانية في المنطقة الساحلية.

وكان سبب سقوط حكومة فكيني هو التدخل المعتاد من جانب الجمهورية العربية المتحدة. ففي يناير ١٩٦٤ لم يتمكن الملك ادريس من حضور مؤتمر القمة العربي بالقاهرة لأسباب صحية، وتقرر أن ينوب عنه كل من ولي العهد وفكيني. وفي نفس الفترة اندلعت في ليبيا مظاهرات طلابية موالية للرئيس عبد الناصر، عزاها كثير من الليبيين الى وجود تحريض مصري. وكان الملك في طرابلس وقتذاك، فتجمع المتظاهرون خارج القصر وهم يهتفون بشعارات تمجد عبد الناصر فيها تعبر عن العداء تجاه الملك ادريس. كما وقعت مصادمات مع الشرطة جرح خلالها عدد من الطلبة المتظاهرين. واعتبر رئيس الوزراء مقصراً لأنه لم يكن حازماً بما فيه الكفاية لمواجهة مثل ذلك التهديد الخطير للأمن العام، بل ان بعض تصريحاته خلال الأزمة بدت تنم عن الخنوع لتأثير الجمهورية العربية المتحدة.

وبتاريخ ٢٢ استقال فكيني وتولى بدلا منه محمود المنتصر، رئيس الوزارة الأولى. فأبت أجهزة الدعاية المصرية الا أن تفسر هذا التغيير بأنه دليل على النية في استمرار العمل بالمعاهدة البريطانية التي حان الوقت لاعادة النظر فيها خلال عام ١٩٦٤. وشنت مصر



حملة اذاعية مكثفة تتهم المنتصر بالعمالة لبريطانيا. كما أن الرئيس عبد الناصر، في خطابه بمناسبة عيد الوحدة يوم ٢٢ فبراير، دعا الى تصفية القواعد الأجنبية في ليبيا بحجة أنها تشكل خطرا على الجمهورية العربية المتحدة والقضية العربية عموما وأنها انها وجدت لمساندة اسرائيل في المنطقة. وزعمت اذاعة القاهرة زورا أن القواعد استخدمت في ضرب الشعب المصري أثناء الغزو الأنجلو - فرنسي لقنال السويس في عام ١٩٥٦. وتواصلت حلقات تلك الدعاية الملفقة على نفس المنوال طيلة شهري فبراير ومارس، رغم تأكيدات الحكومة الليبية القاطعة بأن معاهداتها تنص صراحة على عدم استعمال القواعد البريطانية والأمريكية للاعتداء على أي بلد عربي.

وفي مارس انتقل الملك الى البيضاء لحضور افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة. وبتاريخ ١٦ مارس تقدمت الفئة القليلة من النواب الموالين لعبد الناصر بمشروع قرار يقضي بالغاء المعاهدات وازالة القواعد - وهو مطلب لم تكن الحكومة تقوى على رفضه، فلم يعارضه أحد، بالنظر الى اتجاه الرأي العام السائد حينذاك. بل ان رئيس الوزراء أدلى ببيان رسمي في يوم ١٩ مارس تعهد فيه بالعمل على انهاء المعاهدات وتحديد موعد لانسحاب القوات البريطانية والأمريكية. والظاهر أن توقيت بيان الحكومة الليبية لم يحالفه الحظ، اذ أن سرعة صدوره في أعقاب الخطاب الذي ألقاه عبد الناصر جعلته أشبه ما يكون بالرضوخ لارادة جهة خارجية. كما يبدو، على ضوء التطورات اللاحقة، ان صيغة البيان نفسها مضت الى أبعد مما أقره الملك.

وأيا كانت حقيقة ما حدث في تلك الظروف، فان الملك تكدر كثيراً من قرار البرلمان واستاء من تصريح رئيس الوزراء الذي رأى فيه استسلاما مهينا أمام سياسة الترهيب المصرية.

فكتب الملك خطاب استقالة موجهة الى رئيس الوزراء ذكر فيه أن سنه لم تعد تسمح له بمواصلة القيام بأعباء الملك ومن الأفضل أن يفسح الطريق لنظام آخر. وبعد ذلك اعتكف بمنزله الخاص في طبرق. ويبدو أن الملك قرر التنحي بدافع من شعوره بأن استمرار الاتفاقيتين البريطانية والأمريكية، وهما عماد سياسته الخارجية، ربما لم يعد يلقى القبول الشعبي المطلوب. وما كان قراره ينطوي على أي نوع من التهديد الاجوف، فالملك ادريس لم يكن يقيم لمنصب الملك وزناً في أي وقت من الأوقات، بل كان مستعدا للتنازل عن عرشه في أية لحظة متى أحس بأن مصلحة بلاده تقتضي ذلك.

وجاء رد الفعل الشعبي ازاء هذه الأحداث على نحو حاسم وسريع. فبمجرد أن ذاع بين الناس خبر استقالة الملك هرع الى طبرق آلاف المواطنين المخلصين، حيث احتشدت

أمـام القصر جماهـير غفـيرة لاظهـار ولائهـا له وتعلقهـا به ومطالبته بالعدول عن قرار الاستقالة. وكانت هذه التظاهرة الفورية، بطبيعة الحال، برقاوية في معظمها حيث أن بعد المسافة وحده حال دون اشتراك الطرابلسيين فيها. وهي كانت تعبيرا حيا عن التأييد الشعبي للملك، مما حدا بالرجل العجوز الى مواصلة المسيرة (وكان عمره في ذلك الوقت ٧٤ عاما) فمزق استقالته نزولا عند رغبة مواطنيه. ولم يتخذ الملك أي اجراء يناقض قرار مجلس الأمة بشأن مصير القواعد الأجنبية، وانما ترك لحكومته مهمة التفاوض عليها مع كل من بريطانيا والولايات المتحدة. ولما كانت الحكومة البريطانية آنذاك ترحب بكل فرصة لتخفيض نفقاتها العسكرية في الخارج، فانها استجابت على الفور لطلب الحكومة الليبية بوضع جدول زمني لاجلاء قواتها عن البلاد. وفعلا تم الاتفاق على انهاء الانسحاب من طرابلس في موعد أقصاه ٣١ مارس ١٩٦٦ وكذلك الانسحاب من بنغازي قبل نفس التاريخ من عام ١٩٦٧، أما مستقبل الحامية الصغيرة الموجودة بطبرق ومطار العدم فتأجل النظر في أمره الى وقت آخر.

والى جانب المعاهدة البريطانية شمل قرار البرلمان انهاء الاتفاقية الأمريكية أيضا – وهي كانت تتعلق بقاعدة هويلس فقط. وقد واجهت الحكومة الأمريكية في بادىء الأمر طلبا صريحاً باخلاء القاعدة في وقت مبكر، فرفضت ذلك لسبب معقول وهو أنه لا يتمشى مع شروط الاتفاقية التي راعتها بدقة من ناحيتها. ثم خفت الضغوط السياسية تدريجيا بمرور الـوقت، فقبل الليبيون بالمقترحات الأمريكية الرامية الى استمرار الوجود الأمريكي في قاعدة هويلس الى حين انقضاء مدة الاتفاقية التي لم يبق منها غير خمس سنوات تقريباً. وكان موقف الملك ادريس من هذه القضية الحساسة يتسم بالفطنة والحصافة السياسية. فهو، بينما تقبل قرار البرلمان كتعبير عن الارادة الوطنية، أوضح في نفس الوقت أنه يعتبر الموضوع بمثابة اقتراع على عدم الثقة في سياسته الخاصة. فلما شهد بنفسه مظاهرة اعلان الثقة الشعبية الجارفة على نحو لا يقاوم، سحب استقالته ولكنه لم يفعل أي شيء يحول قرار حكومته عن اتخاذ مجراه الدستوري العادي. ولم يظهر أي استياء من اتجاه السياسة التي انتهجتها الحكومة. فاستقالة المنتصر من رئاسة الوزارة في صيف عام ١٩٦٥ حدثت لأسباب صحية بحتة. بل ان الملك عبر عن تقديره الخاص لخدماته الجليلة بتعيينه رئيساً للديوان الملكي في طبرق.

ومهمة اجراء المفاوضات مع البريطانيين والأمريكيين وقعت بالدرجة الأولى على عاتق حسين مازق رئيس الوزراء الجديد، الذي كان أصغر سنا من سابقه وأظهر براعة فائقة في تسيير دفة تلك المباحثات وغيرها من المسائل الدقيقة التي واجهته. وقد يمكن الاستنتاج



بأن دور الملك في الموضوع اقتصر على تقديم النصح بالحذر والتروي، نظرا لعدم حصانة ليبيا في مواجهة القوى المناوئة على جناحيها الشرقي والغربي. ولعل وجود القوات البريطانية في طرف البلاد الشرقي والقوات الأمريكية في طرفها الغربي كان يعد بمثابة رادع متوقع في حالة العدوان الخارجي، ولكن لم يكن من شأنه التصدي لمحاولات التخريب الداخلي.

ولما اندلعت حرب الأيام الستة بين مصر واسرائيل في **٥** يونيه **١٩٦٧** عانت ليبيا مضاعفات مشابهة لما سبق أن جر على حكومتها كثيرا من المتاعب أثناء حرب السويس في عام **١٩٥٦**. فالهزيمة الساحقة التي تعرضت لها القوات المصرية على يد الاسرائيليين عزتها اذاعة القاهرة الى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، وبالتالي فان مجرد وجود قواعدهما في الأراضي الليبية جعل من ليبيا هدفا تلقائيا للاستفزازات المصرية. وقامت مظاهرات صاخبة في طرابلس وبنغازي، وأحرقت محلات اليهود، وأضرب عمال النفط عن شحن الناقلات. كما ورد في بعض التقارير أن العمال كانوا قد حرضوا على تدمير المنشآت البريطانية والأمريكية بالذات. وأشيع أن كبار رجال الدولة والديوان الملكي فروا الى ايطاليا خلسة بدافع الخوف من أن البلاد باتت على حافة الثورة الشاملة. وقد ظلت حياة الرعايا البريطانيين والأمريكيين في خطر لبضعة أيام، حيث هوجمت سفارتا البلدين فنصحتا أسر مواطنيهما بمغادرة البلاد. واستمرت حالة القلق والتوتر عدة أسابيع، وكان واضحا أن سطوة الاذاعة المصرية على أذهان الناس قد نجحت في زعزعة الولاء التقليدي للنظام السنوسي. وبدا أن أسلوب الحكم الخير الذي اتبعه الملك الشيخ المتسامح لم يعد كافيا لمقاومة التيارات الهدامة التي انطلقت من عقالها نتيجة لمشاعر الحقد المتولد من جراء الهزيمة العربية أمام اسرائيل.

وتم التغلب على الأزمة الراهنة عن طريق تعيين حكومة جديدة برئاسة واحد من أعيان برقة يدعى عبد القادر البدري، كان يعوزه التعليم لكنه عرف بالحزم والشدة. فشرع في تقديم بعض المشاغبين للمحاكمة.

ان هذا السرد التاريخي اقتصر في الغالب على تناول المشكلات الشخصية والسياسية التي واجهت الملك ادريس، فلم يكن بالمستطاع تقديم عرض مستفيض للتطور الاجتماعي والاقتصادي الذي شهدته البلاد في نحو عشرين عاما من الاستقلال. وربما كانت ليبيا في البداية أفقر بلد في العالم من حيث مستوى دخل الفرد، بينما اعتمدت في بقائها على المعونات البريطانية، ولم يكن ثمة أغنياء باستثناء حفنة صغيرة تعد على أصابع اليد الواحدة من الأفراد الموسرين نسبيا. كما أن الملك ادريس، الذي تربى في بيئة عرفت

بخشونة العيش والتقشف الشديد، ظل كعادته قنوعا طيلة حياته. وحين الاستقلال بلغت المخصصات الملكية أربعة عشر الف جنيه استرليني سنويا، لكنه لم يغير طريقة حياته البسيطة في بيته الريفي المتواضع خارج بنغازي. وكان تقشفه في الواقع نموذجا لحياة الشعب أيضا، ولا سيما في برقة حيث ساد الفقر حتى في المدن. ولن أنسى ما حييت منظر البدل الرثة والأحذية والقمصان البالية التي كان يرتديها وزراء حكومة برقة لدى عقد أول اجتماع وزاري لهم في سبتمبر ١٩٤٩. وقلما وجدت في خارج بنغازي منازل بالمعنى الحقيقي، بل ان معظم الأهالي كانوا يقيمون اما في خيام أو في أكواخ مخلعة الأبواب والنوافذ مصنوعة من براميل الزيت المسطحة. وكانت مساكنهم خالية من التدفئة في برد الشتاء. ولما كنت ازور الأمير صباحا في تلك الأيام من شتاء عام ١٩٥٠ كنت أجده قابعا قرب كانون الفحم بمنزله القليل الأثاث المكون من غرفتين للنوم في ناحية الغدير. وهناك كنا نجتمع لبحث شؤون الدولة قبل أن يذهب الى قصر المنار لمباشرة مهامه الرسمية، فكنت أجلس واياه لتبادل الحديث أثناء تناول القهوة التي يقدمها لنا ابراهيم الشلحي، فيما تقعد الأميرة عابسة على اريكة مزخرفة متداعية في أحد أركان الغرفة وهي متلفعة بأثواب كثيرة على عادة السيدات الليبيات. ومن ذكرياتي عنه أيضا رحلة قمنا بها للنزهة وتناول طعام الغداء فوق الهضبة الصخرية الوعرة المطلة على طبرق، حيث دعانا الملك وزوجته باعتزاز للفرجة على بيت كان قد بناه لتوه في سنة ١٩٦١ كمحل لسكنهما الخاص، وهو عبارة عن منزل ضيق يتألف من حجرتين للنوم وحيطانه مبنية بالطوب.

واكتشاف البترول في سنة ١٩٥٨ أحدث ثورة في الاقتصاد الليبي تشبه الطفرة الاقتصادية التي شهدتها الكويت وبعض البلدان العربية الأخرى السعيدة الحظ قبل ذلك بسنوات. والملك نفسه ظل دائما بمعزل تام عن النواحي المالية والتجارية، تاركا للوزراء ومستشاريهم مهمة التفاوض مع شركات النفط والتصرف في الايرادات المحصلة. وكان أبرز أولئك المستشارين المستر بيت هارديكر، وهو مسؤول سابق من عهد الادارة البريطانية في طرابلس، ونديم الباجهجي وزير النفط العراقي سابقا. أما أول مدير لشؤون البترول فكان المستر هوجنهاوس، وهو هولندي من موظفي شركة شل سابقا. وقبل أن تبدأ ايرادات النفط في التدفق على الخزينة الليبية، كانت الزراعة البسيطة هي ركيزة اقتصاد البلاد، وان كان أكثر من نصف الدخل يأتي من المساعدات الخارجية التي بلغت قيمتها عشرة ملايين جنيه استرليني في عام ١٩٥٦ و ٧,٤٦ مليون جنيه في سنة ١٩٥٧ ثم ٩,٣٧ مليون جنيه سنة ١٩٥٨. وكانت الميزانية المعتمدة لسنة ١٩٥٩/ ٦٠ في حدود مبلغ ١٣,٣٨ مليون جنيه ونصف تقريبا من المعونات الأجنبية التي قدمت معظمها بريطانيا.

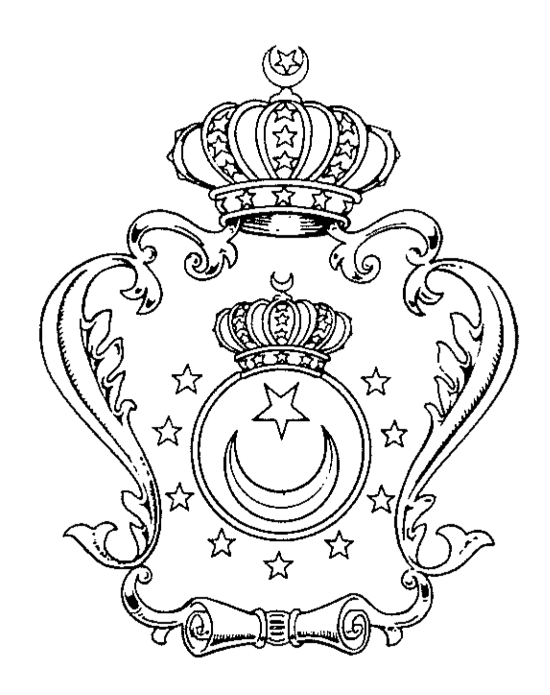


ولأغـراض التنقيب عن النفط، قسمت البلاد الى مجموعة كبيرة من مناطق الامتياز الصغيرة نسبيا، وذلك تشجيعا لمشاركة أكبر عدد ممكن من الشركات البترولية في أعمال التنقيب. ولـدى نهاية عام ١٩٥٩ كانت هنالك ١٨ شركة تعمل في ٧٧ امتيازا تغطي مساحة قدرها مليون كيلومتر مربع، أي نسبة ٦٥٪ من رقعة البلاد الكلية. وفي نفس تلك الفترة كانت الآبار الاستطلاعية التي انتهى حفرها والجاري حفرها حوالي ٩٠ بئرا منها ١٥ وجد فيها البترول فعلا. وقد ظهرت الاكتشافات البترولية المبكرة في فزان قرب الحدود الجزائرية، ولكن أهم اكتشاف هو الذي عثرت عليه شركة اسو ستاندرت ليبيا في ابريل ١٩٥٩ عند بير زلـطن الواقع داخل الصحراء على بعد ١٥٠ ميلا من خليج سرت. فحين جرى اختبار هذا الحقل تكشف عن امكانية انتاجية بمعدل ١٧٥٠٠ برميل يوميا من عمق ٥٥٠٠ قدم، وتم بعده العثور على عدة حقول أخرى في حوض سرت ومنطقة جالو أثناء السنوات القلائل التالية.

وحتى قبل البدء في تحصيل عائدات النفط، كان انفاق الشركات البترولية على أعمال التنقيب قد أخذ يحدث تحولات جذرية في اقتصاد البلاد. وابتداء من ٥,٤ مليون دولار في سنة ١٩٥٦ بلغت جملة الانفاق ١٣,٥ مليون جنيه استرليني سنة ١٩٥٧ و ٢٤ مليون جنيه سنة ١٩٥٨ ثم ٣٠ مليون جنيه في عام ١٩٥٩. وفي نهاية عام ١٩٥٨ كان ثمة ٦٤٠٠، منهم ٤٦٠٠ ليبي، يعملون في خدمة الشركات البترولية مباشرة بالاضافة الى كثيرين غيرهم يشتغلون لدى المقاولين ومتعهدي التموين لحساب تلك الشركات. كما أن دخـل الحكـومـة المـركـزية، الـذي لم يكن يتعـدى ١١ مليون جنيه اسـترليني في سنة ١٩٥٢/٥٣، ارتفع الى ٦٤ مليونا في عام ١٩٦٢/٦٣ ثم بلغ في السنة المالية ١٩٦٧/٦٨ نحـو ٢٢٦ مليون جنيه، منهـا ١٧٠ مليونـا من الاتـاوات البترولية. وسعيا الى تحقيق الاستفادة المثلى من تلك الزيادة الهائلة في ايرادات ليبيا، عمدت الحكومة في عام ١٩٦٠ الى دعـوة المصرف الدولي لدراسة وضع البلاد الاقتصادي وتقديم ما يراه من توصيات بشأنه. ومن ثم أنشىء مجلس الاعمار الذي وضع خطة خمسية للتنمية (١٩٦٣ - ١٩٦٩) استهـدفت انفاق ٤٧٣٦٥٨ دولارا موزعة على أحد عشر بندا، وفي مقدمتها الأشغال العامة والزراعة والتعليم. وقامت الخطة على أساس تخصيص ٧٠٪ من عائدات البترول، فكلما ازدادت تلك الايرادات كلما ارتفعت قيمة الانفاق على مشاريع التنمية.

ومن أهم مشروعات التنمية التي نفذت طبقا لهذا البرنامج مشروع ادريس للاسكان، وكان القصد منه انشاء مساكن عصرية لائقة مزودة بالمياه والكهرباء والمجاري بدلا من الأكـواخ المـزرية التي كانت قائمة على أطراف المدن كمأوى لنحو ٢٠٪ من السكان.

واحدى الجهات التي استفادت من هذا المشروع بنوع خاص هي مدينة طبرق التي مزقتها الحرب، فهي لم تتمكن من اعادة بناء مساحة واسعة من أحيائها المهدمة فحسب، بل أنشئت بها أيضا منطقة سكنية جميلة كهدية من شركة النفط البريطانية (بريتيش بتروليوم) التي أقامت ميناءها البترولية هناك. وكذلك استهدف البرنامج تحقيق قفزة هائلة في تطوير المرافق التعليمية، اذ تضمن مشروعات لانشاء جامعة حديثة فسيحة في الناحية الجنوبية من بنغازي ومدارس ابتدائية جديدة في جميع المدن والقرى وكلية فنية راقية خارج مدينة طبرق. وفي مجال الأشغال العامة شملت الخطة بناء محطات جديدة للكهرباء في كل من طرابلس وبنغازي وشبكة من الطرق المزدوجة لمرور السيارات على طول معظم الشريط الساحلي الممتد الى مسافة ١٢٠٠ ميل من الحدود التونسية الى الحدود المصرية. أما الخطة الخمسية الثانية (١٩٦٩ - ١٩٧٤) التي وضعت هي الأخرى على أساس اعتماد ٧٠٪ من عائدات النفط لأغراض التنمية فالظاهر أنها قتلت في مهدها. ويبدو أن الحكم الحالي يعتبر الانفاق العسكري أهم من أهداف التطور الاقتصادي والاجتماعي. كما أن ليبيا ظلت منذ عام ١٩٦٧ تسهم بسخاء في دعم الخزينة المصرية، الا أنها في سنة ١٩٧١ قطعت المساعدات المماثلة التي كانت تقدم للأردن وتحولت بدلا من ذلك الى تمويل المنظمات الفدائية الفلسطينية.



٢٠
سقوط الملكية

تميز الوضع في ليبيا خلال السنوات القلائل الأخيرة من عهد الملك ادريس بظاهرة التقلب السياسي والتأرجح الحكومي المتزايد نتيجة لفقدان السيطرة الحازمة من ناحية وللضغوط الخارجية من ناحية أخرى. فالملك شخصياً تقدم في السن وتعب من مواجهة المشكلات المعقدة الناجمة عن الثراء الطائل الذي جد على البلاد فجأة اثر اكتشاف البترول. وهو نفسه لم يكن ملكيا بالسليقة على أي حال، بل كان قليل الثقة في امكانية دوام الملكية الوراثية في المدى البعيد، وقد سعى مراراً الى التنازل عن العرش مفضلاً اقامة نظام جمهوري كان يراه أكثر ملائمة لروح العصر. ومن المؤسف أنه حتى بعد اختيار ابن أخيه الحسن الرضا ولياً للعهد لم يحفل كثيراً بضرورة اعداده لتولي مسؤولياته الجسام. فحالة الغموض الذي اكتنف مستقبل الحكم في البلاد كانت عاملاً أسهم في عدم الاستقرار السياسي. ومن العوامل المربكة الأخرى كثرة تغيير الحكومات بحيث أصبح رؤساء الوزارات يتعاقبون على الحكم واحداً تلو الآخر بسرعة مذهلة ـ حتى أن الوزارة تبدلت ما لا يقل عن خمس مرات أثناء السنوات الخمس الأخيرة وحدها.

وذاعت شائعات عن تفشي فساد الذمم بين وزراء الحكومة. وكان هذا سبباً ونتيجة في نفس الوقت لكثرة تغير الحكومات. فربما بدافع الشعور بأنهم لن يبقوا في مناصبهم طويلاً، حاول بعض الوزراء وكبار الموظفين أن يغتنموا الفرصة قبل فواتها، وان كان من المستبعد أن أياً منهم استطاع جمع ثروة كبيرة من هذا السبيل، فأصحاب الملايين في ليبيا، على عكس أمثالهم في معظم البلدان الغنية بالنفط، كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة، وهم من التجار الذين كسبوا أموالهم بعرق الجبين والعمل الدؤب. وفي بعض البلدان العربية الأخرى يلاحظ أن أعضاء الأسر المالكة قد يستغلون نفوذهم بحكم تلك العلاقة من أجل الاثراء الشخصي، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث في ليبيا على حد علمي (باستثناء حالة واحدة فقط).



وقد تمهد الطريق أمام الانقلاب الليبي بفعل الاضطرابات التي وقعت أيام الحرب العربية ـ الاسرائيلية عام ١٩٦٧، وهي اضطرابات خلقتها بالدرجة الأولى حملات الاذاعة المصرية لاثارة مشاعر الجماهير ومظاهرات الطلبة. والحق يقال ان كثيرين من الليبيين الشبان، ولا سيما في طرابلس، كانوا يميلون الى التعاطف مع انتشار فكرة القومية العربية استجابة لدعوة الرئيس عبد الناصر الذي اتخذ موقفاً شديد العداء تجاه بريطانيا بالذات منذ الهجمة البريطانية على بلاده عقب تأميم قنال السويس في سنة ١٩٥٦، كما سبق أن رأينا. ومن هنا تعتبر الثورة الليبية احدى الكوارث العديدة التي تمخضت عن السياسة البريطانية الخاطئة في ذلك الوقت.

كان الملك يستعد للتخلي عن العرش منذ فترة. وبتاريخ ٤ أغسطس، بينما كان في اليونان قبل انتقاله الى مدينة بورصة التركية للعلاج، أمضى وثيقة تنازله* وعهد بها الى الشيخ عبد الحميد العبار الذي كان المفروض أن يقدمها لمجلس الأمة الليبي رسمياً في اليوم الثاني من سبتمبر ١٩٦٩. ومن ثم سافر الملك وزوجته الى بورصة وفي نيتهما أن يعودا الى طبرق خلال شهر سبتمبر للاقامة هناك بصفة دائمة بعد اعتزال الحكم. غير أن المتآمرين علموا بتوقيع الملك على وثيقة التنازل، فصار لا بد لهم من التحرك بسرعة لئلا يسبقهم اعلان تنازله عن العرش فيفسد خطتهم في الادعاء بأن حركتهم هي ثورة شعبية حقيقية وأن القصد منها خلع ملك رجعي مستبد. وهذا ما دفعهم الى التعجيل بانقلابهم قبل الثاني من سبتمبر. وقد رسمت خطة الانقلاب وجرى تنفيذها بشكل بالغ التكتم والحذق، فمن الصعب أن يصدق أحد أنها لم تكن من وضع خبراء متمرسين بمثل هذه الأعمال. وتحدد موعد القيام بها ليلة ٣١ أغسطس (وهو يوم عطلة رسمية في بريطانيا وكذلك عند الحامية البريطانية في طبرق). وابتداء من منتصف الليل تحرك الضباط الصغار بالمصفحات من ثكنات الجيش فاستولوا على مختلف المواقع الرئيسية في كل من طرابلس وبنغازي والبيضاء وما حولها. وبادروا قبل كل شيء الى احتلال دور الاذاعة حيث بدأ بث الموسيقى العسكرية والاعلان عن وقوع الانقلاب بفرض حظر التجول

---

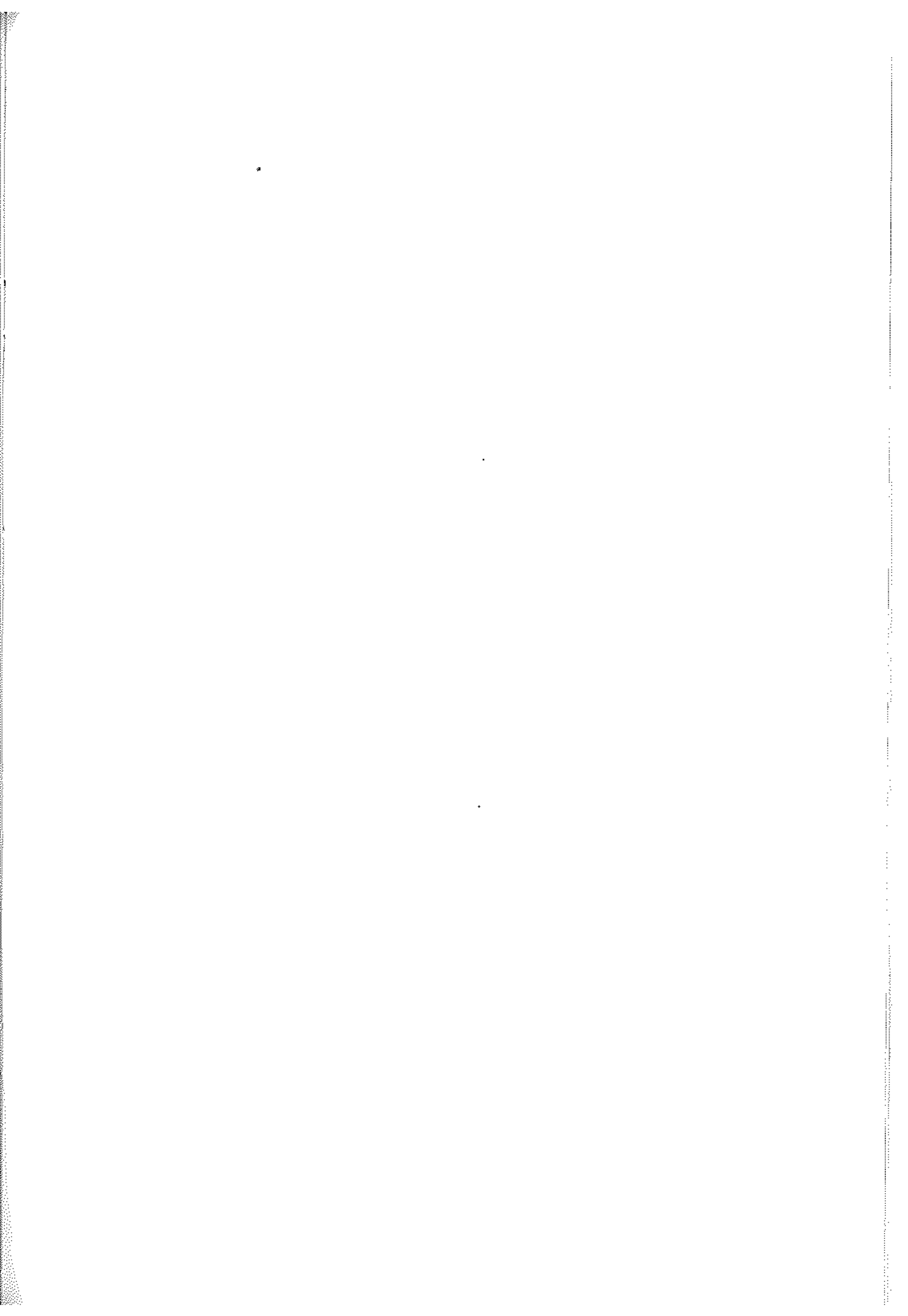
* جاء الآتي في آخر فقرة من وثيقة التنازل الموجود منها صورة لدى الناشر:

(واني ان شاء الله عقدت العزم الاكيد على اجتناب السياسة بتاتاً والله على ما اقول وكيل. والذي اختتم به قولي بأن اوصي الجميع من ابناء وطني بتقوى الله في السر والعلن، وانكم جميعاً في ارغد عيش وانعم النعم من الله تبارك وتعالى.

فاحذروا من ان يصدق عليكم قوله تعالى «ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» فالله الله مما يغضب الله. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ولا تفرقوا، قال صلى الله عليه وسلم «لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم».) النص الكامل للوثيقة، ملحق الناشر رقم ٦.



سيدي ادريس ويرى خلفه رئيس مجلس الشيوخ الليبي الشيخ عبد الحميد العبار.



والتهديد باطلاق النار على كل من يخالفه. وتعطلت الاتصالات الهاتفية والرحلات الجوية فيما احتل الجنود مكاتب البريد والمطارات. وكانت الدعاية التي رافقت الانقلاب كاذبة مفترية في مزاعمها ضد الملك الذي حاولت أن تصوره مثل فاروق ـ فاسقاً متهتكاً فاسد الذمة ـ وهو أبعد ما يكون عن تلك الصفات. فسمعته الشخصية كانت فوق مستوى الشبهات سواء في بلاده وفي العالم العربي عامة كرجل شديد الورع والتقوى كرّس حياته لحرية وازدهـار شعبه وكان في سلوكه الخاص مثالاً للاعتدال والاستقامة الكاملة. وان الحملة الدعائية التي تواصلت ضده على ذلك النحو كانت من نوع الاسفاف الرخيص الذي لا يقوم على أساس، كما أنه غريب عن طبيعة الليبيين وهم كلهم، رغم خلافاتهم، يعـرفـون جيداً فضائل الملك، ولم يكن عندهم أي سبب حقيقي للتذمر من حكمه. وواضح أن هذه الدعاية التي سعت الى ايهام الناس بأن انقلاب سنة **١٩٦٩** هو ثورة شعبية على حكم جائر انما كانت من وحي مصادر خارجية مدفوعة بالغيرة من ثراء ليبيا والحنق على الملك شخصياً لرفضه مجاراة التيار القومي المتطرف، خاصة وأنه انتهج سياسة عدم التدخل المباشر في المواجهة بين مصر واسرائيل وأقام علاقات ودية مع الغرب.

وبعدما وصلت أنباء الانقلاب بقي الملك والملكة وحيدين في مدينة بورصة. فأفراد الحـاشية القـلائـل الـذين رافقوهما الى هناك فروا على عجل للنجاة بأنفسهم، وأخيراً ساعدتهما الحكومة التركية على العودة الى فندق جاليني في كامينا فورلا باليونان، وهما في حالـة بائسة وشبه معدمين تماماً. ولم يكن من عادة الملك أن يحتاط للغد أو يحسب حساب الـطوارىء، فقد غادرا ليبيا بمبلغ بسيط أصلاً. وكما جاء في رسالة الملكة بتاريخ **١٣** سبتمبر من ذلك العام (انظر ملحق هذا الكتاب للاطلاع على صورة الرسالة):

«انـنـا لم نتمكن من الـرد على برقياتكما ورسائلكما، لأننا وجدنا أنفسنا وحيدين، أنا وزوجي، لما حدث الانقلاب. ولم تكن عندنا نقود اطلاقاً حتى خفت الحكومة التركية لمساعدتنا، فسددت حساب الفندق ودبرت أمر رحلتنا الى اليونان».

فالأخبار التي رددتها الصحف المصرية والانجليزية أيضاً عن ملايين الجنيهات المودعة في مصـارف أجنبية كانت كلها كاذبة ملفقة من أساسها. ومنها مثلاً أن مراسل جريدة التايمز في أنقرة أشار الى «مصادر» زعمت أن الملك كان قد أودع خمسين مليون دولار في خزنة الفندق الذي نزل به في اليونان. وأنا أعرف شخصياً وبالتأكيد أن الملك والملكة لم تكن لهما أموال في أي مكان من العالم سوى الحساب المتواضع الذي كانا يحتفظان به في مصرف طبرق لايداع المخصصات الملكية الزهيدة المقدمة من الحكومة. وهما لم يخرجا من ليبيا بأي شيء ما عدا حقائب السفر، كما أن ملابسهما وأمتعتهما الشخصية التي تركاها

بمنزلهما في طبرق نهبتها الطغمة العسكرية فور الانقلاب. ولعلها نفس الملبوسات التي عرضت على الجمهور فيما بعد، الى جانب بعض صور النزهة على شاطىء البحر والأطفال يلعبون في الماء، كدليل قاطع على حياة الاستهتار والمجون في «القصر الملكي».

ومكث الملك والملكة في اليونان مدة شهرين لقيا أثناءها أعظم الحفاوة وكرم الضيافة من اليونانيين حكومة وشعباً. وكان أكثر ما شغلهما في ذلك الوقت مصير ابنتهما★ سليمة والسكرتيرة الفلسطينية اللتين قبض عليهما معاً وأودعتا السجن، فلم يسمح لهما بمغادرة طرابلس الى القاهرة الا بعد شهرين تقريباً.

ولقد واجه الملك كل هذه الأزمات بنفس الهدوء والوقار المعروفين عنه، ولكن لا بد أنه أحس بالأسى العميق لأن صوتاً واحداً لم يرتفع في الصحافة البريطانية بما يعيد الى الأذهان مدى الصداقة الثابتة المتينة التي أبداها نحو الشعب البريطاني منذ أن أعلن وقوفه الحازم الى جانب بريطانيا في أحلك ساعاتها عام ١٩٤٠. وفي رسالتها بتاريخ ١٣ سبتمبر شكرتنا الملكة على البرقيات والرسائل التي كنا بعثناها مواساة لهما، فكتبت تقول:

«اننا نقدر لكما ما أبديتماه من مشاعر التعاطف معنا في هذه الآونة بالذات، خصوصاً وأنكما صديقانا الوحيدان في بريطانيا العظمى كلها رغم العلاقات الودية التي دامت طوال عشرين عاماً بيننا وبين انجلترا . . . وقد كنت أحسب أن الايطاليين أول من يهاجمنا ويشمت بنا في ظروف كهذه، لأنهم كانوا أعداء لنا على كل حال وكنا نقاتلهم في يوم من الأيام، ولكن حدث عكس ما توقعت. فهم من خلال صحافتهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة تهجما على الملك، بل قالوا انهم، وهم الذين حاربوه من قبل، يستطيعون أن يشهدوا له بالوفاء لأصدقائه والعدل في حكمه».

ثم أخبرتنا الملكة في رسالتها المؤرخة في ٢٦ أكتوبر بأن الملك، بعد امعان التفكير، قرر الاقامة في مصر. ومضت تقول:

«ان الجو بارد هنا. وقريباً يحل شهر رمضان، ونحن لا يسعنا أن نصوم في أي بلد أوروبي. فلتكن مشيئة الله لخير الجميع. وسوف نبحر الى الاسكندرية يوم الجمعة القادم ونصل القاهرة في نفس اليوم حيث نجد في استقبالنا كلاً من سحر وابنتي الغالية سليمة».

فأرسلنا الى بعض أصدقائنا المصريين لمساعدتهما، داعين لهما بالتوفيق وسلامة الوصول. وبتاريخ ١٣ نوفمبر كتبت الينا سكرتيرة الملكة رسالة جاء فيها:

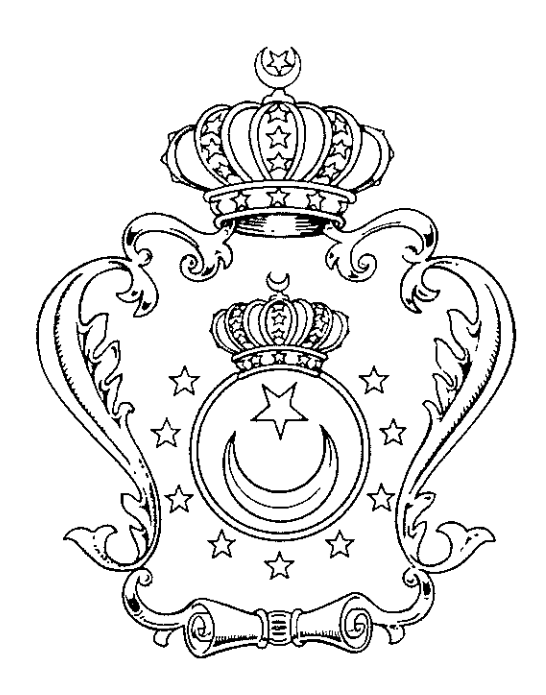
★ ابنتهما بالتبني.

«لقد وصلنا القاهرة منذ عشرة أيام، وكان الاستقبال الذي لقيه جلالة الملك في غاية الود والحفاوة. كما أن القصر الذي نقيم به الآن جميل جداً، ونحن جميعاً محاطون بمنتهى اللطف والكرم».

ومنـذ الثالث من نوفمبر ١٩٦٩ عاش السيد ادريس وزوجته فاطمة وابنتهما سليمة مرتاحين في قصر السلطان بحي الدقى في القاهرة كضيوف على الحكومة المصرية مقيمين في حماها التزاماً منها بالواجب الاسلامي المقدس. ولكن وراء الأكمة ما وراءها. فبالنظر الى مساندة عبد الناصر القوية للثورة الليبية، لا شك أن استضافته للسيد ادريس حتى يبقيه تحت رقابة مشددة في القاهرة تعذر عليه أن يقابل أياً من أصدقائه الأوفياء الذين كانوا في خارج ليبيا وقت الانقلاب أو تمكنوا من زيارة مصر فيما بعد.

وفي غضـون ذلـك واصلت الزمرة العسكرية حملتها الحاقدة لاضطهاد رجال العهد السابق بضراوة لا نظير لها عند العرب في أية ظروف مماثلة. فكثيرون من الليبيين الذين شاركوا في الحكم أيام الملك ادريس، ومنهم عدة شخصيات بارزة مشهود لها بالاستقامة والنزاهة مثل رئيس الوزراء الأسبق محمود المنتصر، تم القبض عليهم وألقى بهم في أحد سجون طرابلس حيث تعرضوا لمعاملة وحشية مهينة، كما حرم البعض من جميع أموالهم وممتلكـاتهم. وكانت قمة المهازل هي محاكمة الملك الجليل غيابياً أمام محكمة عسكرية خارجـة عن القانون أصلاً وحكمت عليه بالاعدام رمياً بالرصاص. ولكن التزام عبد الناصر بواجب الرعاية حال دون انتهاك حق السيد ادريس كلاجىء سياسي في مصر. ولم يكن بالمستـطاع تنفيذ الحكم، فقامت ضده بضع مظاهرات مدبرة في القاهرة، الا أن الشرطة المصرية سارعت الى اخمادها وطرد مدبريها. ومع هذا كله فان عبد الناصر بالذات كان قادراً على أن يفعل الكثير للتخفيف من غلواء المتمردين الصغار نظراً لنفوذه الكبير على القذافي شخصياً. أما في واقع الأمر فان الفترة ما بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧٢ قضاها الملك السابق وأسرته في حالة من القلق النفسي الدائم الثقيل الوطأة. فهم حرموا من أي اتصال بالأصدقاء الليبيين وبقوا في حكم الخاضعين للاقامة الجبرية يخشون حتى مراسلة أصـدقائهم في خارج مصر. فلم تعد ثمة وسيلة للاتصال بهم الا بأساليب ملتوية عن طريق عمان وبيروت.

ثم تحسن الوضع كثيراً بعد وفاة عبد الناصر وتولي الرئيس السادات، الذي كان له من حس الانصاف والادراك السليم ما دفعه الى شجب سلوك النظام الليبي الأهوج. ومنذ ذلك الحين أصبح السيد ادريس وعائلته يعاملون بما يستحقونه من تكريم واحترام، كما استطاعوا أن يعيشوا حياة طبيعية مثل غيرهم من الناس.



٢١
لمحة عن
شخصية الملك ادريس

على الرغم من محاولات تشويه صورة الملك في أذهان الناس وتهويل بعض نقاط الضعف التي لا ينفرد بها عن بقية البشر، الا أن الحقبة الطويلة التي قضاها في خدمة بلاده وأمته قد ترسخت في أعماق التاريخ بما يكفي للصمود أمام كل المساعي الخبيثة.

ان الملك ادريس رمز لعهد مضى ولن يعود، لكنه عهد زاهر يجدر بالليبيين جميعا والعرب عموما أن يعتزوا به. فتاريخ ليبيا العربية لم يشهد أروع من العصر الذهبي للسنوسية والكفاح البطولي المستميت الذي خاضه عرب برقة ضد الاستعمار الايطالي الغاشم. ولعل السيد ادريس الآن هو الوحيد الباقي على قيد الحياة من أبطال تلك الفترة الزاخرة بالأمجاد، وهو صاحب الفضل الذي لا ينسى في ابقاء جذوة روح الاستقلال حية في نفوس مواطنيه رغم خفوتها أيام الاحتلال الايطالي، ثم قاد بلاده الى ظلال حرية وارفة لم تنلها الا بعد معاناة أليمة، وها هي اليوم عرضة للضياع مرة أخرى. والملك ادريس كان شديد الترفع عن ماديات الحياة وحب الظهور والأضواء، وهذا، بطبيعة الحال، ليس مما يساعد أي حاكم على اكتساب شعبية واسعة. وقد تعرض فعلا للانتقاد بسبب ابتعاده وتجرده عن الشؤون العامة. وما كان بوسعه أن يتخلى عن طباعه التي نشأ عليها من تفانيه في العقيدة الدينية والحرص على أداء فرائضها، وكراهية الأبهة والرسميات الفارغة، واخلاصه الدائم للاصدقاء القدامى والتقاليد العريقة على السواء، وشغفه بالجياد الأصيلة، وفوق كل ذلك عشقه للصحراء بما تنطوي عليه من صفاء ونقاء على عكس المدن المليئة بألوان الشرور والتفسخ المادي. وكان كاتب دنمركي أجرى معه مقابلة صحفية أثناء حياته بالمنفى، حيث سأله عن موقفه تجاه الاحتلال الايطالي لليبيا آنذاك، فجاء رده مؤكدا لنظرته الى الحياة الروحية باعتبارها أهم من الوجود المادي، اذ قال في معرض حديثه:



«ان الحضارة التي يريد الايطاليون ادخالها الى بلادنا تجعل منا عبيدا للظروف. ولذا وجب علينا أن نحاربها. فهي تبالغ في اضفاء الأهمية على قشرة الحياة الخارجية – كالتقدم الفني والآلي مثلا – وتعتبر مظاهر الأبهة والسلطان معيارا للحكم على قيمة الفرد أو الأمة، في حين تستهين بالنمو الداخلي للانسان. وأستطيع أن أقول لك شيئا واحدا وهو أنه حيثما تسود الدعوة السنوسية يستتب السلام والرضا من كل جانب».

ومع ذلك فان ميله الى العزلة وتفضيل هدوء الريف أو الصحراء على حياة المدن الصاخبة لا يعني التنسك أو العزوف عن مخالطة الناس. فهو يحب رفقة الأصدقاء ويسعده أن يجالسهم لتجاذب أطراف الحديث في شتى المواضيع العادية التي قد تروق لهم، مثل أحوال الجو في تعاقب الفصول ومواقع النجوم وطبائع الخيل وأنواع الطيور وحياة الصحراء ومشاغل الصحة وذكريات الماضي وأفراح الحاضر وأتراحه. وكان دائما يتناول مهام الدولة بمنتهى التدقيق والجدية، وان كانت فترة الفراغ الطويلة في أواسط حياته قد عودته على الجلوس أغلب الوقت، فلم يعد له نفس نشاطه القديم. وأصبحت تضجره المناقشات الطويلة المعقدة، مما حدا ببعض أفراد الحاشية الى استغلال نفوذهم بتفادي القضايا المملة وصد الزوار عنه لمجرد الحفاظ على امتيازاتهم الخاصة. كما أن نفوره من الدعاية كان سببا في جهل الناس بمدى التقدم الرائع الذي شهدته ليبيا في عهده. وهذا أمر مؤسف حقا لأن أغلب الانجازات الهامة في البلاد كانت نتيجة لمبادرات من الملك شخصيا. وهو كان يأتمن وزراءه في أداء واجباتهم على أكمل وجه، لكنهم خذلوه في كثير من الأحيان. وكان يثق في ولاء شعبه ثقة عمياء ولا يتخذ أية اجراءات لحماية أمنه الشخصي. فمحال اقامته ظلت دائما خالية من الحراس المسلحين، ولم يرافقه قط أي حرس خاص أثناء رحلاته، بل انه أهمل حتى أبسط احتياطات الأمن المألوفة مثل طلب التحري عن خدم البيت قبل تشغيلهم.

ومن أوضح الأمثلة على نزاهة الملك ادريس وبعد نظره موقفه من أقربائه بالذات، حيث تصدى بعناد لخطر المحاباة العائلية التي كثيرا ما تفسد الأنظمة الملكية فيما لو كثر أعضاء الأسرة المالكة وألقى لهم الحبل على الغارب لاستغلال صلة القرابة في كسب النفوذ السياسي والاثراء. فهو حظر استعمال ألقاب الأمراء على أبناء الأسرة السنوسية، مصراً في نفس الوقت على ضرورة استثنائهم من شغل مناصب الدولة، فلم يكن يجوز لأي منهم أن يصبح وزيرا أو نائبا أو يعمل في خدمة الحكومة بأي شكل من الأشكال، فيما عدا حالة واحدة نادرة، وهي أن شاباً من أبناء عمومة الملك كانت له مدة خدمة طويلة في الجيش فسمح له بالبقاء.

وكـان موطن الضعف عنـده، في نظر الكثيرين، يكمن في عطفه البالغ على عائلة الشلحي بصفة خاصة. ويرجع سبب ذلك الى اعزازه الشديد لابراهيم الشلحي الذي خدمه بتفان واخلاص كاملين في السراء والضراء طيلة أربعين عاماً. وقد توطدت بينهما علاقة أخوية صادقة، اذ أن الثقة التي وضعها في ابراهيم الشلحي أثبتت صمودها امام تجارب الزمن وكانت في محلها تماما. فهو رجل أمين راجح العقل كان لسداد رأيه وكياسته نفع كبير للملك في كثير من الأوقات العصيبة والأزمات. وعندما اغتيل ابراهيم في سنة ١٩٥٤ كانت الصدمة عنيفة جدا الى حد أن الملك فقد اتزانه المعتاد فأقدم على عمل مناف للصواب. ويقال انه لم يتغلب قط على تأثير تلك الصدمة نهائيا.

وبعد وفاة ابراهيم الشلحي آل مركزه كمساعد رئيس مؤتمن على أسرار الملك الى ابنه البـوصـيري الشلحي الـذي لم يكن يتجـاوز الثـالثة والعشرين عند وفاة والده. وكان البوصيري متزوجا من فتاة انجليزية تعرف بها أيام دراسته في جامعة اكستر. وقد عين ناظرا للخاصة الملكية، وان كان كثيرا ما يدعى بلقب وزير البلاط. وهو مثل أبيه اكتسب نفوذا كبيرا لدى الملك، الا أنه على خلاف أبيه كان ينزع الى العجرفة والاستبداد. وكان له دور مهم في تدبير زواج الملك من ابنة الوجيه المصري لملوم باشا، وهي زيجة لم تدم طويلا كما أسلفنا. وبلغ من اتساع نفوذه أن الملك أخذ يكلفه بالمهام السرية الخاصة، الأمر الذي لا بد أنه ضايق وزراء الحكومة بالذات. وكانت سمعة الملك حينذاك في أوج عظمتها حتى أن النـاس كانـوا مستعـدين للتغـاضي عن تصرفات الشلحي من أجل خاطر الملك. والحقيقة أن البوصيري كان لا يملك أيا من الصفات اللازمة لشغل منصبه الرفيع. ولما قتل في حادث اصطدام سيارة كان يقودها بسرعة خارقة سنة ١٩٦٤ لم تكن وفاته فاجعة كبيرة للملك كما توقع الكثيرون، بل ان الملك أثبت لفترة من الوقت أن بوسعه الاستغناء عن خدمات آل الشلحي تماما. وكان للبوصيري أخوان آخران يحسب حسابهما - وهما عمر الشلحي الذي كان يشتغل بالمحاماة في القاهرة، وعبد العزيز وهو من كبار الضباط في الجيش الليبي. وكانا طبعا مقربين من القصر بحكم العلاقة العائلية. وعاد عمر من مصر ليصبح واحدا من أنجح رجال الأعمال في ليبيا، ولم يكد يمر عامان تقريبا حتى صار الملك يعتمد عليه مثلما اعتمد على والده وأخيه الأكبر من قبل. ولوحظ أن الملك حين سافر الى اليونان بقصد العلاج في سنة ١٩٦٧ ذهب برفقته كل من عمر وعبد العزيز، ومع ذلك فان بعض المراقبين فوجئوا واعترتهم الدهشة من قيام الملك بتعيين عمر الشلحي مستشاراً خاصاً له في أوائل عام ١٩٦٩، حيث أن عمر لم يكن محبوباً جداً ولا يحظى بكثير من الاحترام في ليبيا.



أما الأخ الثالث عبد العزيز، الذي تزوج أرملة أخيه الانجليزية بعد مقتل البوصيري، فقد كان هو الآخر غير محبوب في أوساط الجيش بسبب ترقياته السريعة التي عزيت الى حظوته لدى القصر. ففي أثناء سنة ١٩٦٩ كان رئيس لجنة للتفاوض على عقد صفقة دفاعية مع احدى الشركات البريطانية، كما ترأس في نفس الوقت لجنة أخرى مكلفة باعادة تنظيم الجيش الليبي. وتوليه تلك المهام أثار الاستياء بقدر مشابه لما نتج عن تعيين أخيه مستشارا خاصا للملك. فالليبيون عموما قلما كانوا على مودة مع أبناء الشلحي، بل اعتبروهم بمثابة طفيليين أدعياء تسلطوا ووصلوا الى الثراء عن طريق استغلال المكانة الخاصة التي كانت لوالدهم عند الملك.

وقد تحاول الدعاية الماكرة أن تجد في عطف الملك على آل الشلحي ذريعة لاتهامه بأنه طاغية رجعي مارس حكما جائرا مستبدا عن طريق حاشية فاسدة محسوبة على القصر. ولكن مثل هذه الصورة خاطئة مضللة تماما، اذ أن حرص الملك على المبادىء الدستورية جعله لا يحيد عنها في أي وقت الا باتجاه التمادي في اطلاق الحريات الديمقراطية بالذات. فهو من نواح عدة كان متقدماً بمراحل على غيره من قادة الشعوب الاسلامية. وهذا يتجلى بنوع خاص في موقفه من قضية حرية المرأة في بلاده. فقد كانت ليبيا أول دولة اسلامية تمنح المرأة حق التصويت في الانتخابات النيابية. كما أتيحت للمرأة الليبية أعلى مستويات التعليم ففتحت أمامها أبواب الجامعات في بنغازي وطرابلس لتلقي العلم على قدم المساواة مع الرجل. كما أن نظرة الملك التقدمية انعكست أيضا على حياة عائلته نفسها. فزوجته فاطمة، التي اقترن بها منذ قرابة أربعين عاما، سيدة لطيفة مفعمة بالحيوية والنشاط وربة بيت مثالية تمتاز باللباقة والذوق السليم. وهي ليبية صميمة ولدت وترعرعت في الكفرة، وكانت دائما نعم الزوجة للملك ادريس. وعلى عكس الكثيرات من الزوجات الليبيات اللاتي ينتمين الى الجيل القديم وما زلن يعشن في أسر الأردية العتيقة الطراز والبراقع السميكة التي عفا عليها الزمن، فان الملكة فاطمة ترتدي الأزياء العصرية ويظهر ذوقها الرفيع في انتقاء الملابس اللائقة ومفروشات البيت. وهي تحب سماع الموسيقى ومشاهدة التلفزيون، وكثيرا ما تسافر بالطائرة، وتشمل نشاطاتها الاجتماعية ترأس الجمعيات النسائية وحضور مهرجانات مرشدات الكشافة وزيارة المعارض التجارية والمستشفيات والمدارس. وكان يسعدها أن تستضيف الصغار في بيت العائلة حيث تشارك في لعب الأطفال ببالغ الغبطة والسرور.

ومما ألقى ظلالا من الحزن على حياة الملك والملكة أنهما لم ينجبا أطفالاً من صلبهما. فتبنيا

ابن أخ★[1] يتيم وتعهداه بالعطف والرعاية حتى أكمل تعليمه العالي وتحصل على مؤهل في الكيمياء، وهو الآن يعمل في لندن. كما قاما أيضا بتبني فتاة جزائرية★[2]، ممن لجأوا الى ليبيا أثناء حرب الجزائر ضد الفرنسيين، وهي التحقت أولا بمدرسة البنات في طبرق ثم أصبحت مثقفة جدا تتحدث اللغات الفرنسية والانجليزية والايطالية الى جانب العربية. وعلاوة على ذلك فهي سباحة ماهرة وتهوى رياضة التنس والتزلج على الماء. وقد تزوجت شابا مصريا وتعيش حاليا في القاهرة.

ورغم أن الملك والملكة كانا يعيشان حياة بسيطة، بل حياة زهد وتقشف بحكم عقيدتهما الاسلامية الصارمة، الا أنه من الصعب أن يعثر المرء على جو عائلي أكثر سعادة وكرما وتحضرا مما كان يسود بيتهما البسيط بالقرب من طبرق. وما كانت لتستهويه فخامة القصور الملكية التي قد نجدها في السعودية أو بلدان الخليج مثلا، وانما كانت أسرته الصغيرة تقيم في منزل متواضع يحتوي على ثلاث غرف للنوم ويسمى «باب الزيتون». وهو على مسافة نحو خمسة عشر ميلا في شرقي طبرق، وقد بناه الملك حسب التصميم الذي وضعه بنفسه. ويقع على بعد أربعة أميال من الساحل في بقعة مرتفعة عن مستوى سطح البحر. ويوصل اليه درب قصير متفرع عن طريق طبرق - السلوم يؤدي الى بوابة بيضاء صغيرة في السور المحيط بالمنزل والحديقة. وتضم حديقة البيت بعض أشجار الفواكه وجامعا صغيرا قرب المدخل، وامام الجامع هو الحاج التواتي أحد القلائل الباقين على قيد الحياة من كبار الاخوان السنوسيين. وليس ثمة ما يوحي بأي نوع من الترف في هذا البيت البسيط الخالي من الزخارف. ويوجد على جانب منه اسطبل يضم نحو عشرة خيول وفرس الملك المفضلة وبضعة جواميس. اما السائس فهو عجوز طيب من واداي كان في خدمة الاسرة السنوسية منذ سبعين سنة. وسر جاذبية هذا المكان القاحل هو جوه الجاف الذي تلطفه نسمات البحر وموقعه المكشوف المرتفع قليلا على حافة الصحراء. ويقع المنزل وسط ساحات معارك الحرب العالمية الثانية، فعلى مسافة قصيرة منه تبدو مقابر القتلى البريطانيين والفرنسيين حيث يتجلى حسن الرعاية في صفوف منتظمة من الصلبان البيضاء. كما تشاهد على طول السور القريب من مدخل طبرق رسوم محفورة في الأحجار تمثل الشارات العسكرية لوحدات الجيش الثامن. ومكتب الملك نفسه عبارة عن غرفة بسيطة الأثاث علقت على جدارها لوحة والده السيد المهدي (وهي اللوحة الخشبية التي كان يحملها الأولاد الى الكتاب لتدوين القرآن الكريم)، بينما تقوم على رفوف المكتب

★[1] السيد عمر العربي حفيد سيدي احمد الشريف.

★[2] سليمة.



صورة لأخوة الملك وصور تظهر فيها ملكة بريطانيا وزوجها الأمير فيليب أثناء زيارتها لطبرق.

كان السيد ادريس في الواحدة والستين من عمره حين أصبح ملكا لليبيا في عام ١٩٥١. وفي أواخر عهده سنة ١٩٦٩ بدا عليه النحول وقد شابت لحيته وشاربه تماما. وكان مهيب الطلعة لم تزل نظرته مستقيمة قوية، ويظهر منتصب القامة يجلله وقار الشيخوخة. وبقيت مداركه بصحة جيدة رغم تقدمه في السن. ففيما عدا أن بصره ضعف قليلا، ظل حاد السمع متيقظ الذهن قوي الذاكرة. وهو دائما يرتدي الزي العربي الليبي المكون من جلباب أبيض طويل له ياقة عالية وفوقه عباءة سوداء طويلة الكمين مطرزة الحواشي★[1]. وأحيانا يستبدلها بعباءة أخرى بيضاء. واذا كان الجو باردا يتلفع بجرد أبيض طويل أو يضع شالا على كتفه اليسرى. وتحت العباءة صدرية بيضاء مطرزة★[2]. ويلبس لقدميه الحافيتين خفين من الجلد الناعم★[3]. بينما تغطي رأسه دائما طاقية حمراء خفيفة ذات حافة رفيعة بيضاء يرفعها من الأمام ويغمدها الى أذنيه على الجانبين★[4]. وهو يبدو الآن في هيئة الشيخ الجليل وقد اعتراه بعض الوهن، الا أنه بفضل اعتداله الدائم في المأكل والمشرب ما زال سليم البنية رغم مرض الروماتزم الذي طرأ عليه في السنوات الأخيرة.

★١ زبون الكاط.

★٢ فرملة الكاط.

★٣ بلغه.

★٤ شنة وتحتها معرقه.



سيدي أدريس يستقبل ملكة بريطانيا اليزابيث الثانية وزوجها الامير فيليب في طبرق سنة ١٩٥٤.



جنة البقيع وتحت النجمة البلاطة التي تسد التجويف المدفون به سيدي ادريس.

خـــاتمة

ان الصداقة التي ربطت بيننا وبين الملك ادريس والملكة فاطمة لم تنقطع بعد مغادرتنا ليبيا في عام ١٩٥٢. والواقع أن الصداقة معه ما كانت تبنى على أساس المكانة أو الثراء وانما تقاس بمدى الاخلاص والتفاهم المتبادل. ومنذ أن غادرنا بنغازي الى أن فرضت عليهما الظروف حياة المنفى كنا نتلقى منهما دعوات متكررة للزيارة وقضاء فترات الاجازة في منزلهما. وفي بعض السنوات لم يكن بمقدورنا تلبية الدعوة الكريمة، لكننا كثيرا ما ذهبنا نحن وأولادنـا فشاركناهما في مرح العائلة السعيدة بكل أوجه حياتها واهتماماتها. وبعد الانقلاب العسكري في سنة ١٩٦٩ استقر السيد ادريس في مصر حيث قضى الثلاثة عشر عاما الأخيرة من حياته. فعاش هادئا، وهو يدرك ضرورة الامتناع عن أي عمل قد يؤدي الى الحاق الضرر باستقرار ليبيا مستقبلاً. ولم يغادر مصر الا مرتين ذهب فيهما الى مكـة للحـج. وكانت وفاته★ في القاهرة بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٨٣، وهو في سن الرابعة والتسعين، ايذاناً بانتهاء الحركة السنوسية العظيمة.

دي كاندول

١٩٨٨

★ دفن سيدي ادريس في المدينة المنورة، وكان قد طلب من جلالة الملك خالد بن عبد العزيز في لقاء لهما بموسم الحج سنة ١٩٧٧ م ان يأذن بدفنه متى حانت المنية في جنة البقيع وبالتحديد داخل تجويف الربوة المدفون بها رجال اهل البيت وشهداء الحرة والتي يوجد في سفحها قبر سيدي احمد الشريف، فكفل الملك خالد لسيدي ادريس ذلك، رحمهما الله. ثم ان خادم الحرمين الملك فهد اجاز ذلك بعد وفاة الملك خالد.

وقد فتحت السلطات السعودية يوم الوفاة مدخل تجيوف الربوة وأعد مكان لسيدي ادريس بداخلها. وقد نقل الجثمان الطاهر من القاهرة الى المدينة المنورة في طائرة مصرية خاصة، ترافقه الملكة فاطمة والسيد نافع ابن السيد العربي السنوسي وعمر ابراهيم الشلحي، مع وفد مصري رسمي برئاسة ياور رئيس الجمهورية، وكان في استقبال الجثمان وكيل عن امير المدينة المنورة (الامير عبد المحسن بن عبد العزيز) الذي كان غائباً في رحلة علاج من مرضه الذي توفي فيه رحمه الله.

ملحق المؤلف

رسالة الملكة فاطمة بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٦٩، أي بعد اثني عشر يوما من استيلاء العسكريين على الحكم في ليبيا.

كامينا فورلا
في ١٩٦٩/٩/١٣

أعزائي السيد دي كاندول وحرمه،
أشكركما على رسالتيكما والبرقية التي وصلتنا منكما.
ونحن نقدر لكما مشاعر التعاطف معنا في هذه الآونة بالذات، ولا سيما أننا في بريطانيا العظمى بأسرها لم نجد غير صديقين وحيدين رغم الصداقة التي دامت عشرين عاما مع انجلترا.
انني لم اتمكن من الرد على رسالتيكما وبرقيتكما قبل الآن نظرا لأننا، أنا وزوجي، كنا وحدنا تماما لدى وقوع الانقلاب في ليبيا. وكل من سليمة وسحر موجودتان هناك، ونحن مشغولان عليهما كثيرا. أما هدلة فقد التحقت بنا في الأسبوع الماضي.

عزيزي السيد دي كاندول،
كان يمكن أن أتوقع أي شيء ما عدا الأسلوب الذي اتبعته هيئة الاذاعة البريطانية في تقديم أخبارنا، وعلى الأخص فيما يتعلق بزوجي، فهي بالغة العداء شديدة التجني. وقد فوجئت بهذا أكثر مما صدمت بحدوث الانقلاب الليبي نفسه. ولاحظ الجميع هذا الموقف الملفت للنظر في كيفية عرض الانباء من القسم العربي بالاذاعة البريطانية، ومنهم مثلا مراسل صحيفة «الديلي اكسبريس»، الذي كان يومها في كامينا فولار، ودهش جدا من سماع الاخبار في الاذاعة البريطانية.

انك تعرف جيدا موقف زوجي من الحكومة البريطانية في أصعب وأحرج أوقاتها، حين انحاز الى جانبكم وهو يعلم حق العلم أن ذلك سوف يخلق له عداوات كثيرة. ومع هذا وقف في صفكم عند الشدة. ولا أعني بهذا القول أننا نريد من انجلترا التدخل في شأن من شؤون ليبيا الداخلية، فهذا أمر غير وارد دستورياً من وجهة نظرنا، كما أننا لسنا آسفين اطلاقاً لما حدث. بل ان زوجي كان قد سلم وثيقة تنازله منذ اليوم الرابع من أغسطس، وهي لم تزل في حوزة السيد العبار الذي كان من المفروض أن يعود الى ليبيا لتقديمها بتاريخ ٢ سبتمبر الجاري. وهذه حقيقة معروفة تماما حتى لدى مجلس الثورة في ليبيا.

ان ما حز في نفسي كثيراً هو تلك اللهجة والأسلوب اللذين استعملتهما هيئة الاذاعة البريطانية في نقلها للأخبار.

فعمر الشلحي حين سافر للتباحث مع وزير خارجية بريطانيا انما أقدم على ذلك من تلقاء نفسه، اعتقادا منه أنه ربما استطاع مساعدة أخيه وبعض أصدقائه في ليبيا. غير أن وزارة الخارجية عندكم لم تكلف نفسها عناء التحقق مما اذا كان الملك قد أوفده فعلا. ولدى عودته، لامه زوجي على تصرفه. ومع ذلك فهو حاول مرة أخرى أن يقابل مسؤولين في الحكومة الامريكية، ولكنه أخفق في مسعاه. وهذا كله حدث دون تفويض من الملك ومن غير موافقته.

وقد كنت أحسب أن الايطاليين سوف يكونون أول من يهاجمنا ويشمت بنا في ظروف كهذه لأنهم كانوا أعداء لنا وكنا نقاتلهم في يوم من الأيام، ولكن حدث عكس ما توقعت. فهم من خلال صحافتهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة تهجما على الملك. بل قالوا انهم، وهم الذين حاربوه من قبل، يستطيعون أن يقروا له بمزايا الوفاء لأصدقائه والعدل في حكمه.

وانني لم أكتب هذه الرسالة بقصد الاساءة اليك، وانما لمجرد أنك أثبت صداقتك لنا فأستطيع أن أكون صريحة معك. وزوجي يتحمل الشدائد في صمت، فكل ما كتبته في هذه الرسالة هو تعبير عن رأيي الشخصي. وهو طلب مني فقط أن أشكرك أنت والسيدة زوجتك على مشاعركما الطيبة نحونا وتذكركما لنا في هذه الأيام الصعبة.

وكم أود أن أراكما، فعندي أشياء كثيرة أريد أن أخبركما بها. ولكن اللقاء صعب في الوقت الحاضر، وحالما نستقر أرجو أن تحضرا لزيارتنا حتى أحكي لكما شخصيا ما أريد قوله.

وقبل أن أنهي رسالتي أحب أن أقول اننا نحمد الله على أن تيجان الملكية لم تبهرنا قط، ولا نشعر بالأسف لفقدها. فنحن كنا دائما نعيش حياة متواضعة ولم يغب عن أذهاننا مثل

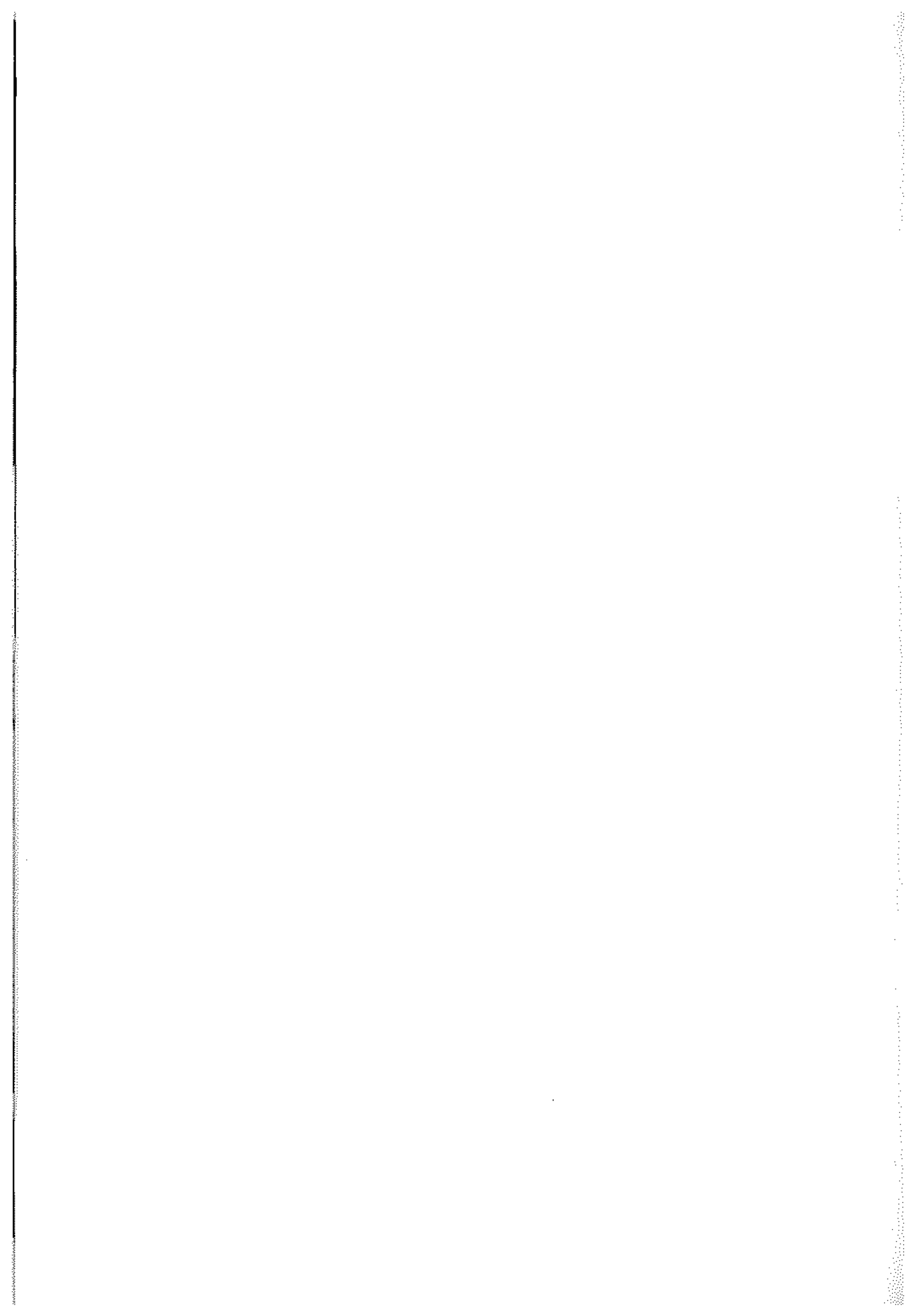


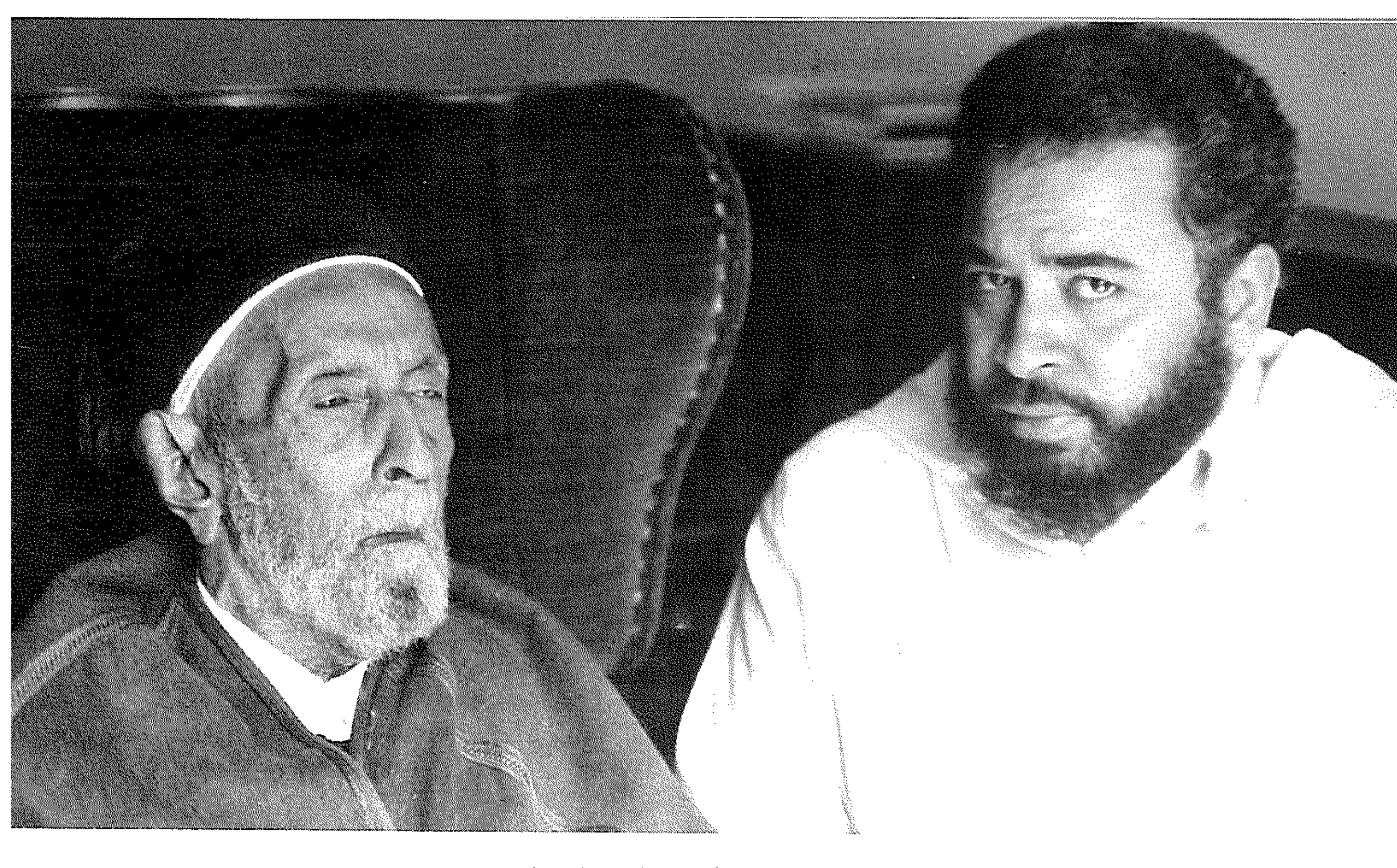
هذا اليوم. كما نحمد الله كثير على أننا لا نملك مليما واحدا في أي مصرف حتى يشغل بالنا المال. ولم نغير أبدا معاملتنا لأصدقائنا، وهي لن تتغير مع الأيام.

تحياتنا الى تشارلز وآندرو، ونتمنى لهما كل توفيق. أما ولدنا عمر فهو سيسافر الى لندن في الخامس والعشرين من هذا الشهر اذا استطعنا تدبير الأمر، وان لم نجد وسيلة الى ذلك فالمستقبل بيد الله.

ولكما منا أطيب التمنيات بدوام الصحة والهناء.

فاطمة ادريس





سيدي ادريس بمحل اقامته بقصر ضيافة رئاسة الجمهورية بالدقي ـ القاهرة في ديسمبر ١٩٨٢ م
خمسة اشهر قبل وفاته ومعه الناشر محمد عبده بن غلبون.

ملحق الناشر رقم ١

وثيقة (١)
مبايعة الجمعية الوطنية التأسيسية للأمير
ادريس السنوسي ملكاً دستورياً للمملكة الليبية
المتحدة عام ١٩٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهده عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً.

نحن ممثلي شعب ليبيا من برقة وطرابلس وفزان المجتمعين بطرابلس الغرب في جمعية وطنية تأسيسية بارادة الله والمزودين بالصلاحيات الكاملة المعترف بصحتها واستيفائها الشكل القانوني، والعازمين على تأليف اتحاد بيننا وتكوين دولة اتحادية ديمقراطية مستقلة وذات سيادة نظام ا لحكم فيها ملكي دستوري نستهل عملنا بحمد الله وشكره على ما قد منّ علينا من نعمة في تحرير بلادنا واستقلالها.

واننا إعترافاً باخلاص صاحب السمو السيد محمد ادريس المهدي السنوسي أمير برقة المعظم وجهاده الطويل المثمر لخير ليبيا وشعبها وتحقيقاً لرغبة الشعب العامة.

وإقراراً للبيعات الرعية السابقة التي صدرت من ممثلي الشعب الشرعيين لسموه وحرصاً على سعادة بلادنا واتحادها تحت تاج ملك نجد فيه المثل الأعلى للصفات التي يتطلبها هذا المنصب السامي.

فاننا ننادي بسمو الأمير السيد محمد ادريس المهدي السنوسي أمير برقة المعظم ونبايعه ملكا دستوريا للمملكة الليبية المتحدة، ونرجو جلالته أن يتفضل ويقبل ذلك.

واننا قررنا انتقال الجمعية التأسيسية بكامل هيئتها الى بنغازي لرفع هذا القرار التاريخي لجلالة الملك المعظم وتلقي قبول جلالته لهذه البيعة.

طرابلس الغرب في يوم السبت ٢٢ صفر الخير ١٣٧٠
الموافق في ٢ ديسمبر ١٩٥٠.

ملحق الناشر رقم ٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الى سمو مولانا الامير الجليل السيد محمد ادريس المهدي السنوسي حفظه الله ورعاه.
تحية تليق بالمقام الرفيع والجناب المنيع،

وبعد،

فأنه غير خاف على سموكم ان الخلاف لم يزل قائم بيننا وبين الحكومة الايطالية، ذلك لانها وجهت غرضها الى العبث بجميع حقوقنا شرعيها وسياسيها واداريها، وجعلت من قوتها مبرراً للتصرف في مصيرنا وحقوقنا الطبيعية، ونحن خير امة اخرجت للناس لا نحتمل ضيماً ولا نرضى ان تضمحل شريعتنا ولا ان يتطرق الخلل الى ديننا القويم كائناً ما كان الامر الذي حملنا على ركوب الاخطار واقتحام الحروب المتوالية معتمدين على قوة الحق الى ان نظفر بتحقيق امنيتنا القومية الا وهي تأسيس حكومة دستورية يرأسها امير مسلم جامع للسلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية مع مجلس نيابي تنتخب الامة اعضاءه وبهذا يسلم وطننا ويتم امر ديننا وتصلح احكام قضائنا ويحفظ شرعنا ومنعة تاريخنا الباهر، وهذا لا يتنافى مع ما تدعيه ايطاليا وما دأبت عليه في خطط رجالها من انها لا تحتل ديارنا بنية الاستعمال وانما ساقتها دواعي السياسة الدولية في البحر المتوسط، ولو كانت صادقة في دعواها هذا لما عرضت بلادنا للخراب بتوالي المهاجمات واستعمال دهائها وقدرتها للتفريق والفوضى وقد حاولت فصل الامة بعضها عن بعض بطرق مختلفة وابى الله الا ان يجمع كلمة القطرين بأن يلتفا حول امير واحد يرضيانه، حيث كان سموكم من اشرف عائلة واكرم بيت مع ما تجتمع في ذاتكم الشريفة من المزايا العالية والاوصاف الجميلة فأن هيئة الاصلاح المركزية الحائزة للوكالة المطلعة من مؤتمر (غريان) الذي يمثل الامة الطرابلسية بانتخاب واقع منها، قد وجدت في سموكم اميراً حازماً قادراً على جمع الامة حائزاً للثقة العامة محبوباً، فهي لذلك تبايع سموكم اميراً للقطرين طرابلس وبرقة على ان

تقودونها الى ما يحقق آمالها الشريفة الاسلامية المنوه عنها، لقد كانت مبايعتكم مفخرة في النفس منذ وقع الاتحاد بين مندوبي القطرين في (سرت) وكان السبب في تأخير تحقيقها طوارىء الحرب الذي طوحت بكل واحد من اعضاء الهيئة ورجال القطر في منطقة شاسعة من المناطق الحربية.

وبهذه المبايعة ان شاء الله اصبح سموكم الامير المحبوب للقطرين المباركين ومتى سنحت الفرصة عند تشريفكم ايانا حسب رغبة الامة تقام لكم مظاهر هذه البيعة في موكب لائق بسموكم.

والله سبحانه وتعالى يمدكم بروح منه ويجعل البركة في البيت السنوسي المؤسس على التقوى والصلاح.

في ٣ ذي الحجة سنة ١٣٤١ هـ

التوقيعات: رئيس هيئة الاصلاح المركزية احمد المريض - مستشارها عبد الرحمن عزام

اعضائها: بشير السعداوي - حسين بن جابر - محمد فرحات - عبد الرحمن زبيدة - محمد التايب - سالم البحباح - عثمان القيزاني - عمر ابو دبوس - محمد الصادق بن الحاج محمد - مختار كعبار - محمد فكيني - الصويعي الخيتوني.

اعيان: محمد الديب - محمد سوف - عمر حبيل - احمد اشتيوي - فرحات القاضي - خالد القرقني - احمد السني - البغدادي بن معيوف - محمد الصغير المريض.

قائد الجيش الوطني: محمد سعدون.

ملحق الناشر رقم ٣

من خادم الملة الاسلامية محمد ادريس المهدي السنوسي:
الى اصحاب السعادة رئيس هيئة الاصلاح المركزية وعموم الموظفين ورؤساء الجيوش وكافة الاعيان والاهالي الطرابلسيين ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد،

فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التي اظهرتم فيها رغبتكم الخاصة التي اجتمعتم عليها في مؤتمر (غريان) وجاهدتم لها جهادا صادقا بالانفس والثمرات في شخصي فاخذتها داعياً الله ان يحقق آمال هذه الامة ويكلل مساعيها بالنجاح.

ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التي طالما سعيت اليها، وجدت من واجبي ان اتلقى طلبكم بالقبول وان اتحمل المسؤولية العظمى التي رأت الامة تكليفي بها، فعلي اذن ان اعمل بجد معكم، ولكن لا تنسوا اني بغير جدكم واقدامكم لا قدرة لي على شيء.

اني اعلم ان الحياة الخالدة هي للأمم لا للافراد وكذلك الاعمال العظيمة الباقية هي التي تتصرف الى صالح الجميع، فلذلك ادعوه سبحانه وتعالى ان يهدينا الى كل عمل ثمرته للأمة.

ان من حق كل شعب ان يسيطر على شؤونه، والناس قد نشئوا احراراً، وقد اظهر شعبنا في كل ادواره مقدار محبته للحرية فدفع مهورها غالية فلا يصح لاحد ان يطمع في استعباده والاستبداد بشؤونه. لقد اشترطتم علي الشورى وهي اساس ديننا وسأعمل على قاعدتها، هذا وقد رأيت ان اقر الامور على ما هي عليه حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد، فلذلك أكل الى الهيئة المركزية لما ابدت من الحمية والعدل والدراية ان تستمر على ادارة شؤون القطر الطرابلسي، ولي الثقة العظيمة في حكمة رئيسها البطل الحازم احمد بك المريض ورفقائه الرؤوساء الكرام والذين ايدوا مساعي الهيئة المركزية ان يتحملوا مشاق المسؤولية بصبر لتثبيت دعائم البناء الوطني الذي شيدوه، واسأله تعالى ان يمد الجميع بعنايته وان يثبت الاقدام ويقهر الاعداء ويمن بالنصر الموعود، انه على ما يشاء قدير.

في يوم ٢٢ ربيع سنة ١٣٤٢ هـ

ملحق الناشر رقم ٤

سنة ١٩٥٦ م قال شاعر الوطن احمد رفيق المهدوي هذه القصيدة بمناسبة مرور مائة ام على وفاة سيدي محمد بن علي السنوسي.

خلدوا، ذكرى امام المصلحين
سيد المجتهدين العارفين
الامام، ابن السنوسي، الذي
فاق صنف العلماء العاملين!
كان فذا، ما علمنا مثله
جاء بعد الخلفاء الراشدين!
عبقري قد تسامى للعلا
بجلال العلم والدين المتين!
وباصلاح ترى آثاره
لم تزل تهدى على مر السنين
نشر الذين بعزم صارم
وجهاد كجهاد المرسلين!
وهدى قوما على غير هدى
بين جهل وضلال عائشين!
في صحارى يلفح القيظ بها
كشواظ النار فيها الساكنين!
وبلاد في غمار مطبق
بظلام البؤس، والغيم المشين!
عمها دينا ودنيا فغدا
اهلها من علماء المسلمين!



وبنى فيها (زوايا) أصبحت
منهلًا عذباً لورد الظامئين!
ومنارات تشع العلم من
قابس عن نور رب العالمين!
بالتآليف التي من فيضها
(سلسبيل) (المنهل) الصافي المعين
و(شفاء الصدر) من رين الهوى
و(بايقاظ لوسنان) مهين
وشروح لعَلوم وضحت
ما عصى من مشكلات الأولين
كتب لو طبعت أو جمعت
كلها جازت حدود الأربعين
بينت ما جاءنا عن جده
من علوم، وأحاديث، ودين
هذه آثاره ممن علمه
كلها تدعو الى الحق اليقين

★★★

لكن الآثار من أعماله
ومن الاصلاح بالعقل الرصين!
ظهرت في نسله من بعده
واستوت في نجله (المهدي) الأمين!
فجرى فيها على أعراقه
ومضى فيها أجل الوارثين!
زاد في الاصلاح ما لم يأته
أحد من قبله في السابقين
بجهاد عملي نافذ
لا بالقاء دروس الواعظين

أو بداعي طرق صوفية
ليس فيها غير ورد الذاكرين
ورث الأخلاق عن والده
ان للآباء سراً في البنين!
انها ذرية من بعضها
ينزع الآخر منها الأولين!
وعروق سرها منتقل
بالوراثات ولو من بعد حين
وبقايا الذهب الابريز في
منجم تبرز من بعد سنين

★★★

واستمر السيد (المهدي) على
مثل ما شاد امام المصلحين
عمل لله في تأسيسه
نية الخير لنفع المسلمين
كان من مبدئه توحيدهم
بهدى التوحيد، والدين المتين!
كيف لا يزكو، وينمو، عمل
خالص لله هادي الصالحين!
واذا ما بارك الله على
مخلص كان له نعم المعين!
وهداه، واجتباه، واهبا
نعمة تعجز شكر الشاكرين!
نعمة تممها الشكر على
هبة (الادريس) خير المالكين!
ملك! ليس له، في عصرنا
من مثيل بين كل الحاكمين!



خلق عال، ودين، وتقى
وقليل، في الملك، المتقون!

ملك! مازال. منذ نشأته
في جهاد، وكفاح، لا يلين!

في شباب العمر، لم يخلد الى
راحة، من حبه العيش الخشين!

همُّه، في أمة، انقذها
بقتال من يد المستعمرين!

وبنى ملكاً، لها، قام على
وثبات النصر والفتح المبين!

وعلى أركان عدل شاده
اذ بقاء الملك بالعدل رهين!

ولنشر العلم، من أملاكه
وهب الغالي منها والثمين!

كل يوم يقتني مكرمة
ويفيد الشعب خيراً ويدين!

منعماً، طوراً، وطوراً، محسناً
لا يضيع الله أجر المحسنين!

تلك، من آبائه، شِنْشِنَة
يشهد التاريخ فيها باليقين!

وسيبقيها، على الدهر، لها
غرة واضحة فوق الجبين!

بدأت، بابن السنوسي، ولن
تنتهي ذكراه قدر الخالدين!

سوف يَحيا، ويُحيى ذكره
زمن، يعرف قدر الخالدين!

معلناً، لابن السنوسي، شهرة
انه، حقاً، امام المصلحين!

ملحق الناشر رقم ٥

نشرت هذه القصيدة لشاعر الوطن احمد رفيق المهدوي في جريدة الوطن عدد رقم ١٣٩ بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٩٥٠ م.

تبارك الله! عز النصر، والظفر
وحل، في السعد من أبراجه، القمر!
وأشرق التاج، مزدانا، بلابسه
وهلل العرش، (بالأدريس) يفتخر!
تاج وعرش، حباك الله عزهما!
عقبى جهاد، طويل، كله غرر!
ارادة الله! أمضاها وأيدها
شعب، محب لهذا اليوم، ينتظر!
شعب له، في هوى الأوطان، تضحية
لم يحتسب مثلها، من قبله، بشر!
شعب! أحلّك من قلب بمنزلة
لم يلق أمثالها سمع ولا بصر!
رآك قائده، للنصر رائده،
والنصر يحرزه، بالقائد، النفر!
فأيقنت كل نفس أن منقذها
من كان يحلو له، من أجلها، السهر!
وأنها اليوم! ان نادت به ملكاً
فهو الجدير به. والشاهد الأثر



ملك عظيم! على عدل تؤسسه
وأمة، بعد قهر اليأس، تنتصر!

★★★

يا أيها الملك! الميمون طالعه
دانت لعزتك الأيام والقدر!
هذي بلادك! قد وافتك، مجمعة
على ولائك صح الخُبر والخَبر!
جاءت بمحض اختيار من ارادتها
تنثال أقطارها؛ والبدو، والحضر!
تريد، في ظل هذا العرش، وحدتها!
وملكها، تحت هذا التاج، ينحصر!
فانها علمت، والدهر علمها
أن التفرق، فيما بينها، ضرر!
فاعطف على مالها، من رغبة صدقت
حتى يحققها، من عطفك، النظر!
ما زال شعبك، بعد الله، معتمداً
على جهادك! حتى يذهب الخطر!
فانه صادق، في الحب، ممتثل
للأمر، مرتقب للنصح، مفتقر!
وفي حياتك، مد الله مدتها
وزاد عدتها، عز ومفتخر!
واسلم لملك، أطال الله عمرك في
أيامه، وبك الأيام تزدهر!

ملحق الناشر رقم ٦

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
واله وصحبه اجمعين

اما بعد،

يا اخواني الاعزاء رئيس واعضاء مجلس الشيوخ واعضاء مجلس النواب، يعني مجلس الامة الليبية، ورئيس الحكومة الليبية.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

اقدم لكم هذا الخطاب قائلاً: منذ ان قلدتني هذه الامة الكريمة الليبية ثقتها الغالية بتبوئي هذا المقام الذي شغلته بعد اعلان استقلال بلادنا العزيزة ليبيا.

قمت بما قدر الله لي مما اراه واجب على نحو بلادي واهلها وقد لا يخلو عمل كل انسان من التقصير، وعندما شعرت بالضعف قدمت استقالتي قبل الآن ببعض سنوات فرددتموها فطوعاً لأرادتكم سحبتها، واني الآن نسبة لتقدم سني وضعف جسدي اراني مضطراً ان اقول ثانية اني عاجز عن حمل هذه الامانة الثقيلة، ولا يخفى انني بليت في سبيلها خمسة وخمسين سنة قبل الاستقلال وبعده قد اوهنت جلدي مداولة الشئون وكما قال الشاعر (سئمت تكاليف الحياة ومن يعش، ثمانين حولاً لا أباً لك يسأم).

وقد مارست هذه القضية وعمري ٢٧ سنة والآن في الثانية والثمانين ولله الحمد اتركها في حالة هي احسن مما باشرت في بلائي بها، فاسلمها الآن لولي العهد السيد الحسن رضا المهدي السنوسي، البالغ من العمر ٤٣ سنة هجرية، الذي يعتبر من اليوم (الملك الحسن رضا المهدي السنوسي الاول) على ان يقوم بعبئها الثقيل امام الله وامام اهل هذه البلاد الكريمة على نهج الشريعة الاسلامية والدستور الليبي بالعدل والانصاف فاعتمدوه مثلي ما دام على طاعة الله ورسوله والاستقامة.



وبعد اعتماده من مجلس الامة يحلف اليمين الدستورية امام مجلس الامة قبل ان يباشر سلطاته الدستورية. واني ان شاء الله عقدت العزم الاكيد على اجتناب السياسة بتاتاً والله على ما اقول وكيل.

والذي اختتم به قولي بان اوصي الجميع من ابناء وطني بتقوى الله في السر والعلن، وانكم جميعاً في ارغد عيش وانعم النعم من الله تبارك وتعالى.

فأحذروا من ان يصدق عليكم قوله تعالى (ضرب الله مثلاً قرية كانت امنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعـون) فالله الله مما يغضب الله. وتعـاونـوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ولا تفرقوا، قال صلى الله عليه وسلم لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم.

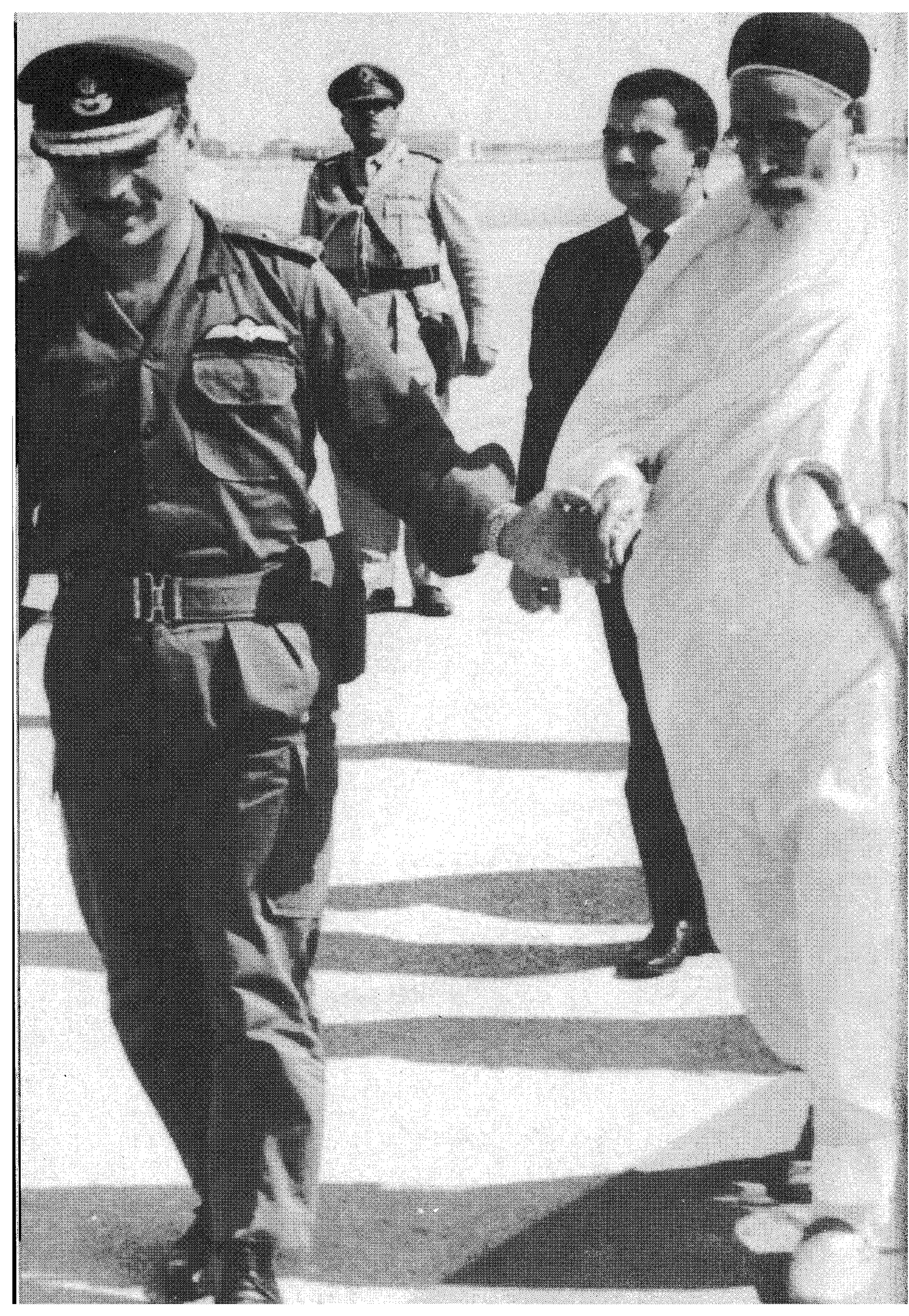
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد أدريس المهدي السنوسي

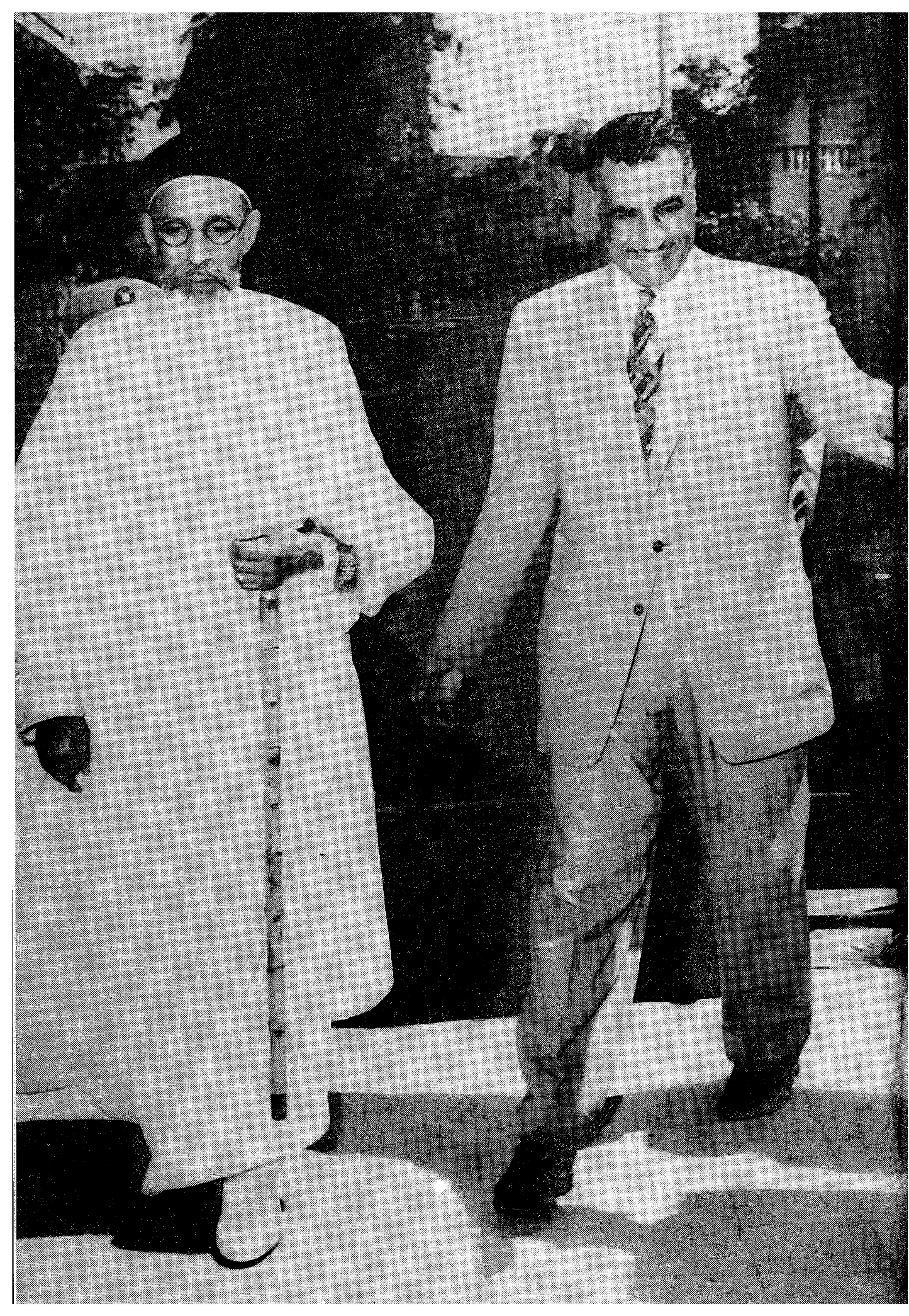
اليونان في ٢١ جمادى الاول ١٣٨٩ هـ
الموافق ٤ اغسطس ١٩٦٩ م

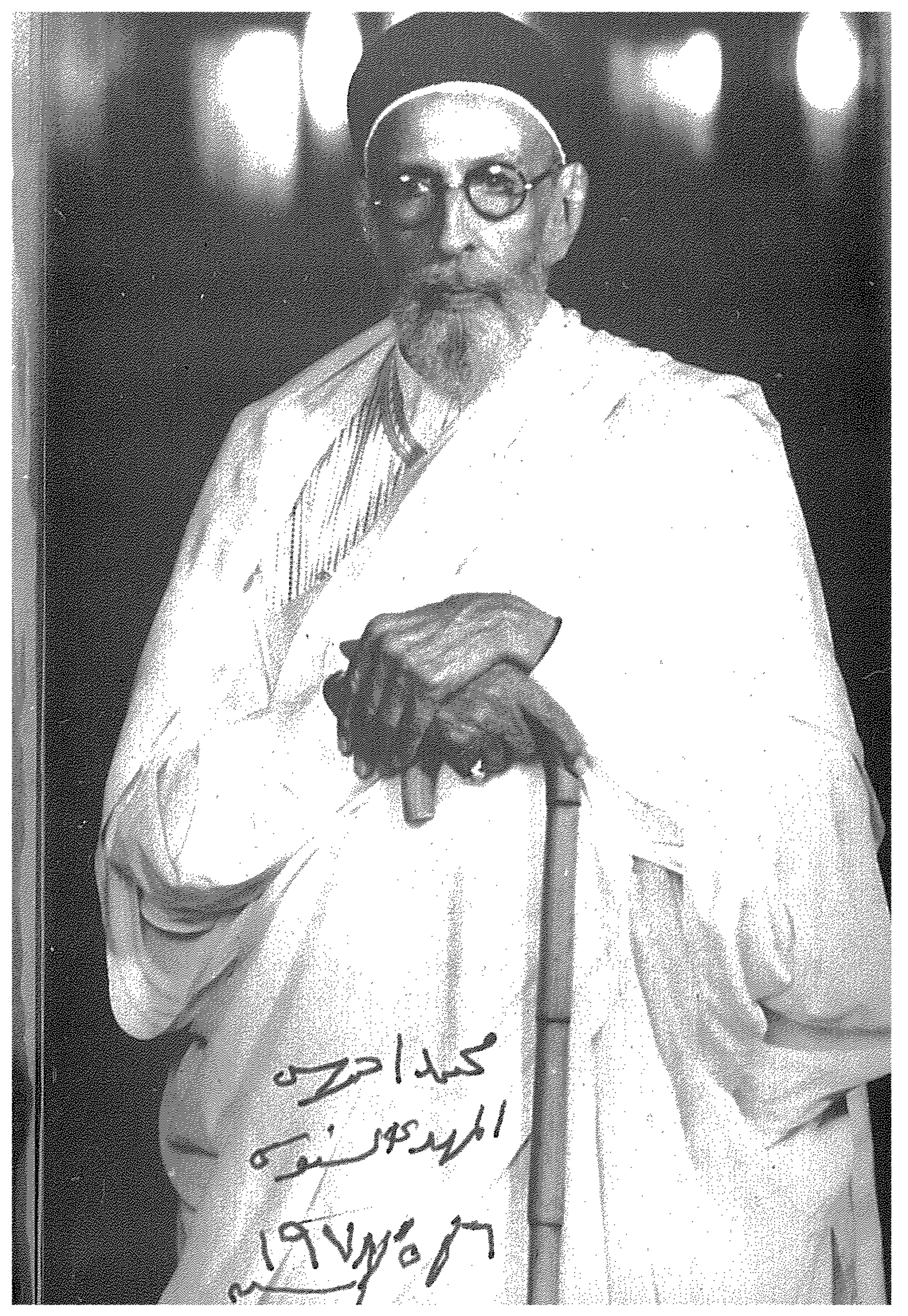
تم بحمد الله تعريبه وطبعه في منشستر سنة ١٩٨٩










محمد ادريس
المهدي السنوسي
٢٦/٥/١٩٦٧